جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

الأدب الأندلسي في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي

إعداد الطالب
نضال سالم النوافعة

إشراف
الأستاذ الدكتور سمير الدروبي

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه
في الدراسات الأدبية قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة مؤتة، 2008

الإهــداء

إلى من كان سبب وجودي في هذه الحياة، ورحل عنـــي دون أن يعطينـــي درساً في الفراق، إلى اليدين اللتين طالما حلمت أن تكونا أول يدين تـــصفقان لـــي عند تقديم هذا العمل ، إلى الحضن الذي حلمت أن أسقط فيه كمـــا يـــسجد القائـــد المنتصر في ساحة المعركة بعد الانتهاء، إلى العينين اللتين كنتُ أتمنى أن تكونـــا أول عينين تريان هذا العمل ، إلى صاحبة الوجه الوردي، بحثت عنكِ في كل مكان لكي تشاركيني هذه اللحظة الجميلة، ولكني لم أجدكِ ...

.... أمي

نضال النوافعة

الشكر والتقدير

إن من مقتضيات الواجب أن يسند الفضل إلى أهله ؛ لهذا أجد تقديرا مني أن أقدم باقة من الشكر لأستاذي الجليل الأستاذ الدكتور سمير الدروبي مدّ الله في عمره ومتعه بالصحة والعافية ؛ لتكرمه بالإشراف على هذه الدراسة وحسن رعايته ودوام متابعته فهو لم يبخل عليّ بتوجيهاته وآرائه السديدة ، ولم يأل جهدا من مدّ يد العون والمساعدة إلي حتى كان هذا العمل المتواضع فجزاه الله عني الجزاء الأوفى.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الدكتور فايز القيسي، على موافقته قراءة هذا العمل وإبداء ملاحظاته القيمة ، فلهُ مني جزيل الشكر والعرفان .

الصفحة	المحتوى
أ	الإهداء
ب	الشكر والتقدير
ج	فهرس المحتويات
و	الملخص باللغة العربية
ح	الملخص باللغة الإنجليزية
3-1	المقدمة
15-4	**الفصل الأول : مصادر الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي ، ومنهج مؤلفيها**
4	1 .1 مصادر نهاية الأرب
7	1 .2 منهج النويري
8	1 .3 مصادر صبح الأعشى
12	1 .4 منهج القلقشندي
12	1 .5 مصادر مسالك الأبصار
15	1 .6 منهج العمري
39-16	**الفصل الثاني : الشعر الاندلسي في الموسوعات الادبية في العصر المملوكي**
16	2. 1 وصف المدن الأندلسية
16	2. 1. 1 قرطبة
20	2. 1. 2 غرناطة
21	2. 1. 3 إشبيلية
23	2. 1. 4 بلنسية
24	2. 1. 5 طليطلة
25	2. 1. 6 بطليوس
26	2. 1. 7 طرطوشة
26	2. 1. 8 جيان
27	2. 1. 9 سرقسطة
28	2. 1. 10 مرسية
29	2 .2 وصف المعارك والحروب "معركة الزلاقة"
88-40	**الفصل الثالث: شخصيات أندلسية في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي**

3 .1 عبد الرحمن الداخل 40
3. 1.1 اسمه ولقبه 41
3. 1. 2 معركة المصارة 42
3. 1. 3 أدب عبد الرحمن الداخل 43
3. 2 عبد الرحمن بن الحكم 46
3. 2. 1 الحروب والغزوات 47
3. 2. 2 أدب عبد الرحمن الأوسط 49
3 .3 المعتمد بن عبّاد 51
3. 3. 1 منزلته الأدبية 54
3. 4 ابن زيدون وشعره 56
3. 5 ابن أبي الخصال و أدبه 61
3 .6 لسان الدين ابن الخطيب وأدبه 71
3 .7 ابن عربي و أدبه 83
الفصل الرابع : النثر الأندلسي في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي 89-139
4 .1 فنون النثر الأندلسي 90
4 .1.1 الرسائل 91
4 .1. 2 الرسائل الرسمية 93
4 .2 مجالات الرسائل الرسمية 94
4 .3 الرسائل الإخوانية 108
4 .4 خصائص الرسائل 124
4 .5 العهود 132
4 .5 .1 عهد الولاية 132
4 .5 .2 عهد الأمان 135
4 .5 .3 عهد الصلح والدعوة إليه 136
الخاتمة 140
المراجع 142

الملخص

الأدب الأندلسي في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي

نضال النوافعة

جامعة مؤتة 2008

تناولت هذه الدراسة " الأدب الأندلسي في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي " وكان الهدف منها بيان الدور الذي نهضت به الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي في حفظ الأدب الأندلسي ، وبناء على ذلك قسمت الدراسة إلى أربعة فصول :

خصص الفصل الأول للحديث عن مصادر الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي ، ومناهج مؤلفيها ، وقسّم إلى ثلاثة أقسام ، القسم الأول : مصادر صبح الأعشى ومنهج القلقشندي ، والقسم الثاني : مصادر نهاية الأرب ومنهج النويري،والقسم الثالث:مصادر مسالك الأبصارومنهج العمري .

عقد الفصل الثاني للحديث عن " الشعر الأندلسي في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي " وقسم إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول : وصف المدن الأندلسية ،والقسم الثاني : وصف المعارك والحروب، والقسم الثالث : وصف الطبيعة الأندلسية.

وخصص الفصل الثالث للحديث عن "شخصيات أندلسية في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي " وقسم إلى سبعة أقسام ، القسم الأول : عبد الرحمن الداخل وشعره ، والقسم الثاني : عبد الرحمن بن الحكم وشعره ، والقسم الثالث : المعتمد بن عبّاد وشعره،والقسم الرابع:ابن زيدون وشعره،والقسم الخامس ابن أبي الخصال وأدبه،و القسم السادس ابن الخطيب وأدبه ،والقسم السابع ابن عربي وأدبه .

تناول الفصل الرابع الحديث عن " النثر الأندلسي في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي " وقسم إلى قسمين ، القسم الأول : الرسائل ، والقسم الثاني : العهود .

وقد اقتضت الدراسة أن استفيد من المنهج التاريخي ، والمنهج الفني .

Abstract

Andalusian literature in the literary encyclopedias of the mamlukian age.

Nidal AL Nawafa'ah

Mu'tah university 2008

This study discusses the Andalusian literature in the literary encyclopedias of the mamlukian age. The aim of the study is to explain the role of the literary ency – clopedias in the mamlukian age in preserving Andalusian literature . Therefore, the study has been divided into four chapters.

The first chapter discusses the literary encyclopedias resoarces in the mamlukian age ,and author's methods and it has been divided into three parts. The first one ((So- poh Al – Asha)) . Qalaqshendi Method . The second part : ((Nehayet –Arab))- and Anweree Method. The third part: Masalek Al-Albsar Resources, and Al- Omary method.

The second chapter discusses the Andalusian poetry in the literary encyclopedias in the mamlukian age . This chapter has been divided into three sections . The first : description of the Andalusian cities .The second : description of battles and wars. The third: description of the Andalusian nature.

The third chapter discusses Andalusian figures in the literary encyclopedias of the mamlukian age . This chapter has been divided into seven sections : the first : Abdrfrahmon ALdalhif's poetry . The second : Abd-Rahman bin AL Hakam's poetry. The third section : AL Muatamid bin Abbads poetry . The forth part: Ibn-Zedon poetry.

The fifth: discusses Ibn – Al- Qissal prose . The sixth part: discusses Ibn - Al – Khatib prose. The seventh part: discusses Ibn-Arabi prose.

The fourth chapter discusses the Andalusian prose in the literary encyclopedias in the mamlukian age . This chapter has been into divided two sections. The first : the letters . The second : The pacts

So the study need to benefit from historical method . Artificial method .

المقدمة :-

ثمة علاقة و ثيقة بين الأدب الأندلسي والموسوعات الأدبية في العصر المملوكي ، فقد صورت الموسوعات الأدبية جوانب شتى من مظاهر الأدب الأندلسي،إذ تعد هذه الموسوعات مصدراً من مصادر الأدب الأندلسي بما حوت بين طياتها من أشعار ونصوص أدبية أندلسية.

لذا وقع اختياري على دراسة الأدب الأندلسي في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي لما لهذا الأدب من أهمية في الدراسات الأدبية . وتقتصر هذه الدراسة على الموسوعات الأدبية التالية (صبح الأعشى في صناعةالانشا ، للقلقشندي ، ونهاية الأرب في فنون الأدب ، للنّويري ،ومسالك الأبصار،للعمري) .

كما أنه في حدود اطلاعي لم اعثر على دراسات سابقة تخص موضوع الأدب الأندلسي في الموسو عات الأدبية في العصر المملوكي .

وتتمثل أهمية البحث في دراسة الأدب الأندلسي في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي ، وهو أدب لم يحض باهتمام كبير لدى دارسي الأدب الأندلسي ، ولم تتناوله دراسة مستقلة على الرغم من غزارة المادة الأدبية والتاريخية ، من حيث دراسة المادة الأدبية والتاريخية والجغرافية ... الأندلسية في هذه الموسوعات ، وبيان أهمية الأدب الأندلسي الذي لا يقل أهميةً عن أدب المشرق ، كما تتمثل أهمية البحث في التركيز على بعض الشخصيات الأندلسية من أصحاب الموهبة في الشعر والنثر الفني ودراسة نتاجهم ، كما تركز على أهمية النثر الأندلسي ، فقد جمعت الموسوعات المملوكية العديد من الرسائل السلطانية والإخوانية .

إن طبيعة الموضوع تقتضي أن أستفيد من منهجين في الدراسة هما : المنهج التاريخي في الكشف عن العوامل التي أثرت في الأدب الأندلسي ، وتتبع الشعراء والكتاب الأندلسيين في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي والأحداث التاريخية الأندلسية التي جاء ذكرها في هذه الموسوعات . والمنهج الفني في دراسة الخصائص الفنية لهذا الأدب من حيث توضيح الأشعار الأندلسية ، وبيان موضوعاتها الرئيسية ، بالإضافة لبيان أهم مواضيع الكتابة النثرية في هذه الموسوعات من رسائل وعهود ، وبيان خصائصها الفنية.

وكان لابد من خطة يساق بها الأدب، وخطوط أساسية ترسم للبحث جوانبه ، فجعلت المادة في أربعة فصول ، وخصص الفصل الاول للحديث عن مصادر الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي ، ومناهج مؤلفيها ، وقسّمته إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول : مصادر صبح الأعشى ، ومنهج القلقشندي ، فتحدثت فيه عن أهم المصادر التي أفاد منها صبح الأعشى في إيراد المادة الأندلسية ، وتحدثت عن منهج القلقشندي في كتابه صبح الأعشى . والقسم الثاني : مصادر نهاية الأرب ، ومنهج النويري ، وتحدثت فيه عن مصادر نهاية الأرب في إيراد المادة الأندلسية ، كما تحدثت فيه عن المنهج الذي اتبعه النويري في كتابه : نهاية الأرب ،والقسم الثالث:مصادر مسالك الأبصار ومنهج العمري،وتحدثت فيه عن مصادر مسالك الأبصار في إيراد المادة الأندلسية،كما تحدثت فيه عن المنهج الذي اتبعه العمري في كتابه .

وخصص الفصل الثاني لـ" موضوعات الشعر الأندلسي في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي " وجعلته في ثلاثة أقسام ، تناولت في القسم الأول " شعر وصف المدن الأندلسية " وتحدثت فيه عن عشر مدن أندلسية ورد ذكرها في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي ، وتم استثناء ثلاث مدن أندلسية هي (برشلونة، وبنبلونه، وذلك لأنهما لم تخضعا للحكم الإسلامي في الأندلس ، ومدينة (أشبونة) لعدم العثور على شعر لوصف هذه المدينة الأندلسية ، أما القسم الثاني " وصف المعارك والحروب " وتحدثت فيه عن أهم معركة في الأندلس (معركة الزلاقة) التي تعد معركة فاصلة في تاريخ الأندلس. أما القسم الثالث " وصف الطبيعة الأندلسية " فتحدثت فيه عن وصف الأنهار الأندلسية التي ورد ذكرها في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي .

وتناول الفصل الثالث " شخصيات أندلسية في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي " وقسمته إلى سبعة أقسام ، خصصت القسم الأول للحديث عن " عبد الرحمن الداخل " و أهم موضوعات شعره ، أما القسم الثاني فتناول " عبد الرحمن بن الحكم " و أهم موضوعات شعره، والقسم الثالث تناول المعتمد بن عبّاد وأهم موضوعات شعره"،وتحدث القسم الرابع عن "ابن زيدون"و أهم موضوعات شعره، وأما القسم الخامس فتناول ابن أبي الخصال ونثره الفني،وتحدث القسم السادس عن ابن الخطيب وأدبه ،و جاء القسم السابع عن "ابن عربي"وأدبه.

أما الفصل الرابع فتناول " النثر الأندلسي في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي " وقسمته إلى قسمين ، القسم الأول : " الرسائل الأندلسية في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي " تحدثت فيه عن الرسائل الرسمية والإخوانية ، وأهم خصائص الرسائل الرسمية والأخوية في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي ، أما القسم الثاني : " العهود " فتحدثت فيه عن تعريف العهود ومشروعيتها، وأقسامها " عهد الأمان ، وعهد الصلح ، والدعوة إليه ، وعهد الولاية".

وأخيراً فأنا لا ادعي شمولية البحث ، ولكنني جهدت فيه ما وسعني الجهد ، حتى استقام وفق المخطط الذي رسمته بما أسعفتني به المصادر والمراجع ، وكان لمشرفي الكريم دوره الفعّال في التوجيه والإرشاد ، فأسهم في بناء هذا العمل المتواضع الذي أرجو أن يكون لبنة متواضعة في صرح الدراسات الأندلسية .

الفصل الأول
مصادر الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي
ومنهج مؤلفيها

لقد امتاز القرن الثامن الهجري في مصر خصوصاً، بظاهرة ثقافية مميزة، وهـي أنه عصر الموسوعات العلمية والأدبية الكبرى؛ فقد ظهرت فيه طائفة من العلماء الـذين توفروا على جمع أشتات العلوم والفنون المعروفة في هذا العصر، في مؤلفات جامعة لـم تعرفها الآداب العربية من قبل، وكتب فيه عدّة موسوعات جليلة ما زالت تتبوّأ مقامها الفذ في تراث الأدب العربي[1] .

وأقطاب هذه الحركة ثلاثة من أكابر العلماء والكتاب المصريين، هم: أحمد بن عبد الوهاب النويري المتوفى سنة " 733هـ" ، صاحب كتاب "نهاية الأرب في فنـون الأدب، وأحمد بن فضل الله العمري، المتوفى سنة "749هـ" صاحب كتاب "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" ، وأحمد بن علي القلقشندي، المتوفى سنة "821هـ" صـاحب كتـاب "صبح الأعشى في صناعة الإنشا".[2]

والقارئ لهذه الموسوعات يجدها تجمع بين الأدب والتاريخ و الجغرافيا والاقتصاد والاجتماع والعلوم الدينية ونظم الحكم والتراجم والفنون والعلوم[3].

1-1 مصادر نهاية الأرب، ومنهج النويري . ت "733هـ"

لقد بدأ النويري العمل على تأليف هذه الموسوعة التي تجمع بين طياتها كل فنـون العلم والمعرفة ، حيث لم تختصر على فن بعينه ، بل جاءت جامعة لكـل فنـون العلـم

(1) النويري، ، شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب النويري (677-733هـ) ، نهاية الأرب، في فنون الأدب ، تحقيق احمد كمال زكي ، مراجعة محمد مصطفى زيادة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (1980م) ، ص 3

(2) المصدر نفسه، ص 3

(3) المصدر نفسه، ص 3

والمعرفة كما مرّ سابقاً ، بعدما خلا إلى نفسه بعد خروجه من حيــاة الــسلطان ودخولــه حياته الخاصة ؛ لذلك لم يرفع موسوعته إلى الناصر ولم يهديها إليه[1] .

كان النويري إذا جاء المساء يأخذ في القراءة والجمع يعد لوضع تاريخــه الكبيــر الذي نحن في صدد دراسة الأدب الأندلسي الذي جمعه ووضعه في طياتــه ، وقــد أخــذ النويري في كتابة موسوعته الكبيرة في أوائل العقد الثالث من القرن السابع الهجــري، إذ تراه يكتب بخطه في نهاية السفر الأول : (نجز السفر الأول من كتاب نهايــة الأرب فــي فنون الأدب على يد مؤلفه يوم السبت المبارك لعشر بقين مــن ذي العقــدة عــام واحــد وعشرين وسبعمائة . وذلك بالقاهرة المصرية عمّرها الله تعالى يتلوه إن شاء الله تعــالى السِّفر الثاني[2] . وقد أجمع المؤرخون على أن الكتاب جاء في ثلاثين جــزءاً أو مجلــدا، وهذا التقسيم لم يشر إليه النويري ، بل قال أنه قسّم الكتاب إلى فنون، وجعــل كــل فــن سفراً، والفنون إلى أقسام والأقسام إلى أبواب[3] .

اعتمد النويري في كتابه "نهاية الأرب" على نوعين من المصادر هما: المخطوطات من وثائق ومراسلات توفرت له من تقلبه في الدواوين، حين كــان إليــه نظــر الجــيش بطرابلس ، وحين كان إليه نظر الديوان بالدقهلية، وكانت لها أثر قوي فــي هــذا العمــل الديواني الضخم[4]، والثاني: أمهات الكتب والمصنفات في مختلف ميادين العلــم والأدب التي توفرت له من إقباله على النسخ فمكنه من تقليب كتب زودته بالكثير مما يحب[5].

وفي دراستنا لمصادر كتاب "نهاية الأرب" سنختصر الحديث على مصادر الكتــاب الخاصة بالأدب الأندلسي فقط، دون التعرض لمــصادر الكتــاب الأخــرى؛ لأن طبيعــة الدراسة تقتضي ذلك.

---

(1) النويري ، مقدمة نهاية الأرب، ص 11

(2) المصدر نفسه ، ص 12

(3) المصدر نفسه ، ص 12

(4) المصدر نفسه ، ص 4

(5) المصدر نفسه، ص 11

وقد استعان النويري بالمكتبة الأندلسية عند حديثه عن الأدب الأندلسي،هذا الأدب الذي جاء منوعا بين الشعر والنثر،لذا لا بد من الحديث عن أهم المصادر الأندلسية التي استعان بها النوير ي، وبيان مدى الفائدة التي جناها منها.

ومن أهم مصادر النويري في كتابه "نهاية الأرب" كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" ، لأبن بسام، وهو من المصادر الأندلسية الأساسية التي اعتمد عليها النويري في المادة الأدبية الأندلسية ، فجمع منه مادة عظيمة من الرسائل السلطانية والأخوية ، والعهود ، ويرى الباحث أنه المصدر الأساسي من مصادر النويري الأندلسية ، والأكثر فائدة له في المادة الأدبية الأندلسية ، حيث كان ينقل أغلب النثر الأندلسي منه، فكان "الذخيرة" رافداً أساسياً من روافد "نهاية الأرب"، ومن الأمثلة على ذلك ما نقله من كلام أبي حفص عمر بن برد الأصغر ، من عهد أمان كتبه لمن عصى وعاود الطاعة" أما بعد، فإن الغلبة لنا والظهور عليك جلباك إلينا على قدمك،ودون عهد ولا عقد يمنعان من إراقة دمك،ولكنا بما وهب الله لنا من الإشراف على سرائر الرياسة".(1)

ومن مصادر النويري كتاب الروض المعطار،لعبدالمنعم الحميري، فكانت الفائدة الحاصلة من هذا الكتاب التي حصل عليها النويري في الحديث عن سير وتراجم الأمراء الأندلسيين، وفي التعريف ببعض المدن الأندلسية وأهم الأمراء الذين حكموها التي كان يشار إليها في ذيل الكتاب،ومن الأمثلة على ذلك ما نقله عن الأمراء الذين حكموا مدينة بلنسية يقول:" أما بلنسية فكان بها المنصور أبو الحسن عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن محمد بن المنصور بن أبي عامر،ثم أنضاف إليه المرية،وما كان إليها.وبعده ابنه محمد،ودام فيها إلى أن غدر به صهره المأمون بن إسماعيل بن ذي النون في ذي الحجة سنة سبع وخمسين وأربعمائة. (2)

ومن مصادر النويري أيضاً ، كتاب "المعجب" للمراكشي ، الذي لم تقل أهميته عن باقي المصادر الأندلسية التي أفاد منها النويري، بل كان من المصادر المهمة التي اعتمد عليها نهاية الأرب في الإفادة من المادة النثرية الأندلسية ، ومن المراجع الأساسية ، في إيراد بعض الرسائل الفنية وتصحيح بعض الأخطاء التي تقع في بعض المصادر الأخرى

---

(1) النويري ، نهاية الأرب ،ج7،ص306

(2) المصدر نفسه ، ج23، ص 466.

ويشار إلى ذلك في ذيل الكتاب،ومن الأمثلة على ذلك ماصحح به النويري بعض الكلمات الواردة في رسالة ابن أبي الخصال الموجهة لابن بسام من كتاب المعجب ومن هذه الكلمات قوله في الرسالة:"فزعت إلى الفكر ،وخفق القلب بين الأمن والحذر،فطاردت من الفقر أوابد قفر ،وشوارد عفر"،فقال في حاشية كتاب المعجب (فرغت ، وتغبر من الاغبار). [1]

ومن مصادر النويري أيضاً كتاب " معجم البلدان" لـ "ياقوت الحموي" وهو معجم جغرافي أفاد منه النويري في التعريف بأغلب البلدان التي أوردها في كتابه، ومن الأمثلة على ذلك ما أورده عن التعريف بمدينة بطليوس حيث جاء فيه " وكان صاحبها إذ ذاك ابن الأفطس،وهي مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال مارده على نهر اَنة غربي قرطبة". [2]

2-1 منهج النويري:

اتصف منهج النويري في "نهاية الأرب" بالأمانة العلمية فهو كاتب أمين، ينسب كل منقولاته إلى أصحابها ، ولا يدعي منها شيئاً لنفسه، إلى جانب أمانته في النقل.والأمثلة التي أوردتها تدل على أنه ينسب كل مقولة إلى أصحابها من المصادر الأندلسية التي أشرت إليها. ومن الأمثلة على ذلك ما نقله من كلام أبي حفص عمر بن برد الأصغر الأندلسي، من عهد أمان كتبه لمن عصى وعاود الطاعة" أما بعد، فإن الغلبة لنا والظهور عليك جلباك إلينا على قدمك،ودون عهد ولا عقد يمنعان من إراقة دمك،ولكنا بما وهب الله لنا من الإشراف على سرائر الرياسة". [3]

وكان منهجه يعتمد على وعي وحفظ شديدين ، بالإضافة إلى اعتماده على التلخيص ، لذا هو خلاصة كتب كثيرة ومراجع مختلفة تكاد تجد في ثناياه كتبا بجملتها بعد أن لخصت تلخيصاً ،ومنها على سبيل المثال: " إحياء علوم الدين للغزالي" و "الملل و النحل للشهرستاني"، و "فقه اللغة للثعالبي" و " الأمثال للميداني" ... ثم بعد هذا تجد فيه

---

(1) النويري،نهاية الأرب ،ج7،ص303 .

(2) المصدر نفسه، ص457 .

(3) المصدر نفسه،ص 306 .

تلخيصا وافيا لكتاب "مباهج الفكر ومناهج العبر" للوطـواط ، وكـذلك "نزهـة المـشتاق واختراق الآفاق للإدريسي"[1].فهو ذو موهبة عظيمة في التلخيص؛ حتى استطاع تلخـيص معظم هذه الكتب وإدراجها في كتابه ، فهو يحسن الاختيار ويجيد الاختـصار ، ويعـرف من أين يستقي المعلومة ، وأي المراجع والمصادر أوفى ، وأيها أغنى، وأيها أصدق، وأي هذا أحب للقارئ ، وأنفع للمفيد ، وهو يقول في منهجه: "وما أوردت إلا ما غلـب علـى ظني أن النفوس تميل إليه ، أو أن الخواطر تشمل عليه ، ولو علمت أن فيه خطأ لقبضت بناني وغضضت طرفي" . ومنهجه يعتمد على تحري الحقيقة والسعي إلى تحقيق حاجـة الناس جهده[2].

3-1 مصادر "صبح الأعشى" ومنهج القلقشندي "821هـ"

اعتمد القلقشندي في جمع مادة موسوعته وتأليفها على نوعين أساسين من المصادر هما: محفوظات ديوان الإنشاء من الوثائق والمراسلات السلطانية ، والثاني: أمهات الكتب والمصنفات في مختلف ميادين العلم والأدب التي طرق أبوابها في كتابه[3]. وقد اجتمعـت للقلقشندي مادة غزيرة من الكتب والمراسلات السلطانية وغيرها مـن مختلـف أصـناف المكاتبات التي تكدست في ديوان الإنشاء خلال العصور المتعاقبة[4].

يُعد كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا من الكتب الجليلة القدر، العظيمة النفـع الكبيرة الفائدة ، لم ينسج على منواله في عالم التأليف في فنون الأدب والكتابة ، فهو أنفس كتاب أُلّف في اللغة العربية وتاريخ آدابها . وقد جمع فيها المؤلـف كـل أنـواع العلـم والمعرفة ؛ لذا فهو كتاب جامع .

وهو كتاب بيّن فيه القلقشندي حالة اللغة العربية وكيف كانت في العصور الأولى ، وكيف أصبحت لغة القرآن الكريم ، وبيّن فيه الكتابة العربية في البلاد والممالك الإسلامية

(1) النويري،نهاية الأرب ،ج7، ص 12.

(2) المصدر نفسه ،ص12.

(3) القلقشندي أبو العباس احمد بن علي القلقشندي (821هـ – 1418م) ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ومذيلة بتصويبات وفهارس تفصيلية مع دراسة وافية ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ص 12 ،

(4) المصدر نفسه، ص 12

وما بلغته من درجات الرفعة والارتقاء ، وهو كتاب دوّن فيه مؤلفه عدة كتب أدبية نفيسة بتمامها ، وجمع فيه كثيراً مما تفرّق في غيره من المؤلفات . وقد رتبه على مقدمة وعشرمقالات وخاتمة ، بناها بالإجمال على التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء ، وأصل وضعه في الإسلام ، وتفرقه بعد ذلك في الممالك ، وبيان كتاب الإنشاء وتفضيلها على سائر أنواع الكتابة . ومعرفة ما يحتاجه كاتب الإنشاء في الأمور العلمية والعملية ، ومعرفة المسالك والممالك ومعرفة المكاتبات العامة وأصولها ومقاصدها ومعرفة الوصايا الدينية ومعرفة عقود الأمان والصلح ... وقد ذكر فيه كثيراً من الآَيات القرآنية والأحاديث النبوية الكريمة ، وأتى فيه على كثير من أسماء الكتب والفنون ، وكثير من أسماء مشاهير المؤلفين والعلماء والأدباء والكتّاب والشعراء . وضمّنه شيئاً كثيراً من الرسائل البليغة لمشاهير الكتاب وأهل الأدب في الشرق والغرب والقديم والحديث . فصار كتاب صبح الأعشى ، كتاب تاريخ وسير ، ولغة وأدب ، وفقه وتفسير، وشرح للأمثال والحكم العربية، وبسط النظام والحكومات عامة(1) ، وقد جاء كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا في أربعة عشر مجلداً .

وبعد أن قرأ القلقشندي كتاب "التعريف بالمصطلح الشريف" ، لابن فضل الله العمري ، ظهرت لديه فكرة وضع كتاب يكون مفصلاً أكثر من "التعريف" الذي جاء مختصرا في موضوعاته. فبدأ يعمل على تحقيق هذه الفكرة بجهد كبير ، وإصرار عميق، وتركيز كبير، فأخذ بجمع المادة الأولية للكتاب ، وبعد بذل الجهد ، أخرج لنا كتاب أسماه "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" . يقول في مقدمة كتابه صبح الأعشى"فشرعت في ذلك بعد أن استخرت الله تعالى،وراجعت أهل المشورة ،مستوعبا من المصطلح وما اشتمل عليه التعريف والتثقيف،موضحا لما أبهماه بتبيين الأمثلة مع قرب المأخذ وحسن التأليف.متبرعا بأمور زائدة على المصطلح الشريف لا يسع الكتاب جهلها.متنقلا من توجيه المقاصد،وتبيين الشواهد،بما يعرف به فرع كل قضية واصلها(2).

وكان لا بد من تركيز الضوء على مصادر الكتاب ، ومنهج المؤلف في كتابه ، ولا بد هنا من التنويه إلى أن الباحث سيسلط الضوء على مصادر الكتاب الخاصة

(1) القلقشندي، صبح الأعشى ،ج1، ص 13 – 18 .

(2) المصدر نفسه، ص 10

بموضوع دراسته، ولن يتطرق للحديث عن مصادر الكتاب جميعها ، لأن طبيعة الموضوع تقتضي ذلك.

فالدارس لكتاب "صبح الأعشى" يجد أن المؤلف قد استعان بمجموعة من المصادر، لا بد من ذكرها هنا مع بيان مدى الاستفادة التي حصل عليها القلقشندي من هذه المصادر التي كان يشير إليها القلقشندي في متن الكتاب ، ولكن حجم المادة الأندلسية المستفاد منها تتفاوت من كتاب إلى آخر حسب أهمية الموضوعات التي تطرق إليها المؤلف .

ففي موضوع وصف المدن الأندلسية، نجد القلقشندي قد استعان بعدة مصادر أثرت كتابه ، وهي "تقويم البلدان" للمؤيد صاحب حماة، ويرى الباحث بأنه المصدر الرئيسي الذي استعان به القلقشندي في حديثه عن المدن الأندلسية، فكان يعود إليه في حديثه عن كل مدينة أندلسية في أخذ المعلومة الأكيدة .ومن الأمثلة على ذلك قوله في سياق حديثه عن مدينة غرناطة ،قال في تقويم البلدان:"ومملكتها في الجنوب والشرق من مملكة قرطبة،وبينها وبين قرطبة نحو خمسة أيام".[1] والمصدر الثاني "مسالك الأبصار" للعمري، واعتمد القلقشندي على كلا المصدرين في أخذ المعلومة الصحيحة ،ومن الأمثلة على ذلك قوله في سياق حديثه عن مدينة غرناطة:"بديعة متسعة كثيرة المباني الضخمة والقصور ظريفة جدا،يجري بها الماء تحت بلاط كما يجري في المدينة،فلا يخلو منه مسجد ولا بيت".[2] والمصدر الثالث "التعريف بالمصطلح الشريف" الذي لم تكن أهميته بقدر أهمية المصدرين السابقين في اعتماد القلقشندي عليه في هذا الموضوع.ومن الأمثلة على ذلك قوله في سياق حديثه عن مدينة غرناطة:"ومقر سلطانها منها القصبة الحمراء قال:"ومعنا القصبة عندهم القلعة،وتسمى حمراء غرناطة".[3] والمصدر الرابع الذي استعان به القلقشندي في موضوعه هذا هو كتاب "المشترك" لياقوت الحموي .ومن الأمثلة على ذلك قوله في سياق حديثه عن المرية :"وهي مدينة بين مملكتي مالقة ومرسيه،موقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة".[4] ويرى الباحث بأن المصدرين الرئيسين عند القلقشندي

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى ،ج5،ص214

(2) المصدر نفسه،ص216

(3) المصدر نفسه ،ص206

(4) المصدر نفسه، ص 217

في حديثه عن المدن الأندلسية هما "تقويم البلدان ، ومسالك الأبـــصار" أمـــا "التعريـــف، والمشترك " فلم تكن الفائدة التي جناها القلقشندي منهما تعادل الفائدة التي حصل عليها من المصدرين الآخرين .

ويجد الناظر في موضوع "الأنهار الأندلسية" في صبح الأعشى ، أن القلقشندي قـــد اعتمد على مصدرين اثنين في الحصول على المعلومة أولهما: "تقويم البلدان" وقد أمد هذا المصدر القلقشندي بما أورده من معلومات عن الأنهار الأندلسية ، من حيـــث مخـــارج ومصاب ، وطول ، وعرض هذه الأنهار .ومن الأمثلة على ذلك قوله في سياق حديثه عن نهر إشبيلية:"ومخرجه من جبال شقورة حيث الطول خمس عشرة درجة،والعرض ثمـــان وثلاثون وثلثان،ويجري في ابتدائه من الشرق إلى الغرب".[(1)] والمصدر الآخر الذي اعتمد عليه القلقشندي "المغرب" لابن سعيد الذي استقى منه المعلومة عن الأنهار الأندلسية .ومن الأمثلة على ذلك قوله في سياق حديثه عن نهر اشبيلية:"وهو في قدر دجلة،وهو أعظم نهر في الأندلس، ويسميه أهل الأندلس النهر الأعظم". [(2)]

أما مصادر "صبح الأعشى" الأخرى ، التي استعان بها القلقشندي في حديثه عـــن النثر الأندلسي ، فكانت على نـــوعين ، النـــوع الأول : المخطوطـــات والثـــاني الكتـــب والمصنفات . يرى الباحث بأن القلقشندي فـــي هـــذا الموضـــوع كـــان تركيـــزه علـــى المخطوطات التي حصل عليها من ديوان الإنشاء أكثر من المصادر الأخـــرى ، ويـــرى الباحث بأن القلقشندي قد اعتمد على مصدر واحد غير المخطوطات ، وهو كتاب "ريحانة الكتّاب" لابن الخطيب؛ فقد أفاد منه في إيراد العديد من المكاتبات الأندلـــسية "الـــسلطانية، والإخوانية.ومن الأمثلة على ذلك قوله في سياق حديثه عن نثر ابن أبي الخطيب:"المقـــام الذي تحدثت بسعادته دولة أسلافه،واتفق به قولها من بعد أصلافه،وعاد العقد إلى انتظامه والشمل إلى ائتلافه".[(3)]

(1) القلقشندي، صبح الأعشى ،ج5، ص 235

(2) المصدر نفسه، ص 234

(3) المصدر نفسه ،ج7،ص45

4-1 منهج القلقشندي في "صبح الأعشى":

القارئ لكتاب "صبح الأعشى" قراءة مدققة فاحصة ، يجد أن مؤلفه "القلقشندي" قد اتبع منهاجاً علمياً واضحاً يقوم على وحدة الفكرة من ناحية؛ وعلى أسلوب التفريغ داخل إطار محدد مرسوم، من ناحية أخرى[1].

كما تظهر عنده صفة الأمانة العلمية بشكل واضح وصريح ، فهو ناقل أمين ، لا ينسب آراء غيره لنفسه، وإذا أراد أن يضيف شيئاً أو يدلي برأي خاص، فإنه يفعل ذلك مع التزام كامل باحترام آراء غيره ، خاصة الذين نقل عنهم، وهو إلى جانب ذلك ذو رأي سديد وفكرة صائبة دونما أدعا[2]. ومن الأمثلة على ذلك قوله في سياق حديثه عن مدينة غرناطة:"بديعة متسعة كثيرة المباني الضخمة والقصور ظريفة جدا،يجري بها الماء تحت بلاط كما يجري في المدينة،فلا يخلو منه مسجد ولا بيت".[3]

لقد استطاع القلقشندي أن يضع كتاباً ضخماً في جميع جوانب العلم والمعرفة ، و التزم فيه بمنهج واضح ودقيق .

5-1 مصادر مسالك الابصار،ومنهج العمري.ت749هـ.

لقد بدأ العمري العمل على تأليف موسوعته الضخمة التي تجمع بين طياتها كل أنواع العلم والمعرفة، يقول العمري عن تاليفه هذا الكتاب" وقطعت فيه عمر الايام والليالي،واثبت فيه بالأقلام أخبار العوالي،وشغلت به الحين بعد الحين،واشتغلت ولم أسمع قول اللاحين،وحرصت عليه حرص الضنين ،وخلصت اليه أن اجريت ورائي السنين. [4]

وهي الموسوعة الثالثة من بين أعظم الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي،بعد أن أطلع على أغلب الكتب الموضوعة في هذه المواضيع،فلم يجد فيها سوى الأخبار القديمة

(1) القلقشندي، صبح الأعشى ، ج7، ص 15

(2) المصدر نفسه، ص 16

(3) المصدر نفسه،ص216

(4) العمري ، شهاب الدين احمد بن يحيى بن فضل الله العمري ، ت (749هـ) ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق عبدالله بن يحيى السريحي ،ج1،ص32.

من احوال الأقاليم،والأمم البائدة،وبعض المصطلحات التي ذهبت بذهاب أهلها،ولم يثبت فيها عظيم الفائدة ولا كبير أمر. (1)

وبعد أن استخار الله،اراد اثبات نبذة دالة على المقصور في هذه الكتب من ذكر الارض وما فيها ومن فيها ،وكل مملكة وما هي عليه. (2)

اعتمد العمري في كتابه مسالك الأبصار على نوعين من المصادر أولهما: ما شاهده وعاينه،وفيما لم يراه بالنقل ممن يعرف احوال المملكة المنقول عنه اخبارها ،مما راه بعينه أو سمعه من الثقات باذنه. (3) والثاني:أمهات الكتب المصنفة و الموثوق بها فيما لا بد منه: كتقسيم الاقاليم،وما فيها من أقوال القدماء،واختلاف اراء الحكماء،وذكر مشاهير الأعلام... ليتم به نقصه ،ويتمم به بهجة النظر،ورونق الصفحات. (4)

وقد شرع العمري في تأليف هذا العمل في عهد السلطان ولي أمير المؤمنين متعهد بيت الله الحرام وزيارة سيد المرسلين،أبي المعالي محمد بن السلطان الكبير الشهيد ابي المظفر قلاوون،سيد ملوك الارض على الاجماع،المخصوص بملك أشرف البقاع. (5)

لقد استعان العمري بالمكتبة الأندلسية عند حديثه عن الأدب الأندلسي؛لذا لا بد من الحديث عن أهم المصادر الأندلسية التي أستعان بها العمري،وبيان مدى الفائدة الحاصلة . ومن أهم مصادر العمري في كتابه مسالك الابصار كتاب قلائد العقيان،للفتح بن خاقان،والذي يعد من المصادر الأساسية التي اعتمد عليه العمري في ترجمة بعض الشعراء الذين أخذ عنهم،وإراد بعض الاشعار الأندلسية الواردة في موسوعته، ومن الأمثلة على ذلك ما نقله من ترجمة الفتح بن خاقان،وعبد الجليل بن وهبون، وغيرهم من الشعراء،بالإضافة إلى بعض الأشعار الأندلسية الخاصة بوصف الطبيعة"وصف الرحلات النهرية" ومن هذه الأشعار قول عبد الجليل بن وهبون: (6)

كأنّما الشمعتان إذ سمتا   خدا غلام محسن الفيد

---

(1) العمري ، مسالك الأبصار ،ج1،ص28.

(2) المصدر نفسه،ص28 .

(3) المصدر نفسه،ص29.

(4) المصدر نفسه،ص29.

(5) المصدر نفسه،ص32-33.

(6) المصدر نفسه،ص108-109.

وفي حشا النهر من شعاعهما طريق نار الهوى إلى كبدي

ومن مصادر العمري أيضا كتاب "البيان المغرب"للمراكشي،فقد استعان به العمـــري في حديثه أيضا عن بعض الأمراء الامويين الوارد ذكرهم في كتابه،ففي حديثه عن الأمير عبدالرحمن الاوسط :" بويع بقرطبة سنة 206هـــ"،بعد وفاة أبيه،وهو أول من جرى على سنن الخلفا ء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة،فشيد القصور ،وجلب الماء العـــذب الـــى قرطبه... ،وكان اديبا ينظم الشعر،مطلع على علوم الشريعة...". [1]

ومن مصادر العمري أيضا كتاب "الحلة السيراء" لابن الآبار،فكانت الفائدة الحاصـــلة منه في الحديث عن ترجمة بعض الشعراء والأمراء،الوارد ذكرهم في الكتـــاب ،والـــذين تحدث عنهم العمري،مثل الأمراء الامويين ،وأمراء الأندلس الذين كان لهم دور بارز فـــي حديثه عن عبدالرحمن الداخل،ومن الأمثلة على ذلك ترجمته للصميل بن حاتم،قـــال عنـــه :" بأنه شيخ المضرية في الأندلس،وأحد الامراء الدهاة الشجعان الاجواد،قدم الاندلس فـــي امداد الشام ايام بني أمية،فرأس بها..." [2]

ومن مصادر العمري أيضا ،كتاب"المغرب في حلى المغرب"لابن سعيد،فكانت الفائـــدة الحاصلة منه في نقله لترجمة الشعراء الأندلسيين الـــوارد ذكـــرهم فـــي كتابـــه مـــسالك الابصار،وهو من المصادر الرئيسة عند العمري،ومن الامثلة على ذلك مـــا أورده عـــن ترجمة عبدالرحمن الاوسط،والفتح بن خاقان. [3]

ومن مصادر العمري أيضا،كتاب "اللمحة البدرية"لابن الخطيـــب،ولم تكـــن الفائـــدة الحاصلة منه بقدر المصادر الأندلسية الاخرى،فقد استعان به العمري في حديثه عن مملكة الاندلس:"المملكة الإسلامية بالاندلس حماها الله تعالى طول مسافتها عشرة أيام،وعرضـــها ثلاثة أيام،وسلطانها الآن اعني عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة هو يوسف بن اسماعيل بـــن فرج بن نصر،مستقره غرناطة". [4]

---

(1) العمري،مسالك الابصار ،ج1 ،ص466

(2) المصدر نفسه ،ص454

(3) المصدر نفسه ،ص466

(4) المصدر نفسه،ص227

ومن مصادر العمري أيضا كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لابـــن بـــسام ، فكانت الفائدة الحاصلة منه في حديثه عن ابن زيدون ، ومن الأمثلة على ذلك ما نقله مـــن الذخيرة :" كان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة ،وضرع أدبه ، وجاد شعره ، وعلا شـــأنه ثم انتقل عن قرطبة إلى المعتضد صاحب إشبيلية سنة إحدى وأربعين وأربعمائة فجعله من خواصه يجالسه في خلواته ، ويرتكن إلى إشاراته، وكان معه في صورة وزير". [1]

6-1 منهج العمري

لقد اتبع العمري في "مسالك الابصار" منهجا علميا واضحا،يقوم على الامانة العلميـــة في نقل المعلومة التي يستقيها من أعيان الثقات،ومن ذوي التدقيق فـــي النظر،والتحقيـــق للرواية،والاستكثار من السؤال عن كل مملكة،حتى يأمن تغفل الغفلاء،وتخيـــل الجهـــالات الضالة،وتحريف الافهام الفاسدة . [2] كما يعتمد منهجه على وعي وتبصر شـــديدين ،فلـــم يذكر عجيبة حتى يفحصها،ولا غريبة حتى يذكر ناقلهـــا،لتكون عهـــدتها عليـــه ،ويتبـــرأ منها[3].

كما اعتمد منهجه على ذكرموجزأو نبذة عن حياة بعض الامراء ممن تـــرجم لهـــم ،مستخدما اسلوب الإيجاز في حديثه ومن الأمثلة على ذلك حديثه عن الأمراء الأندلـــسيين ،كما كان يعتمد على تعريف موجز للشعراء الذين يأخذ عنهم في ذيل الصفحات. [4]

كما كان يصحح كل ما يكتبه حسب طاقته من غير اسهاب ولا تطويل،وفي هذا يقول :" ولا اسهرت في الظلمات عيني ولا تعبت في المحفورة يدي ،الا ما الممت منه المامـــت الطيف المنقر،ونغبت منه نغبة الطائر الحذر،لان غالب ما يقال،اســـماء لا يعـــرف لهـــا حقيقة،ومجاهل لا توصل اليها طريق".[5]

---

(1) العمري،مسالك الابصار ،ج1،ص261.
(2) المصدر نفسه،ج1،ص29
(3) المصدر نفسه،ص31
(4) المصدر نفسه،ص31.
(5) المصدر نفسه،ص30.

الفصل الثاني

الشعر الأندلسي في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي

2-1 وصف المدن الأندلسية :

عمد الشعراء الأندلسيون إلى وصف المدن الأندلسية، وتخليدها في الشعر ، فهي الوطن ، والأم، والحبيبة، ولهذا لا نكاد نجد شاعراً منهم إلا ورددها في شعره ، إما واصفاً ، أو مصوّرا لمعالمها وأثارها، وقصورها، ومنتزهاتها، وما حل بهذه المدن من خراب عند سقوطها بيد الأسبان، والتحسر على هذه المدن الجميلة التي تمثل معالم للفكر والثقافة والحضارة الإنسانية، وسندرس في هذا الجزء ثلاث عشرة مدينة أندلسية ورد ذكرها في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي، لما لها من أثر واضح، ومكانة رفيعة في نفوس الشعراء.

2-1-1 قرطبة[1]:-

"هي مدينة غربي نهر إشبيلية ، وموقعها في أواخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة" ، ودور قرطبة ثلاثون ألف ذراع، وهي أعظم مدن الأندلس، وعليها سور ضخم من الحجر، ولها سبعة أبواب، وبلغت عدة مساجدها "ألفا وستمائة مسجد، وحماماتها تسعمائة حمام، وهي مدينة خصبة[2]. ومن مضافات قرطبة مدينة الزهراء ، والقصير، وحصن المرور، وحصن مرادٍ، وكورة غافق وكورة استجة[3].

ومن معالم قرطبة المشهورة مسجد قرطبة الذي قال فيه عبدالله بن الشمر[4] :

---

(1) القرطبا: السيف،كأنه من قرطبة أي قطعة ، وهي مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها ، وكانت سريراً لملكها وقصبتها، وبها كانت ملوك بني أمية ومعدن الفضلاء ، ومنبع النبلاء من ذلك الصقع ، وبينها وبين البحر خمسة أيام . انظر الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي ، ت (626هـ/1228م) ، معجم البلدان ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، (1399هـ/1979م) ، ج 4، ص 324 .

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5 ، ص 226 – 227.

(3)المصدر نفسه، ص 227.

(4) العمري ، مسالك الأبصار ، ج 24 ، ص 467 .

بَنى مسجداً لَمْ يُبْنَ في الأرضِ مثلهُ وهل مثلُهُ في حوزةِ الأرضِ مسجدُ
لَهُ عَمَدٌ حُمْرٌ وخُضْرٌ كأنَّمـــــــا تلوحُ يواقيتٌ بها وزبرجَـــــــــــدُ

فهذا البناء العظيم الذي لم يبن على وجه الأرض مثله من أجل العبادة والعلم معاً ، ويصف الشاعر في البيت الثاني هذا المسجد الذي تتنوع اعمدته بين الأحمر والأخـــضر وكأنها وهي قائمة ياقوت وزبرجد .

ومن معالم قرطبة المشهورة " مدينة الزهراء"[1] ، هي مدينة بناها الناصر الأموي في غربي قرطبة"[2].

وقد وصف أحمد بن عبد ربه[3] قصور مدينة قرطبة والرصافة بقوله[4] :

أَلِمَّا على قصرِ الخليفةِ وانْظُـــــرا إلى منيةٍ زهراء شيدتْ لأزهـــرا
مزوَّقةً يستودعُ النجمٌ ستَرَهَـــــــا فتحسبهُ يصغيُ إليها لتُخْــبِـــــرا
بناءٌ أتى ما الليلٌ حلَّ قناعَــــــــهُ بدا الصبحُ مِنْ أعرافهِ الشُّمِّ مُسْفِرا
ترى الُمْنَيةَ البيضاءَ في كلِّ شارقٍ تلبسُ وجهَ الشمسِ ثوباً مُعْصفِراً
تذكِّرُ بالفردوسِ مَنْ كانَ لاهيــاً وتلهي عَنْ الفردوسِ مَنْ قَدْ تذكَّرا
كأنَّ السماءَ استوهبتْ لونَ أرضِهَا وأنجُمُها مِنْ نورِها حينَ نــــوَّرا

يصف الشاعر أحمد بن عبدربه أحد القصور في مدينة قرطبة التي تدل على عظمة هذه المدينة الأندلسية،التي تعد من أجمل المدن الأندلــسية التـــي خلـــدها الـــشعر علـــى

(1) الزهراء من عجائب أبنية الدنيا ، أنشأها أبو المطرف عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله الملقب بالناصر أحد ملوك بني أمية بالأندلس ، بالقرب من قرطبة في سنة (325هـ) ، ويبلغ طول الزهراء من الشرق إلى الغرب (ألفـــان وسبعمائة ذراع) ، وعرضها (ألف وخمسمائة ذراع) ، ويزيد عدد أبوابها على (خمسة عشر ألف باب) ، وعـــدد السواري فيها (أربعة آلاف وثلاثمائة سارية) ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين احمد بـــن محمـــد بـــن أبـــي بكر(608 ، 681هـ) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، حققه إحسان عباس ، دار صادر بيروت (1970م) ، ج 5 ، ص 26 .

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 227.

(3) أبو عمر احمد بن محمد بن عبدربه صاحب كتاب العقد الفريد،توفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة لاثنتي عـــشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى،ومولده سنة ست وأربعين ومئتين لعشر خلون من رمضان،انظر ابن دحية، المطرب في أشعار أهل المغـــرب، حققـــه مـــصطفى عـــوض، الطبعـــة الأولـــى، مطبعـــة مـــصر – الخرطـــوم ســـنة (1954م)،ص151.

(4) العمري ، مسالك الأبصار ، ج 24 ، ص 470 .

مر العصور والأزمان،من معالم هذه المدينة القصور الإسلامية التي يصف الشاعر واحدا منها بصفات عديدة تدل على روعة وجمال الفن الإسلامي،فيطلب الشاعر ممن يزور هذه المدينة أن ينظر إلى قصر الخليفة والى منية الزهراء ،فهي مزوقة من شدة جمالها تحسب أنجمها في السماء يصغي وينظر إليها،ثم يصف الشاعر البناء إذا ما حل الليل بدا هذا البناء من شدة لمعانه كأن الصبح قد طلع،ثم يشبه المنية البيضاء وكأنها ترتدي ثوبا معصفرا عندما تنعكس أشعة الشمس عليها ،ثم يشبهها الشاعر بالفردوس على الأرض ،وكأن الشمس قد أخذت لونها ولمعان أنجمها منها،فهذا تصوير جميل لهذه القصور التي شيدت في مدينة قرطبة والتي تدل على مدى جمال هذه المدينة الأندلسية التي وصفها الشعر الأندلسي.

ومن معالم مدينة قرطبة التي خلدها الشعر (ناعورة قرطبة)التي كانت محكمة الصنعة مضروب بها المثل ، وفي ميزة هذه الناعورة قال أبو نعمان عبيدالله بن يحيى:

تبَوَّأ بينَ الحزنِ والسهلِ منزلاً ... بأفيحَ فضفاض البساطِ على النهرِ
تصعَّدُ في ساحتهِ الخضر ماؤه ... تصعّدٌ أنفاس المتيَّم بالذكرِ
ترقَّى بِهَا في الجوِّ ثم تعيدهُ ... إلى مستقرِ الأرضِ ناعورةٌ تجري
ترددُ تغريدَ الطيورِ وتارةً ... ترجعُ ترجيعُ الأهازيجَ في الزمرِ(1)

يصف الشاعر هذه الناعورة بأنها قد أقيمت في مكان سهل فضفاض على أطراف النهر التي تحيط به المياه العذبة والساحات الخضراء الممتدة على مدى النظر ، حيث تـ صعد الناعورة بالماء في الجو ثم تعيده إلى مستقر الأرض ،كما تصعد أنفاس العاشق المتيم عندما يرى محبوبته ثم يعود إلى ما كان عليه، ويشبه الشاعر صوت الناعورة حينما تصعد بالماء بصوت الطيور، وحين تعيده إلى الأرض بصوت الأهازيج في الزمر. وهذه صورة جميلة رسمها الشاعر لهذه الناعورة التي تضيف جمالا إلى جمال مدينة قرطبة .

(1) العمري ، مسالك الأبصار ، ج 24 ، ص 477 – 478 .

2-1-2 غرناطة[1] :-

ويقال : أغرناطة بهمزة مفتوحة في أولها، وهي مدينة في جنوب الأندلس، وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة[2]، وهي دمشق بلاد الأندلس ومسرح الأبصار ومطمح الأنفس وخصها الله تعالى من المرج الطويل العريض، وهي مدينة كبيرة مستديرة رائعة المنظر ، كثيرة الأشجار والأمطار والأنهار والبساتين والفواكه[3] ، وهذه الصفات العظيمة تجتمع فيها كل الخيرات العظام التي لم تتوفر لأي مدينة غيرها ، ومن صفاتها الأخرى أنها قليلة مهب الرياح ، لا تجري بها الريح إلا نادراً لاكتناف الجبال إياها[4] .

وينحدر نهر شنيل من جبل (شلير) وهو طود شامخ لا ينفك عنه الثلج شتاء ولا صيفا، فهو لذلك شديد البرد ويؤثر برده بغرناطة في الشتاء لقربه منها ؛ وفي ذلك يقول ابن سارة[5] ت (517هـ) الشاعر[6] :-

أَحلَّ لنا تَركُ الصلاةِ بأرضِكمْ ... وشُرب الحُمَّيا وهو شيءٌ مُحَرَّمُ
فِـراراً إلـى نارِ الجحيمِ لأنَّها ... أرقُّ علينَا مِنْ شُـلَيْر وأَرْحَـمُ
لئنْ كانَ ربي مُدْخِلني في جهنَّم ... ففي مثْلِ هذا اليومِ طابَتْ جَهَنَّمُ

يحل الشاعر ترك الصلاة في هذه الأرض الباردة جدا ،التي لايستطيع فيها المصلي أن يتوضأ من شدة برودة الماء والجو فيها،ويحل شرب الخمر فيها التي تعطي الجسم نوع من الحرارة.ثم يرسم في البيت الثاني صورة لشدة برودة هذه الأرض ،حيث يفر

---

(1) تسمية غرناطة مشتقة من مصدر روماني وهو "GRANATE " ويقصد به الرمان وسميت بذلك لكونها ذات طبيعة جمالية عالية، لا تقدر بوصف انظر الذنون عبد الحكيم ، آفاق غرناطة، بحث في التاريخ السياسي والحضاري العربي ملحق موجز تاريخ الأندلس العربي ، الطبعة الأولى (1408هـ - 1988م)، دار المعرفة، ص 32.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 213 .

(3) العمري ، مسالك الأبصار ، ج 24 ، ص 227 .

(4) المصدر نفسه ، ص 227 .

(5) هو أبو محمد عبدالله بن سارة من ولد أحمد بن المدبر ولقبه الشنتريني نسبة لبلدة شنترين التي تقع إلى الغرب من باجة بالقرب من مصب نهر باجة في البحر،عاش في عصر المرابطيين وتوفي سنة 517هـ،انظر الوائلي،موسوعة شعراء الأندلس ،ص153 .

(6) القلقشندي،صبح الأعشى،ج5،ص215.

الشاعر إلى نار جهنم فهي ارحم عليه من شدة برودة شلير،ثم يرسم صورة ثانية لشدة برودة الجو في هذه الأرض بقوله إذا كان ربي مدخلني النار يتمنى أن يكون يوم دخوله في مثل هذا اليوم.

وأما نهر (جدرة) فينحدر من جبل بناحية (وادي آش) شرقي شلير فيمر بين مزارع وكروم إلى أن ينتهي إلى غرناطة فيشق المدينة نصفين[(1)]،ويوجد بغرناطة عيون ماء كثيرة ، وأشجار مختلف ألوانها وخصوصاً التفاح والقراصيا البعلبكية[(2)] ،وبها الجوز والقسطل، والتين، والأعشاب ... ، وبجبل شلير عقاقير الهند وعشب يستعمل في الأدوية، لا توجد في الهند ولا في غيره[(3)]. ومن مضافات غرناطة (واديـاش)، ويقال (وادآش) بإبدال الياء همزة وهي بلدة حسنة، بديعة، منيعة جدا، كثيرة الفواكه والمزارع، والمياه تشق أمام أبوابها كما في غرناطة، وهي قريبة من جبل شلير، ولذلك فهي شديدة البرودة[(4)] .

ومنها الجزيرة الخضراء، ورندة، وبسطة، واندراش، والمرية، وشلوبين، ومالقة، ومرسية، وأشبونة، وجبل الفتح ؛ وهو الذي نزله طارق بن زياد عند فتح الأندلس في أول الإسلام[(5)] .

ومن معالم مدينة غرناطة الشهيرة قصر الحمراء الذي سماه القلقشندي " القصبة الحمراء " وتعني القصبة عندهم القلعة، وتسمى حمراء غرناطة ؛ وهي بديعة متسعة كثيرة المباني الضخمة، والقصور، ويجري فيها الماء تحت بلاط كما يجري في المدينة ...[(6)]. وأما جامع غرناطة فهو محكم البناء ، بديع جداً لا يلاصقه بناء ، وتحف به دكاكين للشهود والعطارين ، وقد قام سقفه على أعمدة ظراف ، وبداخله الماء وبه أسانيد منصوبة لإقراء العلوم ، وهو معمور بالخير كل حين[(7)] . والواضح من هذا الوصف لجامع

---

(1) القلقشندي،صبح الأعشى،ج5، ص 215.
(2) العمري ، مسالك الأبصار ، ج 4 ، ص 228 .
(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5 ، ص 206.
(4) المصدر نفسه، ص 221.
(5) المصدر نفسه ، ص 216 – 221.
(6) المصدر نفسه، ص 216 ، العمري ، مسالك الأبصار ، ج 4 ، ص 229 .
(7) العمري ، مسالك الأبصار ، ج 4 ، ص 230 .

غرناطة انه أقيم في وسط المدينة ، وقد ظهرت فيه الفنون الإسلامية الأندلسية التي تـدل على عظمة الزخرفة الأندلسية ، وقد تفنن في صنعه ، و كـان يمـر المـاء بداخلـه ، وخصصت فيه أسانيد لتعليم جميع أنواع العلوم لطلبة العلم .

2-1-3 إشبيلية[1]

وسميت إشبيلية بالمدينة المنبسطة، وهي مدينة في غرب الأندلس وجنوبيـه علـى القرب من البحر المحيط، وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة[2] .ولها عدة كور في جنوبي نهرها وشماله، فاما كورها في جنوب نهرها وهي الأكثـر: كـورة أركـش، وكورة شريش، وكورة طريف، وأما التي في شمالي النهر فكورتان: إحداهما كورة أوتة ، ومن الممالك المضافة لإشبيلية أيضا مملكة شلب، وهي كورة ومدينة في غربي إشـبيلية وشمالها وبشلب قصر يعرف "بقصر الشراجيب" وهو الذي يقول فيه بعض الشعراء[3] :-

وَسلِّم على " قَصْرِ الشِّراجِيبِ " عن فتىً   لهُ أبداً شوقٌ إلى ذلِكَ القَصْرِ.

وكانت قصور بني عباد ودورهم في إشبيلية تبهر الناظرين، وتـسر المـشاهدين، ولهذا وصفها الشعراء الأندلسيين، وتغنوا بجمالها وزخارفها، ورسوماتها.

وقد وصف ابن حمديس أحد قصور المعتمد بإشبيلية فيصفه بالجمال الذي لا يبلـى فيه العز، بل هو متجدد دائما يفوق جمال إيوان كسرى، وفي هذا القصر قدسية يخشع لها الجميع، فيخلع من يطؤه نعليه، وهذا القصر مفتوح لجميع الناس كما أن أبـواب القـصر تستقبل الزوار بالترحيب، كما قام ببناء هذا القصر بناة مهرة بكل دقة وإتقان، ومهـاراتهم تفوق مهارة البشر، لذا خرج هذا القصر بأروع ما يكون، كما أن هذا القصر صحي حيث

---

(1) مدينة كبيرة عامرة ذات أسوار حصينة ، وأسواق كثيرة ،تشتهر إشبيلية بتجارة الزيت يتجر به منها إلى أقصى المشارق والمغارب براً وبحراً ، وتشتهر أيضاً بكثرة شجر الزيتون الذي يغطي المنطقة كلها من أول إشبيلية إلى أخر مدينة لبلة ، انظر الإدريسي ، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ص 178.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 225.

(3) المصدر نفسه، ص 225 – 226.

تدخله الشمس منذ الصباح، ويشبه ابن حمديس جمال القصر في الليل بجمال الكحلة فـــي العيون؛ يقول:–

ويـــا حَبَّـــذَا دارُ قضى اللهُ أنَّها ... يُجدَّد فيهَا كُـــــلُّ عزٍّ ولا يَبْلــــى!
مُقَدّسَةٌ لـــو أنَّ موسى كليمَـــهُ ... مَشَىَ قدَماً في أرضِها خَلَعَ النعلا
وما هيَ إلا خِطَّةُ المِلَك الّــتي ... يُحطُّ إلَيْها كُــلُّ ذي أمــلٍ رَحْــلا
إذا فُتِحَتْ أبْوابُها خِلْــتَ أنَّهَـــا ... تقُــولُ بتَرْحيبٍ لداخلِهـــا : أهْلاَ
وقّدْ نَقَلتْ صُنَّاعُها منْ صِفَاتِـــه ... إليهـــا أفَانينـــاً فأحَسنَــتِ النَّقْـــلا
فمِنْ صَدْرِه رُحْباً ومِنْ نُورِه سَناً ... ومِنْ صِيتِه فَرْعاً، ومِنْ حِلْمه أصْلا!
فأعَلتْ بهِ في رُتْبَةِ المُلْك نادياً ... وقَلَّ لهُ فَــوْقَ السِّماكَيْنِ أن يُعْلــى
نَسيتُ بِهِ إيـــوانَ كِسْرى لأنَّني ... أراهُ له مَوْلىً منْ الحَسنِ لا مِثْلا
كأنَّ سليمانَ بن داود لم يُتبـــع ... مخافتهُ للجنِّ فـــي شَـــيْدهِ مَهْـــلا
كـــأنَّ عيونَ السّحرِ نافذةٌ لـــهُ ... على كلِّ بانٍ غايةً منهُ أو فضـــلا
فجاءَ مكانَ القولِ نبعثُ وصفَهُ ... رقيقاً، وأذنُ الدهرِ تسمعهُ جُذلــى
تجوزُ لهُ الأمواهُ بركةَ جدولٍ ... تخالُ الصِّبا منهُ مشطّبَـــةً نُصـــلا
إذا اتّخَذَتْها الشّمسُ مرآةَ وجْهها ... أحاطتْ عَليهَا منْ مداويها صَقْـــلا
ترى الشّمسَ فيهِ لقيةً تستمدَّها ... ألِفٌ أقامتْ منْ تصاويرها شـــكلا[1]

وبإشبيلية مكان يدعى (بدربد) وهو مرج اخضر كأنه زمرد ، ونهر يتكسر ماؤه كأنه عسل ممزوج لشارب ، فإبتنى به أبنية رفيعة إلا أنها خيام ؛ وفيها يقول الوزير تمام بن احمد[2] :

لعمري لمَّا يومٌ مِنْ الدهرِ كُلَّـــــــهُ ... بأنعمِ مِنْ يومٍ حللنا بدَرْبْدِ
لدنْ روضةٍ خضراءَ ما إن تخالها ... لعمرك إلا معدناً للزمـــردِ

(1) النويري ، نهاية الأرب ، ج 1 ، ص 408 ، انظر ابن حمد يس ، الديوان " 447 – 527 " صـــححه وقـــدم لـــه إحسان عباس، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت (1379هـــ – 1960م)، ص 378 – 379..

(2) العمري ، مسالك الأبصار ، ج 4 ، ص 471 .

يصف الشاعر هذا المرج أو المكان الجميل (بدربد) بالروضة الخضراء ذات المياه العذبة ، فكل من يراها يحسبها الزمرد، وان انعم يوم يمر على الشاعر هو اليـــوم الـــذي يحل فيه في (بدربد) حيث صفاء الجو والمناظر الخضراء الجميلة التي تروح عن الـــنفس فتجلب السعادة والفرح .

4-1-2 بلنسية[1]:-

وموقعها في أواخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة، وهي في أحسن مكان، وقـــد حفت بالأنهار والجنات، فلا ترى إلا مياها تتفرع، ولا تسمع إلا أطيـــاراً تـــسجع، وهـــي بحيرة حسنة على القرب من بحر الزقاق[2].

ومن مضافات بلنسية مدينة شاطبة، وهي مدينة عظيمة، ولها معقـــل فـــي غايـــة الإقناع، وعدة متنزهات، منها :- " البطحاء ، والغدير، والعين الكبيرة ، ومنها أيضا دانية، وهي مدينة غربي بلنسية على البحر عظيمة القدر كثيرة الخيرات"[3].

وأنشد ابن حريق[4] :

بلنسيةُ بيني عَنْ القلبِ سَلِوةً   فإنكِ زهرٌ لا أَحنُّ لزَهـــــــــــرِكِ
وكيفَ يحنُّ المرءُ داراً تَقَسّمتْ   على ضارَبيّ جوُع وفتنةِ مّشـــــرِكِ[5]

---

(1) بلنسية : كورة ومدينة مشهورة بالأندلس ، متصلة بحوزة كورة تدمير ، وهي شرقي تدمير وشرقي قرطبة ، وهي برية بحرية ذات أشجار وانهار ، وتعرف بمدينة التراب ، وتتصل بها مدن تعد في جملتها ، والغالب على شجرها القراسيا ، ولا يخلو منه سهلٌ ولا جبل ، وينبت بكورها الزعفران ، وبينها وبين تدمير أربعة أيام ، ومنهـــا إلـــى طرطوشة أيضاً أربعة أيام ، وكان الروم قد ملكوها سنة (487هــ) ، واستردها الملثمون سنة (495هــ) ، وأهلها خير أهل الأندلس يسمّون عرب الأندلس ، وبينها وبين البحر فرسخ ،الحموي ، معجم البلدان ، ج1 ، ص 490 .

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 231.

(3) المصدر نفسه، ص 231 – 232.

(4) هو أبو الحسن علي بن حريق ،شاعر بلنسية الفحل المستبحر في الآداب واللغات ،كان عالماً بفنون الآداب حافظاً لأيام العرب وأشعارهم،شاعراً مفلقاً ذا بديهة،اعترف له بالسبق بلغاء وقته،توفي سنة 622هــ،انظر إبن الآبـــار ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي البلنسي المتوفى ســـنة 658 هجري،التكملـــة، عنـــي بنـــشره وصححه ، ووافق على طبعه عزت العطار الحسني ، مكتبة الثقافة الإسلامية ج2،ص679،ابـــن ســـعيد،المغرب ،ج2،ص318 .

(5) الحموي،معجم البلدان،ج1،ص491.

فالشاعر يشبّه بلنسية بالزهر الجميل الذي يحن إليه كلما غادرها ، على الرغم من تقسيمها ووقوعها تحت الاحتلال النصراني،وقد عانت من الويلات والمصائب وهي تحت الجكم النصراني ،فتحولت من مدينة جميلة إلى مدينة كالزهرة التي تنثر عطرها إلى مدينة قبيحة. ومن عمل بلنسية قرية بطرنة، وهي التي كانت فيها الوقعة المشهورة للنصارى سنة(456هـ) على المسلمين، وفيها يقول أبو إسحاق الطرسوني[1] :-

لبِسَوُا الحديدَ إلى الوَغىَ ولبِسَتْمُ حُلَلَ الحديدِ عَلَيكمُ ألْوَانــا
ما كانَ أقْبَحُهمْ وأحْسَـنكمْ بِهَــا لو لَمْ يكُنْ ببطرُانْةٍ ما كانَا[2]

5-1-2 طليطلة[3] :-

موقعها في أواخر الإقليم الخامس وهي مدينة كانت قاعدة الأندلس في القديم، وبهـا كان كرسي الملك (لذريق) آخر ملوك القوط، الذي انتزعها المسلمون منه[4] .

وهي من أمنع البلاد و أحصنها، مبنية على جبل عالٍ، والأشجار محدقة بها من كل جهة، ويصير بها الجلنار بقدر الرمانة[5]. ولها نهر يمر بأكثرها ينحدر من جبل الشارة من عند حصن يقال له (باجة) وبه يعرف نهر طليطلة[6] .

---

(1) هو أبو إسحاق ابراهيم بن معلى من مدينة طرسونة ،شاعر ممتد نفسه شديد المرس قدير على التطويل اشتهر ذكره بمدح ملك الثغر المقتدر بن هود،وجال على بلاد الاندلس،انظر إبن سعيد،المغرب،ج2،ص457.

(2) ابن المماتي، اسعد بن مهذّب ابن أبي مليح ، توفي سنة (606هـ) ، لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة ، وهو تلخيص لكتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لعلي بن بسام، تحقيق وتقديم نسيم مجلّى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2001م ، ص 338.

(3) هي مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس يتصل عملها بعمل وادي الحجارة من أعمال الأندلس، وهي غربي ثغر الروم وبين الجوف والشرق من قرطبة ، وكانت قاعدة ملوك القرطبيين، وموضع قرارهم ، وهي على شاطئ نهر تاجة وعليه القنطرة ، وقد ذكر قوم أنها مدينة أصحاب أهل الكهف ، ويقرب منها موضع يقال له جنان الورد فيه أجساد أصحاب الكهف ، وكانت طليطلة تسمى مدينة الأملاك ملكها أثنان وسبعون لساناً فيما قيل دخلها عيسى بن مريم ، وذو القرنين، والخضر عليهم السلام، الحموي ، معجم البلدان ، ج 3 ، ص 545

(4) القلقشندي،صبح الاعشى،ج5،ص227-228.

(5) المصدر نفسه، 228.

(6) المصدر نفسه ، ص 228.

ومن مضافات مدينة طليطلة، (مدينة وليد) وهي من أحسن المدن، تقع في الغرب من طليطلة، ومنها (مدينة الفرج) وتقع شرق طليطلة، ومنها (مدينة سالم) وهـي بالجهـة المشهورة بالثغر من شرقي الأندلس، وهي مدينة جليلة، يوجد بها قبر " المنصور بن أبى عامر "[1] .

6-1-2 بطليوس [2]:

وهي مدينة من غرب الأندلس موقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة[3]، وهي حديثة الاتخاذ بناها عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي أذن الأمير عبد الله له فـي ذلك[4] ، وهي مدينة عظيمة كانت بيد المتوكل بن عمر الأفطس، وبنى بها المباني العظيمة وفيها يقول أبو الحسين يحيى بن نجاح القرطبي الملكي مولى جعفر الأموي يعرف بـابن الفلاس المتوفى بمصر سنة422هـ:-

بطليوسُ لا أنساكِ مَا اتّصلَ البُعدُ فللّهِ غَوْرٌ في جنابكِ أو نَجْدُ
وللّـهِ دوحـاتٌ تحفُّـكِ بينهـا تَفجَّرَ واديَها كما شَقَّق البَردُ

فالشاعر في هذه الأبيات لا يستطيع أن ينسى هذه المدينة الجليلة الجميلة، فقد جعل الله فيها من الدوحات الجميلات التي تحيط بطليوس من كل جهة، ومن ثم شـبه واديهـا والمياه فيه بالبدر من شدة جماله.

وعندما بناها الجليقي السالف ذكره بإذن الأمير عبد الله له في ذلك، فأنفذ له جملـة من البناة، وقطعة من المال، فشرع في بناء الجامع بـاللبن، وبنـى صـومعته الخاصـة بالحجر، وبنى مسجدا خاصا بداخل الحصن، وكان سور بطليوس مبنيا بالتراب[5] .

---

(1) القلقشندي،صبح الاعشى،ج5، ص 228.

(2) وهي بسط من الأرض،ولها ربض كبير اكبر من المدينة في شرقيها وهي على ضـفة نهرهـا الكبيـر المـسمى بالغور،أنظر الإدريسي،المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فـي اختـراق الآفاق،ص188.

(3) القلقشندي،صبح الاعشى،ج5، ص 223،

(4) الحميري، ابو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم ، الروض المعطار، ص 46.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 224.

ومن مضافات بطليوس، (ماردة) وهي مدينة على جنوبي نهر بطليوس، وموقعها في أول الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة ومنها (يابرة)[1].

2-1-7 طرطوشة[2] :

وهي مدينة في شرق الأندلس و موقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة، وهي شرق بلنسية في الجهة الشرقية من النهر الكبير الذي يمر على سرقسطة ويصب في بحر الزقاق[3]. وبجبالها خشب الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ[4]، وهو خشب أحمر صاف القشرة، لا يفعل فيه السوس ما يفعله في غيره[5] . وإلى طرطوشة هذه ينسب " الطرطوشي " صاحب " سراج الملوك ".[6]

2-1-8 جيان[7] :

موقعها في أول الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة، وهي من أعظم مدن الأندلس وأكثرها خصبا، كانت بيد بني الأحمر أصحاب غرناطة، فأخذها الفرنج منهم بالسيف بعد حصار طويل[8]،وهي كثير ة العيون، طيبة الأرض، كثيرة الثمار، وبها الحرير كثير[9] .

وقال ابن أبي ركب بجيان[10] بعد خروجه منها :

---

(1) (1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 224 .

(2) وهي مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية وهي شرقي بلنسية وقرطبة قريبة من البحر ، مبنية على نهر (إبره) ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تعد. الحموي ، معجم البلدان ، ج 4 ، ص 30 .

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 233.

(4) الإدريسي ، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ص 190.

(5) المصدر نفسه ، ص 190.

(6) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 233 .

(7) وهي مدينة لها كورة واسعة بالأندلس تتصل بكورة إلبيرة مائلة عن إلبيرة إلى ناحية الجوف في شرقي قرطبة بينها وبين قرطبة سبعة عشر فرسخاً ، وهي كورة كبيرة تجمع قرى كثيرة ، وكورتها متصلة بكورة تدمير ، وكورة طليطلة انظر الحموي ، معجم البلدان، ج2، ص199.

(8) القلقشندي، صبح لأعشى، ج5، ص 229 .

(9) المصدر نفسه ، ج5، ص 229.

(10) هو أبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود بن عبد الله بن مسعود الخشني ،من أهل جيان،يكنى:أبا ذر ويعرف بابن أبى ركب، انظر ، ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج2 ،ص 700

أَجيّانُ أنتِ الماءُ قَدْ حيلَ دونَهُ		وإني لظمآن إليكِ وصادِي
ذكرتُكِ أذْهَبَّتْ شمال وإذْ بَدَا		لعينيَ مِنْ تَلك المعالمِ بادِي
مَتَى مَا أُرِدْ سيْراً إليكِ تَردني		مخافةَ أسيادٍ هناكَ عــوادِي[1]

يصف ابن أبى ركب جيان بأنها الماء الذي يروي العطشان وهو الظمآن إليها ولكن لا يستطيع المكوث أو العودة إليها ؛ فكلما أراد أن يسير إليها رجع وأقلع عنها مخافة من الأعداء في جيان، والشاعر يتذكر هذه المدينة الجميلة كلما هبت ريح الشمال ورأى فيه باد من معالم جيان. ومن مضافات جيان (مدينة قيجاطة) وهي مدينة نزهة كثيرة الخصب، ومنها (بياسة) وهي مدينة على نهر إشبيلية فوق إشبيلية طيبة الأرض كثرة الزرع، وبها الزعفران الكثير، ومنها (مدينة آبرة) وهي مدينة اسلامية لها عين تسقي الزعفران، ومنها (جبل سمنتان) وهو جبل به حقول وقرى كثيرة ، ومنها (معقل شقورة)، و(حصن برشانة) [2] .

2-1-9 **سرقسطة**[3]:

وهي مدينة أحدقت بها بساتينها زمردة خضراء، والتفت عليها أربعة أنهار فأصبحت بها مرصعة مجزعة[4].

ولسرقسطة منتزهات كثيرة منها (قصر السرور) و (مجلس الذهب) [5] ، وفيه يقول ابن هود[6] :-

---

(1) الحميري، صفة الجزيرة الأندلس، ص 72 .

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 229 – 230.

(3) هي قاعدة من قواعد الأندلس، ممتدة الأطناب و الديار والمساكن، متصلة الجنان والبساتين ،انظر الحميري،صفة جزيرة الأندلس ، ص 96.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 232.

(5) المصدر نفسه، ص 232.

(6) هو ألامير أبو محمد عبدالله بن هود،نفاه إبن عمه المقتدر عن الثغر،وقصد طليطلة حضرة إبن ذي النون،ثم مل الإقامة هنالك،فجعل يضطرب ما بين ملوك الطوائف إلى أن استر قراره عند المتوكل بن الأفطس،انظر إبن سعيد،المغرب ج2،ص439.

قَصْرَ السُّرورِ وَمْجلسَ الذَّهَبِ		بِكمّا بَلغْتُ نِهايةَ الطَّربَ

فيصف الشاعر قصر السرور ومجلس الذهب بأنهما مبلغ ونهاية الطرب[1].

2-1-10 مرسية[2] :

وموقعها في أوائل الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة[3]،ولمرسية عدة متنزهات منها، الرشاقة، الزنقات، وجبل أيل المشرف تحته البساتين وبسط تسرح فيه العيون[4]، تحتوي مدينة مرسية على العديد من المتنزهات الجميلة التي كان يقصدها الناس من اجل التنزه والترويح عن النفوس والتمتع بجمال الطبيعة في هذه المدينة الأندلسية ،وان هذه المتنزهات تعطي وصفا كاملا لجمال هذه المدينة الأندلسية،والشاعر في البيتين يصف جمال إحدى الجنات في هذه المدينة التي قادهم ودهم إليها من اجل التمتع بجمالهاوتصفي نفوسهم من متاعب الحياة،فالمنازل فيها كالبدور من شدة جمالها وروعة بنائها ،وهي مطالع للشموس التي تعطي هذه المتنزهات جمالا على جمالها.

ومن مضافات مرسية (مدينة مولة) وهي في غربي مرسية، ومدينة (أريولة)[5] .

وقد اعطى الشعر الأندلسي وصفا كاملا لمدن الأندلس الخالدة على مر التاريخ والتي تدل على حضارة عربية إسلامية استمرت فيها مدة ثمانية قرون عمرت فيها البلاد وجعلتها جنة من جنان السماء في الأرض، لم يترك الشعر الأندلسي أي مكان من الأندلس إلا وأعطاه حقه من الوصف الذي سيخلده على مدى العصور والأزمان.

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ، ص 232.

(2) هي مدينة با لأندلس من أعمال تدمير وهي في مستو من الأرض على النهر الأبيض ولها ربض عامر آهل وعليها وعلى ربضها أسوار حصينة وحظائر متقنة والماء يشق ربضها وهي على ضفة النهر المعروف، وفيها قنطرة مصنوعة من المراكب ، ولها ارحاء طاحنة في المراكب مثل طواحن سرقسطة . الإدريسي ، المغرب وارض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ص194-195 .

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص230.

(4) المصدر نفسه، ص 230.

(5) المصدر نفسه، ص 230.

2-2 وصف المعارك والحروب

الزلاقة[1]:

كانت هذه الوقعة في يوم الجمعة في العشر الأول من شهر رمضان سنة (479هـ) ، وقد عرف هذا اليوم عند العرب "بيوم العروبة"؛ وسمي بذلك لحسنه على العرب والمسلمين[2] .

وبعد اجتماع المعتمد ويوسف في اشبيلية،توافدت جموع المتطوعين من الأندلس من كل مدنها،فخرج من أهل قرطبة من المتطوعين أربعة آلاف فارس وراجل، وجاء المسلمون من بلاد الأندلس من كل بلد وحصن، واتصلت الأخبار بالأذفونش، فخرج من طليطلة في أربعين ألف فارس غير من انضم إليه، وكتب إلى يوسف يغلظ ما عنده من العدد والعدة، ووسع وأطال وبالغ، ووصل الكتاب إلى يوسف، فكتب على ظهر كتابه "الذي يكون ستراه".

ولا كُتبَ إلى المشرفيَّة والقنا   ولا رسل إلا بالخميس العَرَمرَمِ[3].

ورد يوسف بن تاشفين على كتاب الأذفونش بالكتابة على ظهر كتابه، يذكرنا في التاريخ الإسلامي برد الخليفة (هارون الرشيد) على كتاب ملك الروم، عندما رفض دفع الجزية للمسلمين، فكتب له هارون الرشيد على ظهر كتابه العبارة المشهورة "من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، الأمر ما تراه لا ما تسمعه، وقد انتصر هارون الرشيد على الروم، وأجبرهم على مضاعفة الجزية، كذلك انتصر يوسف على

---

(1) بطحاء الزلاقة من عمل بطليوس من غرب الأندلس، فيها كانت الواقعة الشهيرة للمسلمين على الملاعين الذهبي،العبر في خبر من غبر،حققها وضبطها على مخطوطتين أبو هاجر محمد بن السعيد بن بسيوني زغلول،دار الكتب العلمية،بيروت-لبنان،ج2،ص34.

(2) النويري، نهاية الأرب، ج23، ص458.

(3) المصدر نفسه، ص455-456.

الأذفونش. وردّه إليه، فلما قرأ الأذفونش الجواب ارتاع وقال: "هذا رجلٌ لــه عــزم!" [1] وقبل بدء المعركة رأى الأذفونش في نومه كأنه راكب على فيل فضرب نقير الطبل فهالته رؤياه[2]، فقص ذلك على القسيسين فلم يعرفوا تأويله، فأستحضر رجلاً مسلماً عالمنا دينياً، فقال تأويل هذه الرؤيا في آيتين من كتاب الله عز وجل[3]، أما الفيل فقد قال الله تعــالى: " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ "[سورة الفيل]، وأما ضرب النقيرة فقد قال الله تعــالى: " فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ"، [ســورة المــدثر] [4]. وذلــك يقتضي هلاك الجيش الذي تجمعه، فلما جمع الأذفونش الجيش، ستحضر المعبر وقال له: " هذا الجيش الذي ترى ألقى به محمداً صاحب كتابكم، فانصرف المعبر عنه وقال: "هــذا الملك هالك لا محالة وكل من معه فإنه قد أعجب بجمعه...، وذكر قول النبي صــلى الله عليه وسلم، (ثلاث مهلكات)[5].ويرى الباحث أن الله أراد أن يــدخل فــي قلبــه الرعــب والخوف من جيوش المسلمين ، وما سيحل به من هزيمة ، فأراد الله أن يرى الاذفــونش هزيمته قبل بدء المعركة .

وسار المعتمد بن عبّاد وأمير المسلمين بالعساكر إلى موقع المعركــة وهــي ســهل الزلاقة ، كما أتى الأذفونش فنزل موضعاً بينه وبينهم ثمانية عشر ميلاً، فــضرب خيامــه في سفح جبل، والمعتمد في سفح جبل آخر بحيث يتراءان، ونزل يوسف بن تاشفين فــي جبل وراء الجبل الذي فيه المعتمد[6].

وجاء في الروض المعطار في تحديد يوم اللقاء بأن يكــون يــوم الــسبت يقــول الأذفونس: " غداً يوم الجمعة وهو عيدكم، وبعده الأحد وهو عيدنا، فليكن لقاؤنا بينهما يــوم السبت"[7]. ويتفق الباحث مع رأي النويري، في تحديد يوم اللقاء يكون يوم الاثنــين، لأن السبت عيد اليهود، وقد كانوا بكثرة في جيش الأذفونش فاحتراماً لهذا اليوم، يكــون يــوم

(1)النويري، نهاية الأرب، ج23، ص456.
(2) الحميري، الروض المعطار، ص289.
(3) النويري، نهاية الأرب، ج23، ص456.
(4) الحميري، الروض المعطار، ص289.
(5) النويري، نهاية الأرب، ج23، ص456-457.
(6) المصدر نفسه، ص457.
(7) الحميري، الروض المعطار، ص290.

اللقاء الاثنين هو الأغلب، كما إن أغلب المصادر التاريخية تقول بأن يوم تحديد اللقاء كان يوم الاثنين.

ثم ركب الأذفونش صبيحة الجمعة، واجتمع جيشه بجيش المعتمد[1]، وقد بدأت المعركة بأن هجم الأذفونش على جيش المسلمين المؤلف من الفرسان تحت قيادة داوود بن عائشة، الذي لم يتمكن من صد الهجوم، وفي الوقت نفسه قامت الفرقة الثانية من جيش النصارى بقيادة ملك نافار، وهجمت بشدّة على قوات الأندلس، فسادها الاضطراب، وسرى بين أفرادها التوجس[2]، فصبر المسلمون وقتل منهم خلق كثير، وأشرفوا على الانهزام[3]،

ولمّا شاهد يوسف بن تاشفين تفوق الأعداء، دفع بقوات الاحتياط التي كان تحت قيادة القائد الباسل (سير بن أبي بكر) الذي اقتحم المعركة لإنجاد فرق الأندلس، فدّب الأمل في نفوس المسلمين، واستردوا ثباتهم، وتغير وجه المعركة بسرعة[4]، أمّا يوسف فقال للأدلة: احملوني إلى مضارب الأذفونش، فما شعر الفرنج إلاّ وقد نهبت خيامهم وخزائن الأذفونش والقتل يعمل فيهم من وراء ظهورهم[5]، ثم أقبل يوسف بعد ذلك وطبوله تصدع الجوَّ، فلما أبصره الأذفونش وجه إليه وقصده بمعظم جنوده فبادر إليه يوسف وصدمهم بجمعه فردهم إلى مركزهم وانتظم به الشمل بابن عباد ووجد ريح الظفر وتباشير بالنصر[6].

3-2 وصف الطبيعة الأندلسية:

منح الله الأندلس طبيعة فاتنة فكانت أغنى بقاع المسلمين منظراً وأوفرها جمالاً. ترتفع فيها الجبال الخضراء، وتمتد في بطاحها السهول الواسعة، وتجري فيها الجداول

---

(1) النويري، نهاية الأرب، ج23، ص457.

(2) ضيا باشا، الأندلس الذاهبة دول الطوائف ودولة المرابطين وبداية دولة الموحدين، ترجمة عبدالرحمن أرشيدات، راجعه وحققه صلاح أرشيدات، ج2 ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام (14) المملكة الأردنية الهاشمية ، ص79.

(3) النويري، نهاية الأرب، ج23، ص457.

(4) ضيا باشا، الأندلس الذاهبة ، ص79.

(5) النويري، نهاية الأرب، ج23، ص458.

(6) الحميري، الروض المعطار، 291.

والأنهار، وتغرد على أفنان أشجارها الصنادل والأطيار[1]، فقد أبدعها الخالق أيما إبداع، وصاغها خير صياغة، ولونها أجمل الألوان، فلا يستطيع من يراها إلاّ أن يغني، ولا من شاهدها إلا أن تفتنه[2]، لذلك همَّ أكثر الشعراء الذين تغنوا بجمالها وحسنها، ونبغ فيها العديد من الشعراء الذين أسرتهم الأندلس بجمالها وطبيعتها المنفردة على جميع بقاع الإسلام، فكان هناك الكثير، ممن أبدعوا في وصف الطبيعة الأندلسية، أمثال "ابن خفاجة شاعر الطبيعة الأندلسية فجاءت قصائده معبرة وموحية عن مشاعره وعواطفه اتجاه هذهِ الطبيعة الجميلة، وابن زيدون وابن حمديس وغيرهم الكثير.

وإن الداخل إلى بلاد الأندلس لا يتزود فيها بالماء حيث سلك؛ لكثرة أنهارها وعيونها، وربما لقى المسافر فيها في اليوم الواحد أربع مدائن، ومن المحافل والقرى ما لا يحصى؛ ومن أجمل ما قيل في الأندلس، وجمال طبيعتها قول ابن سفر المريني:

وكيف لا يبهجُ الأبصارَ رؤيتُها ... وكلُّ روضٍ بها في الوَشى صنَعاء
أنهارُها فضةٌ، والمسكُ تُربَتُها ... والخَزُّ روضتها، والدُّرُّ حصباء
وللهواء بها لطفٌ يرقُّ به ... من لا يرقُّ، وتَبْدو منهُ أهواء
دارَتْ عَليهَا نِطاقاً أبحرٌ خفضَت ... وَجداً بها إذ تَبدّتْ وهي حَسناء
لذلكَ يَبْسمُ فيها الزّهرُ من طربٍ ... والطيرُ يَشْدُو وللأغصان إصغاء
فيها خَلَعْتُ عِذاري ما بها عِوضٌ ... فهي الرّياضُ، وكلُّ الأرضِ صحراء[3]

وقال أبو مروان عبدالملك بن رزين في وصف الطبيعة الأندلسية الخلابة[4]:

وَروضٌ كَساهُ الُطل وَشْياً مُجَدَداً ... فَأَضحىَ مُقيماً للنفُوسِ وَمعقدا
إذا صَافَحَتهُ الريحُ خَلتْ غُصُونَهُ ... رواقصَ في خُضرِ مِنْ العَصبِ ميَّدا
إذا مَا انْسكابَ الماءِ عاينتُ خلتَهُ ... وَقَدْ كَسَرتهُ راحةُ الريحِ مبردا
وغنتْ بِهِ ورقُ الحمامَ حولنَا ... غناءً ينسيكَ الغريضَ ومعبدا

---

(1)الركابي ، جودت ، الطبيعة في الشعر الأندلسي، مطبعة جامعة دمشق (1378هـ-1959م)، ص14.

(2)البيومي محمد رجب ، الأصالة في شعر الطبيعة بالأندلس، بحث منشور بمجلة الأديب مجلة تبحث في الآداب والفنون والعلوم والسياسة والاجتماع، العدد 25، يناير سنة 1966، ص14.

(3) المقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت1038)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، حققه إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى(1968)، ج1، ص208-210.

(4) العمري ،مسالك الأبصار،ج11،ص259.

فَخُذهَا مداماً مِنْ غزالِ كأنّهُ إذا مَـــا سعىَ بدرٌ تحمـــلُ فرقدا

يتحدث الشاعر في هذه الابيات عن جمال الطبيعة الأندلسية الخلابة ، بما تمثل مــن معالم طبيعية تبهر المشاهد ، ويتحدث عن جمال الرياض الخلابة التــي يكسوها الطــل فنصبح وشيامتجددا ، ليعطي النفوس راحة وطمأنينة ، ثم يجسد هذه الغـصون الجميلــة عندما تداعبها الرياح بالراقصة البارعة حيث تتمايل بترنم وســعادة ، ولا تكــون هــذه الصورة كاملة إلا بوجود الماء العذب الذي يعطي الحياة الجمال ، والذي يـصبح بــاردا عذبا من هبوب الريح عليه ، وهذ ه الطبيعة الجميلة تجعل الحمام يغرد بصوت جميل فيها ، هذا الغناء ينسي الهم والتعب ، ثم يتحدث عن عقد مجالس الشراب في هذه الطبيعة التي تعطي جوا من السعادة والفرح ، ويصف الساقي بالغزال في مشيته ، وبالبدر في جماله ، إذا حمل هذه المدامة وسعى بها .

وصف أنهار الأندلس:

نعمت الأندلس بأنهارها وجداولها الكثيرة التي أوجدت الخصب والنماء، ونــشرت الخضرة الغناء في أرجاء البلاد، حيث البساتين والأعناب، وحقول المحاصيل تظل طوال أيام السنة[1].

وبالأندلس أنهار كثيرة، وأعظمها نهران: الأول "نهر إشبيلية"، وهو في قدر دجلة، وهو أعظم نهر في الأندلس، ويسميه أهل الأندلس النهر الأعظم [2] .

وهو من أحسن الأنهار وأجلها ، محفوف بالبساتين والدور والقصور[3] ، وركــب أبــو محمد بن صارة مع أصحاب له في نهر إشبيلية في عشية سال أصيلها على لجين المــاء عقياناً ، وطارت زواريقها في سماء اللهو عقبانا، وأبدت نسيمها من الأمــواج ، والــدرر سدراً وأعكاناً ، في زورق يجول جولان الطرف ، ويسودا اسوداد الطرف؛ فقال:

تأمــلْ حَالَنَــا والجــوُّ طلــقٌ مُحيــاهُ، وقَــدْ طَفِــلَ المَــساءُ
وقَدْ جَالتْ بَنَــا عَــذراءُ حُبْلــى تَجَاذَبَ مَيرطُهــا ريــح رُخــاءُ

(1) السعيد محمد مجيد ، الشعر في ظل بني عبّاد، الطبعة الأولى ، مطبعة النعمان النجف الأشــرف، ســاعدت وزارة التربية على نشره، ص115.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص234.

(3) العمري ، مسالك الأبصار ، ج 1 ، ص 108.

بِنَهــــرٍ كالـــسَّجَنْجلِ كــــوثريّ   تُعبِّس وجهُهـــا فيِـــهِ الـــسماءُ[1]

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن رحلة قام بها مع أصحابه على متن زورق في نهر إشبيلية ، فيصف لنا جمال هذه الرحلة ، وما أدخلته في نفوسهم من فرح وســعادة ، ويطلب الشاعر منا أن نتأمل حالهم في هذه الرحلة ، التي جرت في جو صــاف وجميــل وقت حلول المساء ، وما تعكسه أشعة الشمس الحمراء على مياه النهر حتى ظهر النهــر كأنه سجنجل كوثري، من شدة جماله .

ولما وقف عليها ابن خفاجة استحسنها واستطرفها واستطابها؛ فقال يعارضها على وزنها ورويها وطريقها[2] :

ألا يـــا حبَّـــذا ضَـــحِكُ الحُمَيَّـــا   بِحَانَتِها، وقَـــدْ عَـــبَسَ المـــساءُ
وأدهمُ مِـــنْ جيـــادِ المـــاءِ نهـــد   تنـــازعُ حَبْلَـــهُ ريـــحٌ رُخـــاءْ
إذا بدتْ الكواكبُ فيـــهِ غَرْقـــى   رأيتَ الأرضَ تَحسُدُها الـــسماءُ

يرسم الشاعر صورة جميلة لرحله نهرية في وقت المساء ، والتي تـسيطر عليـه السعادة والفرح مع شرب الحميا فيه ، ثم يشبه الزورق بأنه جواد اسود تتنازعه الريــاح فتحركه كيفما تشاء ، حتى إذا انعكست صورة الكواكب في هذا النهر أصــبح ذا منظــر جميل تحسده عليه السماء .

وينبع من جبال شقورة حيث يبلغ طوله خمس عــشرة درجــة، وعرضــه ثمــان وثلاثون وثلثان، ويجري في ابتدائه من الشرق إلى الغرب[3]، ثم يصبّ إليه عــدّة أنهــر منها "نهر شنيل" الذي يمر على غرناطة[4]، وفيه يقول الشاعر الكتندي[5]:

(1) العمري ، مسالك الأبصار ج 1 ، ص 110.

(2) المصدر نفسه، ص 110-111 .

(3) المصدر نفسه ،ص235.

(4) المصدر نفسه ،ص235.

(5) هو أبو بكر محمد بن عبد الرحمن الكتندي، هو من نبهاء شعراء عصره. سكن غرناطــة، انظــر ابــن ســعيد ، المغرب في حلى المغرب ، حققه وعلّق عليه شوقي ضيف ، ط4 ، دار المعارف ، ج2، ص264.

وينحدر "نهر شنيل" من جبل شلير بجنوبها[1] .

يا نهرُ أشنيلَ ألا عودةٌ   لذلك العهد ولو فـــي المنـــامْ
ما كانَ إلا بارقاً خاطفاً   ما زلتُ مُذْ فارقني في ظلامْ

فالشا عر في الأبيات يتمنى العودة إلى هذا النهر والاستمتاع بجماله والتنزهه فـــي ضفافه والجلوس واللهو على أطرافه، فهو مذ فارق النهر وجماله نفسه في ظلام من شدّة حبه وشوقه إلى نهر "شنيل".

ونهر "سوس" الذي عليه مدينة إستجة، يسير من جبال شَقورة إلى جهـــات جيّـــان، ويمر على مدينة بيّاسة، ومدينة آبرة، ثم يمر على مدينة قرطبة، حتى إذا قرب من إشبيلية يتعطف ويجري من الشمال إلى الجنوب، وتكون إشبيلية على شـــرقيّة، وطريانـــة علـــى غربية، ثم ينعطف فيجري من الشرق إلى الغرب، ثم يجاوز حتى يصبّ في البحر المحيط الغربي عند مكان يعرف بير المسائدة حيث الطول ثمان درج وربـــع، والعـــرض ســـت وثلاثون وثلثان ويبلغ المد فيه "سبعين" ميلاً فوق إشبيلية عندما كان يعرف بالأرحى [2].

يقول ابن سعيد أيضاً في نهر "شنيل"[3]:

انظرْ لشنيل يُقابلُ وجههُ   وَجـــهْ الهـــلال كقـــارئ أشـــطارَهُ
لما رآه معصماً قد زانهُ   وشيً الصبـــا ألقـــى عليـــه ســـواره

فشبه الشاعر نهر شنيل في سيره بالهلال، وهو في سيره يـــشبه الـــسوار، الـــذي تتجمل فيه الفتاة، ليزيد من جمالها، فقد أضفى الصّبا هذا الجمال على النهر تقديراً لجماله، فالنهر عند الشاعر في سيره مثل السوار.

والثاني (نهر مرسية) وهو قسيم نهر إشبيلية يخرجان من جبال شقورة، فيمرّ نهـــر إشبيلية مغرباً على ما تقدم ويصب في البحر المحيط، ويمرّ نهر مرســـية مـــشرقاً حتّـــى يصب في بحر الروم عند مرسية[4]. ويمر نهر مورسيه في العديد من الحـــصون والمـــدن حتى يصل إلى مصبه،فيمر في عين الجنوب إلى حصن أفرد،ثم إلى حصن مولـــةثم إلـــى

---

(1) العمري ، مسالك الأبصار ، ج 4 ، ص 227.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص235.

(3) ابن سعيد، المغرب، ج2، ص103.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص235.

مرسية ثم إلى أريولةثم إلى المدورثم إلى البحر[1]. وقد جال في المغرب: "إن مرسية أخت إشبيلية هذه شرق الأندلس، وهذه غربها، وقد قسم الله بينهما النهر الأعظم، فأعطى هذه الزرع الشرقي، وأعطى هذه الزرع الغربي، ولمرسية مزيّة تيسير السقيا منه، وليست كذلك بإشبيلية؛ لأن نهر مرسية يركب أرضها، وإشبيلية تركب نهرها[2].

فقد أضفى الأندلسيون على النهر صوراً عديدة وجميلة، فهو مثل لمى الحسناء، وفي سيره مثل السوّار على معصم الحسناء، يشق الحدائق والبساتين والرياض فيظهر مثل الحية في تعرجه، وهناك العديد من الصور التي رسمها الشعراء للنهر وما هذه الصورة إلا دليلاً واضحاً على مدى إعجابهم وولعهم بالطبيعة الأندلسية الخلابة التي تتميز بها أرضهم، لذلك نبغ الشعراء في وصف أنهار الأندلس فأضفوا عليها حسناً وجمالاً فوق حسنها وجمالها.

يرسم لنا ابن خفاجة صورة غزلية في حديثه عن النهر الذي سال في أرض بطحاء: حيث يقول:

لله نَهْـرٌ سَـالَ فـي بَطْحَـاءِ	أَشْهَى ورُوُداً مِنْ لَمَى الحَسْناءِ
مُتَعَطِّفٌ مِثْـلَ السِّـوَارِ كَأَنَّـهُ	وَالزّهْـرُ يَكْنُفُـهُ مَجرُّ سَـمَاءِ
قَـدْ رَقَّ حتَّى ظُنَّ قُرصاً مُفْرَغـاً	مِنْ فِضَّةٍ في بُـرْدَةٍ خَضْـرَاءِ
وَغَدَتْ تَحُفُّ بهِ الغُصُونُ كَأَنَّهـا	هُدْبٌ تَحُـفُّ بِمُقْلَـةٍ زرقـاءِ
ولطَالما عَاطيْـتُ فيـهِ مُدامـةً	صَفْرَاءَ تَخْضِبُ أَيْدي النُّدَمَاءِ
وَالرّيحُ تَعْبَثُ بالغُصُونِ وقَدْ جَرَى	ذَهَبُ الأصِيلِ على لُجينِ الماءِ[3]

يرسم لنا ابن خفاجة صورة غزلية جميلة لصفة النهر، فيطرق عليه الصفات الجسدية، ويعامله معاملة الفتاة الحسناء الجميلة، التي تجلب انتباه كل من رآها، فالنهر في سيره في الأرض هو أجمل من لمى الحسناء، وهو في سيره وتعرجه بين الرياض

---

(1) الادريسي،المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الاتفاق،ص199.

(2) ابن سعيد، المغرب، ج2، ص245.

(3) النويري ، نهاية الأرب ، ج 1 ، ص 283، ابن خفاجة، الديوان، تحقيق، السيد مصطفى غازي، الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية، ص356.

و الحدائق مثل السوار حول معصم الحسناء، فالشاعر يضفي على النهر صــفات جميلــة، مستوحاة من لوحات غزلية غاية في الدقة والإبداع، ومن ثم ينتقل إلى صورة أخرى قــد رسمها للنهر فهو في رقته مثل القوس المفرغ، ولونه يميل إلى لون الفضة الذي يغطــى ببردة خضراء، وهي صورة أيضاً في غاية الروعة يقدمها لنا ابن خفاجة، ليطربنا ويمتع أنظارنا بها، فإن هذا الجمال الذي فيه الشاعر يدفعه إلى اللهو والشرب ويكمل ابن خفاجة روعة تصويره بصورة أخرى، وهي صورة الأشجار المحيطة بالنهر، فعندما تهب الريح تحرك أغصان الأشجار فتتغلغل أشعة الشمس من بينها لتسقط على مياه النهــر فتظهــر كأنها لآلئ في غاية الروعة والجمال.

ثم يمتعنا ابن صارة الشنتريني بهذين البيتين اللذين رسم من خلالهما للنهر صورة متحركة زاهية طريفة، واختار وقت الأصيل حيث تترقرق الأمواج وتتكسر على صــفحة الماء؛ يقول: [1]

النهّرُ قد رقّتْ غلالهُ خصره   وعَليه مِنْ صبغِ الأصيلِ طرازُ
تترقرقُ الأمواجُ فيهِ كأنَّــها   عُكنُ الخُصُورِ تَهُزها الأعجازُ

فشبه الشاعر أمواج النهر في البيت الأخير في رقتهِ وجمالهِ برقة وجمال خــصور النساء، لأن الخصر الرقيق من صفات الجمال عند النساء، لذا اختار ابــن صــاره هــذه الصورة الجميلة ليضفيها على أمواج النهر التي تعطي النهر صفة الجمال.

يقوم أكثر أهل الأندلس بنزهات نهرية مع الغروب أو في الصباح الباكر، فيبهرهم جمال الطبيعة، وتسحرهم روعتها فيعبرون عن إعجابهم بنفثات شعرية في غاية الروعــة والجمال، ركب عبد الجليل بن وهبون وأبو الحسن غلام البكري من إشبيلية في ليلة أظلم من قلب الكافر ، وأشد من طرف الظبي النافر ، ومعهما غلام وظيء وقد أطلــع وجهــه البدر ليلة تمامه ، على غصن بان من قوامه ، وبين أيديهم شمعتان قــد أزرتــا بنجــوم السماء، ومزقتا رداء الظلماء ، وموهتا بذهب نورهما لجين الماء ، ؛ فقال: [2]

(1) النويري ، نهاية الأرب ، ج 1 ، ص 283،انظر، ابن خاقان،ابو الفتح بن محمد بن عبدالله القيسي الإشبيلي،الشهير بابن خاقان(529هــ)، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان،حققه وعلق عليه،حسين يوسف خريوش،جامعة اليرمــوك، مكتبة المنار،الطبعة الاولى(1409هــ-1989م)،ج(1-2)، ص819.

(2) العمري ، مسالك الأبصار ، ج1 ، ص 109.

كأنّما الشمعتان إذ سمتا   خدا غلام محسن الفيد
وفي حشا النهر من شعاعهما   طريق نار الهوى إلى كبدي

وقال غلام البكري[1] :

أحبب بمنظر ليلة ليلاء   تجنى بها اللذات فوق الماء
في زورق يزهى بغرة أغيد   يختال مثل البانة الغيناء
فرنت يداه الشمعتين بوجهه   كالبدر بين النسر والجوزاء
والتاج فوق الماء ضوء منهما   كالبرق يخفق في غمام سماء[2]

وكثيراً ما يخرج الأندلسيون في رحلات ونزهات بحرية في قواربهم في البحار والأنهار التي كانت تكثر في بلادهم، وكانت هذه الأنهار لشدّة ما هي عليه من جمال، تلهم الشعراء مَنّ القول، فتخرج الكلمات العذبة المعبرة عن جمال تلك الطبيعة.

قال محمد بن الحسين[3] في صفة النهر:

والنهرُ مكسوٌّ غلالةَ فضّةٍ   فإذا جَرَى سيْلا فثوبُ نضارِ
وإذا استقام، رأيتَ صفحة مُنصُلٍ   وإذا استدارَ رأيتَ عِطفَ سوار[4]

ويبين لنا الشاعرفي البيتين صفات النهر التي رسمها بصورة فنية جميلة، فالنهر مكسو بغلالة تميل إلى لون الفضة، وهو في جريانه مثل الثوب النظر الجميل، إذا استقام فهو في رونق متصل جميل، وهو في استدارته مثل السوار حول المعصم.

---

(1) هو حكم بن محمد،وكنيته أبو الحسن،من الموالي،وهو غلام أبي عبيد البكري،من شعراءالدولة العبادية،كان من ندماء عبدالجليل بن وهبون،انظر ابن سعيد،المغرب،ج1،ص348.

(2) العمري ، مسالك الأبصار ، ج1،ص109.

(3) أبو عبدالله محمد بن علي بن الحسن بن أبي الحسين القرطبي،انظر المقري،نفح الطيب،ج2،ص57.

(4) النويري ، نهاية الأرب ، ج 1 ، ص 283 ، الكتاني، أبو عبد الله محمد بن الكتان الطبيب، كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة (1981م-1401هـ)، دار الشروق القاهرة، ص67.

أمّا ابن العطار[1]، فيتحدث عن مروره بشاطىء نهر جميل تحفة الحدائق الخضراء من كل جانب وهذه الحدائق بما تحويه من أزهار جميلة ذات ألوان متنوعة، تسيطر على نظر المارين بهذا النهر، وتعطيه زينة خضراء، وهبّ على النهر النسيم العليل الذي يعطي هذا الجوّ مسحة من الروعة والجمال التي تريح النفس وتزيل الهموم؛ يقول[2]:

مَرَرْنا بشاطي النَّهْرِ بَيْنَ حَدَائقٍ   بها حَدَقُ الأزهار تَسْتَوْقفُ الحَدَقْ
وَقَدْ نَسَجَتْ كَفُّ النَّسيم فَضُاضَةً   عَلَيْه، وما غَيْرُ الحْبَابِ لَهَــا حَلَقْ

(1) هو ابراهيم بن محمد بن أحمد بن عبيدالله : من أهل قرطبة؛يكنى: أبا الفرج، ويعرف بابن العطار،وهو والد الفقيه أبي عبدالله،أنظر ابن الأبار ،التكملة ،ج1،ص134.

(2) النويري ، نهاية الأرب ، ج 1 ، ص 284، ابن خاقان، قلائد العقيان، ص882.

الفصل الثالث
شخصيات أندلسية في الموسوعات الأدبية
في العصر المملوكي

3-1 عبد الرحمن الداخل :

إن تاريخ الأمة العربية في عهد الإسلام حافل بالسير العظيمة التي لا تزال مغبونة مجهولة المقدار في موازين التاريخ الحديث، ولم تصب ما أصابه أبطال اليونان والرومان الأقدمين من درس واستقصاء، ولم تصب ما أصابه أبطال العصر الحاضر من تنويه وذيوع بين عامة القراء(1).

ومن هؤلاء القادة الأبطال "صقر قريش"، هذا الشاب الأموي الذي فرَّ خوفاً من سيوف العباسيين بعد أن سقطت دولة الأمويين في الشرق، فاستطاع بما كان يتصف به من صفات عقلية وجسمية مع شكيمة الشخصية أن يصل إلى الأندلس، ويؤسس دولة أموية قوية على غرار دولة الأمويين في الشرق، وقد وردت قصة هروب عبد الرحمن بن معاوية وما تعرض له من أهوال وأخطار حتى وصل إلى الأندلس، في أغلب المصادر التاريخية، وكيف استطاع هذا الشاب الأموي من استغلال الوضع السياسي المتردي في الأندلس، والدعوة إلى الأمويين، حتى التفت حوله العديد من القبائل التي ساندته وساعدته حتى يسترد ملك الأمويين، ولكن هذه المرة كان في الأندلس ولم يكن في الشرق.

ونتيجة هذه الصفات التي توفرت في عبد الرحمن بن معاوية، استطاع أن يجلب إليه انتباه القادة العظام ومنهم على سبيل المثال العدو اللدود له، حامل راية العباسيين "أبو جعفر المنصور"، الذي أطلق عليه لقب "صقر قريش"، وستتعرض هذه الدراسة للحديث عن حياة عبد الرحمن بن معاوية وشعره.كمما وردت عند أصحاب الموسوعات المشرقية.

---

(1)أدهم علي ، صقر قريش عبد الرحمن الداخل قصة حياته السرية العامرة ودراسة تحليلية لمؤسس الدولة الأموية في الفردوس المفقود، تقديم عباس محمود العقاد، دار الهلال، ص8.

1-1-3 اسمه ولقبه:

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكـــم[1]. أول ملوك الأندلس من بني مروان[2]، وكان مولده (بدير حنا) من دمشق، وقيل بالعليـــاء مـــن ناحية تدمر في سنة(113هــ) ومدة ولايته بالأندلس ثلاثاً وثلاثين ســـنة وأربعـــة أشـــهر وأربعة عشر يوماً[3]، وأمه بربرية من سبي المغرب اسمها (راح أو رداح) [4].

وكان عبد الرحمن بن معاوية يلقب بالأمير، وعليه جرى بنوه من بعده فلم يُدع أحد منهم بأمير المؤمنين، إذ بايع بالخلافة بمقرّ الإسلام ومبتدأ العرب، حتى كان عبد الرحمن الناصر وهو الثامن فتسمى بأمير المؤمنين[5].

تمتع عبد الرحمن الداخل بالعديد من الصفات فقد كان، أصهب، خفيف العارضين، طويل القامة، نحيف الجسم[6]بوجهه خال، أعور، أخشم، له ضفيرتان[7] ،وكان فـــصيحاً، شاعراً، حليماً، عالماً، حازماً، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه[8]،وكان يشبه بأبي جعفر المنصور في حزمه وشدّته وضبطه لملكه، وقد بنى الرصافة بقرطبة تشبهاً بجـــده هشام حيث بنى الرصافة بالشام، وقد كان عبد الرحمن من ذوي الآداب[9].

وهذه الصفات المميزة التي توفرت في شخصية عبد الرحمن أعطتهُ القدرة على تأسيس دولة أموية قوية في الأندلس، قلما تتوفر لغيره من القادة.

---

(1) العمري ، مسالك الأبصار ، ج 24 ، ص 451، بدر أحمد ، صقر قريش عبد الرحمن الداخل، الطبعـــة الأولـــى (1988م)، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ص13.

(2) السيوطي،جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر المتوفى فـــي عـــام(911) مـــن الهجرة،الوســـائل إلـــى مـــسامرة الأوائل،حققه اسعد طاس،مطبعة النجاح،بغداد(1369هــ-1950م)،ص102-103.

(3) النويري، نهاية الأرب، ج23، ص350.

(4) السيوطي،تاريخ الخلفاء،تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد،مطبعة الـــسعادة بمـــصر،الطبعة لأولـــى فـــي عـــام 1371هــ،1952م،ص260.

(5) ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الـــسلطان الأكبر، وهو تاريخ وحيد عصره العلامة عبد الرحمن ابن خلدون المغزي، المجلد السابع، دار الكتاب المصري-القاهرة، دار الكتاب اللبناني-بيروت، طبعة مزيدة ومنقحة (1420هــ - 1999م)، ص65.

(6) النويري، نهاية الأرب، ج23، ص350.

(7) العمري ، مسالك الأبصار ، ج 24 ، ص 457.

(8) المصدر نفسه، ص350.

(9) المصدر نفسه، ص351.

وكانت وفاته بقرطبة في غرة جمادى الأولى سنة (172هـ)، وكان قد عهد إلى ابنه هشام بمدينه ماردة والياً عليها، وابنه سليمان بطليطلة والياً عليها، فلم يحضرا موت أبيهما[1]. ودفن في القصر ، وصلى عليه ابنه عبد الله بن عبد الرحمن ، المولود ببلنسية[2].

وكان نقش خاتمه "بالله يثق عبد الرحمن ويعتصم"، وكان له من الأولاد الذكور أحد عشر ولداً وهم (أيوب الشامي ولد بالشام، وسليمان وهشام ولي عهده، وهو الوالي بعده ولد بالأندلس، وعبد الله ولد ببلنسية وعرف بالبلنسي ومسلمة المعروف بكليب، وأمية، ويحيى، والمنذر، وسعيد الخير، ومحمد، والمغيرة، ومعاوية، وله من البنات تسع"[3].

3-1-2 معركة المصارة:

دارت هذه المعركة الفاصلة على ارض الأندلس بين عبدالرحمن الداخل من جهة ،ويوسف بن عبدالرحمن الفهري والصميل بن حاتم الكلابي من جهة أخرى،في يوم الجمعة يوم العيد تبين يوسف أنّه انخدع ووجد جيش عبد الرحمن يصطف استعداداً للقتال[4]. وظهر عبد الرحمن في هذه المعركة على فرس أشهب جميل، تحف به مواليه، وكوكبة من فرسانه، فلما رأت اليمن ذلك، قال بعضهم لبعض غلام حدث فما يؤتنا أن يطير على هذا الفرس فنهلك[5] ، فبلغه ذلك حين لفظوا به، فنادى أبا الصباح، فأقبل إليه، فقال: ليس في عسكرنا بغل أوفق من بغلك، فإن هذا الفرس يعلق تحتي، فلا أقدر على ما أريد من الرَّمي من قوسي، فخذ فرسي، وهات بغلك[6] ، وهذه الحادثة تدل على مدى فطنة وحكمة عبد الرحمن حتى يطمئن الجنود إلى عدم هروبه.

---

(1) النويري، نهاية الأرب، ج23، ص35.

(2) العمري ، مسالك الأبصار ، ج 24 ، ص 457.

(3) النويري ، نهاية الأرب ، ج 24، ص35.

(4) حسن مراد ، تاريخ العرب في الأندلس، ط1 (1348هـ – 1930م) ، المطبعة الحديثة بشارع خيرت بالقاهرة، ص44.

(5) العمري ، مسالك الأبصار ، ج 24، ص 453 .

(6) المصدر نفسه ، ص 453 .

ولما كان يوم المصارة واستحر القتل ، مشى العلاء بن جابر العقيلي إلى الصميل بن حاتم ، وكلاهما من عسكر يوسف بن عبد الرحمن ، فقال له يا أبا جوشن ، اتق الله ، فوالله ما أشبه هذا اليوم إلى بيوم المرج [1]، وانتهت المعركة ،فانهزم يوسف ، ودخل عبدالرحمن قصر قرطبة يوم الجمعه،يوم الأضحى من العام نفسه (138هـ) ،ثم حاربه يوسف ثانيا، ودخل قرطبة، واستولى عليها ، وكر عبدالرحمن عليه، فهرب يوسف والتجأ إلى غرناطة،فامتنع بالبيرة، فنازله عبدالرحمن وضيق عليه، ورأى يوسف اجتماع الأمر للداخل،فنزل بالأمان محضر من قاضي الأندلس يحي بن يزيد التجيبي،وبقي على القضاة حتى وفاته سنة(142هـ) ،ثم استعمل على القضاء معاوية بن صالح . وفي هذه الوقعة يقول ابن النسبسية[2]:

أهداكَ ربُّكَ رحمةً لعبـــــــــادهِ	لمَا تضرَّمَت البلادُ وقــودا
فسلقتَ أطرافَ الأسنةِ في العِدى	حتَّى روينَ فَمَا يرونَ مزيدا
والخيـــلُ تعثـــرُ بالقنَـــا وكأنَّمـــا	فوقَ السنَابِك إذْ حنينَ قيودا
والمشرفيةُ لنْ تبيدَ صِقَالُهَـــــــا	مثلُ الكوُاكبِ يَتَّقدْنَ وقـــودا
حتَّى أطرنَ جماجماً مكنونــــــةً	تحتَ المَغَافِرِ فانْكفأَنَ سُجُودا

يشير الشاعر في الأبيات أن الله عز وجل أتى بعبدالرحمن الداخل إلـــى الأنـــدلس رحمة بالعباد حينما تقسمت البلاد وأضرمت فيها النار،ثم يشير إلى معركة المصارة التي اروى فيها عبدالرحمن وجيشه أسنة رماحهم من دماء أعدائهم،ثم يقدم وصفا كاملا لهـــذه المعركة من حيث كثرة القتلى في صفوف الأعداء،حيث شبه المشرفية من شـــدة لمعانهـــا بين غبار المعركة بالكواكب المضيئة في السماء في الليلة الظلماء.

3-1-3 أدب عبد الرحمن الداخل:

لا بد ونحن في صدد الحديث عن هذا الأمير البطل الأموي الذي اســـتطاع بقـــوة شخصيته، وشكيمته، وحكمته، وحزمه، أن يؤسس دولة قوية مترامية الأطراف فـــي بلـــداً أعجمي، جاء إليه هارباً من سطوة العباسيين، وأقام مملكة مقرها قرطبة، حتّى تحولت إلى

(1) العمري ، مسالك الأبصار ، ج 24، ص 454.

(2) المصدر نفسه ، ص 454.

عاصمة للثقافة والآداب، في عصره، كيف **لا** وأميرها يعتبر من الشعراء والمحبين للأدب والثقافة[1] والآداب، وله شعر حسن"[2].

وسوف أورد بعضاً من نثر عبد الرحمن وشعره الداخل فمن نثره، ما وجهه إلى رجل طلب مقابلته لكي يطلب منه مالاً فقال له: "قد سمعنا مقالتك، وقضينا حاجتك، وأمرنا بعونك على دهرك، على كرهنا لسوء مقالتك، فلا تعودنّ ولا سواك لمثله من إراقة ماء وجهك، بتصريح المسألة، والإلحاف في الطلبة، وإذا ألمّ بك خطب أو ضربك أمر، فارفعه إلينا في رقعة لا تعدوك، كيما نستر عليك خلتك، ونكفّ شمات العدو عنك، بعد رفعك لها إلى مالكك ومالكنا عزّ وجهه بإخلاف الدعاء وصدق النيّة"[3].

وهذا الكتاب الذي بعثه للرجل يدل على مدى بلاغة وفصاحة الأمير عبد الرحمن الداخل من حيث اختيار الألفاظ المناسبة، واستخدام البديع، فجاء الكتاب على أرفع مستوى من البلاغة والفصاحة.

ومن شعر الأمير عبد الرحمن ما قاله بالأندلس، يتشوق إلى دياره بالشام بعدما رأى راكباً يتهيأ للسفر إلى الشام، وهو لا يستطيع العودة إلى دياره التي خرج منها دون رغبة منه، بل خرج هارباً من ظلم العباسيين، فيبلغ أشواقه وأحزانه في أبيات شعرية، تدل على مدى صدق العاطفة عند الأمير، وتعبر عن مدى شوقه وحنينه إلى دياره في الشام، موطنه الأصلي، ومقام دولة الأمويين الأولى في الشرق، فيحمل الأمير هذا الراكب سلامه إلى دياره، ويخبره بأن فؤاده بالشام، ولو كان جسمه بالأندلس، ويتمنى الأمير لو يستطيع العودة إلى الشام موطنه؛ يقول[4] :

أيُّها الراكبُ المُيمَّمٌ أرضى ... أَقْرِ مِنْ بعضيَ السَّلام لبْعضِي

إنَّ جسمِي كَمَا علِمْتَ بأَرضِ ... وَفُؤادي كَمَا علِمْت بأَرضِ

قُدِّر البيْن بيْنَنَا فَافتَرقْنَا ... وطوى البيْنُ عنْ جُفُونِي غُمْضى

قَدْ قضَّى اللهُ بالفراقِ عَلينَا ... فَعَسَى باجْتِمَاعِنَّا سوفَ يُقضَّى

---

(1) الشعراوي، احمد إبراهيم الشعراوي، الأمويون أمراء الأندلس الأول ، المطبعة العالمية ، ص125.

(2) النويري، نهاية الأرب، ج23، ص351.

(3) المصدر نفسة ، ص100-101.

(4) المصدر نفسة ، ص351.

ورأى عبد الرحمن الداخل في رصافة قرطبة بعد أن أنشأها نخلة منفردة فهاجت شجنه، وتذكر وطنه، فجعل من هذه النخلة إنسان آخر تغرب عن وطنه فأصبح غريب في بلاد غريبة عليها، ويقارن أو يربط بينه وبين هذا الإنسان الغريب فهو غريب في بلاد غريبة غير بلاده الأصلية فهو مثل هذه النخلة يشعر بالوحدة والغربة، ويشكو ألم البعد عن دياره فقال أبيات شعرية تدل على مدى الشعور بألم الغربة عندما شاهد هذه النخلة الوحيدة وسط الرصافة، كما وتنم عن قوة موهبته الشعرية، فقال(1):

تَبدَّتْ لنا بينَ الرَّصافة نَخْلَـــــــةٌ تَنَاءَتْ بأرض الغَربِ عن بلَدِ النَّخل
فقلتُ شبيهي في التَّغَرُّب والنوى وطول اكتئابي عن بنيَّ وعن أهلـــي
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبـــــةٌ فمثلكِ في الإقصاء والمنتأى مثلـــي
سقتكِ غوادي المُزن مِن صوبها الذي يَسِحُّ ويستمري السِّماكين بالوبــــلِ

ولما استقامت له الدولة بلغه عن بعض من أعانه أنّه قال: لولا أنا ما توصل لهذا الملك، لما كان منه أبعد من العيوف، وأن آخر قال:سعده أعانه لا عقله وتدبيره، فحركه ذلك فرّد عل هؤلاء بأبيات شعرية يوضح فيها أنّه لا يوجد فضل لأي إنسان عليه، وإنّما وصلت إلى ما وصلتُ إليه عن طريق الحزم، والسيف، والرمح، بالإضافة إلى قوة الشكيمة، ورجاحة العقل، والحكمة فقال:

لا يُلْــفَ ممتـــنٌّ علينا قائـــــلٌ لولايَ ما ملك الأنـــامَ الداخـــلُ
سَعْدي وَحَزْمي وَالمُهنَّدُ وُالقنَـــا وَمقَـــادرٌ بَلغتْ وحـــالٌ حائـــلُ
إنَّ الملوكَ معَ الزمـــانِ كواكبٌ نجـــمٌ يطالعنـــا ونجـــمٌ آفـــــلُ
والحزمُ كلُّ الحزمِ أن لا يغفلوا أيروم تدبيـــرَ البريّـــة غافـــلُ
ويقول قـــومٌ ســـعده لا عقلـــه خير السعادة ما حماها العاقـــلُ
أبني أميّة قد جَبَرْنا صَدعَكـــم بالغربِ رغماً والسعودُ قبائـــلُ
ما دامَ مِن نسلي إمـــامٌ قائـــمٌ فالملكُ فيكم ثابـــتٌ متواصـــلُ(2)

---

(1) النويري، نهاية الأرب، ج23 ، ص351،العمري،مسالك الأبصار،ج24،ص456.

(2) المقري، نفح الطيب، ج3، ص42-43.

ومن شعره أيضا ما تحدث فيه عن الاستغناء عن حياة الراحة والسعادة واستبدالها بحياة الجد والتعب من أجل الوصول إلى المبتغى،يقول[1]:

غَنيتُ عَنْ رَوُضٍ وَقَصرْ شَاهِقٍ بالقفْرِ وَالايطَانِ وَالسَرَادِقِ
فَقلْ لِمَنْ نَامَ على النَّمَارقِ إنَّ العُلا شُدْتْ بِهْمُ طَارِقِ

وكان كل ما نقل عن عبد الرحمن من شعر قد قيل في الأندلس، ومن هنا جاء شعره جميعاً مرتبطاً بالأندلس متأثراً بها، وتسم شعره بصدق التجارب وبغنية التعبير، وطريقة تناوله للموضوعات التي يعتمد فيها على الوجدان في الموضوع الذي أساسه الوجدان، وعلى الإقناع في الموضوع الذي أساسه لفكر، ويغلب على شعره سمة التركيز العاطفي حينما يتذكر موطنه الأصلي في الشام وحنينه وشوقه لدياره، ويلاحظ على شعره أيضاً أن لغته تميل إلى السلاسة والرقة، وتجانب التعقيد والغموض والغريب[2].

3-2 عبد الرحمن بن الحكم:

هو أبو المطرف وقيل أبو المظفر عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل[3]، ولد بطليطلة سنة (176هـ-792م) [4]، وهو عبد الرحمن الأوسط والرابع من خلفاء بني أمية بالأندلس[5]، ولد لسبعة أشهر عندما كان أبوه الحكم يتولاها – طليطلة- لأبيه هشام[6]، وأسم أمه (حلاوة) [7]، بويعى له بعد وفاة أبيه في يوم الخميس لأربع بقين من ذي الحجة سنة (206 وذلك في خلافة المأمون بن الرشيد العباسي[8]. توفي سنة (سبع

(1) الكتبي، محمد بن شاكر المتوفى 764 ، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت (1974)،م2،ص303.

(2)هيكل أحمد ، الأدب العربي في الأندلس من الفتح إلى سقوط الخلافة، طبع بمطابع دار المعارف، ص96-97.

(3) النويري،نهاية الأرب،ج24،ص375.

(4) العمري ، مسالك الأبصار ج 24، ص 466 .

(5) المصدر نفسه ، ص 465 ، ابن الآبار، الحلة السيراء، ج1، ص113.

(6) الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك ، الوافي بالوفيات ، عبد الأحد _ عبد العزيز ، باعتناء أيمن فؤاد سير، يطلب من دار النشر فرانز شتايز فيسبادن بشتو تغارت ، (1408هـ - 1988م)، ج 18 ، ص 141 .

(7) المصدر نفسه ، ص 140 .

(8) النويري، نهاية الأرب، ج23، ص375.

وثلاثين ومائتين) وهو ابن (اثنتين وستين سنة) [1] . وعني عبد الرحمن الأوسط بالمنشآت العامة أعظم عناية، فزاد في مسجد قرطبة الجامع بهوين جديدين من جانب القبلة، وأقـــام على عمّارته الفتى نصر[2] وفي هذا يقول عبد الله بن الشمر فيه:

بنـَـى مَسْـجِداً لله لَـمْ يَـكُ مثلـــهُ ولا مثلَهُ للهِ في الأرضِ مَسْجِدُ

سِوَى مَا ابتَنَى الرحمنُ وَالمَسْجِدَ الذَّي بَناه نبـيُّ المسـلمينَ مُحَمَّـدُ

لـَهُ عَمْـدٌ حُمْـرٌ وخُضْـرٌ كأَنَّمـا تَلوحُ يَوَاقيت بِها وزَبَـرْجَـدُ

ألا يـا أميـنَ الله، لا زلـتَ سـالماً ولا زَلت في كلِّ الأمورِ تسدّدُ

فيا ليَتْنَـا نفديـكَ مِـنْ كـلِّ حـَادِث وأنَّـكَ للدُّنيا وللدِّيـن تخلُـدُ[3]

ووضع نظاماً جديداً للسكة وجعلها أندلسية مستقلة، وأقام فيها ضرب الدراهم ، ولم يكن فيها دار ضرب منذ فتحها العرب ، وإنما كانوا يتعاملون بما يحمل إلـيهم مـن دراهم أهل المشرق[4] .

3-2-1 الحروب والغزوات

بدأ عبد الرحمن الأوسط برنامجه في الغزو والجهاد مبكراً[5]، ففي سنة (208هـ) جهـز جيشاً إلى بلاد المشركين واستعمل عليهم عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيـث[6]،فـسار الجيش إلى بلاد ألبة والقلاع فنهبوا وخربوا وأحرقوا وفتحوا حصوناً[7].

وفي سنة (210هـ) سيرّ عبد الرحمن سريّة كبيرة إلى بلاد الفرنج واستعمل عليهم عبد الله بن عبد الله البلنسي[8]فدخل بلادهم وتردّد فيها بالغارات والسبيّ والقتل والأسر،

(1) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج 18 ، ص 140.
(2) المصدر نفسه ، ص 467.
(3) المصدر نفسه ، ص 467.
(4) العمري ، مسالك الأبصار ، ج24، ص 467.
(5) عنان محمد عبد الله ، دولة الإسلام في الأندلس ، من الفتح إلى نهاية مملكة غرناطة ، العصر الأول ، ص249.
(6) النويري، نهاية الأرب، ج23، ص376.
(7) المصدر نفسه، ص376.
(8) المصدر نفسه، ص377.

فكان فتحاً عظيماً[1].

وتكررت الحملات العسكرية على بلاد العدو، في الأعوام التي حكم فيها الأمير عبد الرحمن بن الحكم، حتّى كان يخرج بنفسه في بعض هذه الحملات، عندما خرج في سنة (225هـ) في جيش كثيف فدخل بلاد جليقية وافتتح عدّة حصون منها وغنم وسبى وقتل، ثم عاد إلى قرطبة[2].

وبعد تلك الغزوات وجه عبد الرحمن نظره إلى الفرنجة، وبدأ إعداد حملة سيرها بقيادة عبد الكريم الحاجب إلى برشلونة حيث الثغر القوطي، الذي أقامه الفرنج مع حدود الدولة الإسلامية[3]، فأقام الجيش شهرين يحرقون[4] وينهبون، ثم أرسل عبد الرحمن إلى تلك النواحي حملة بقيادة موسى بن موسى، فلما كانوا بين أوشنة وشرطانية، تجمعت الروم عليهم وأحاطوا بهم وقاتلوهم الليل كله، فلما أصبحوا أنزل الله نصره على المسلمين وهزم عدوهم[5]، وقد حقق موسى انتصارات في كل المعارك التي صادقته مع الفرنجة[6] وجرت بينه وبين جرير بن موفق[7]، وهو من أكابر الدولة أيضاً فخرج موسى عن طاعته[8].

وفي بعض غزواته التي أثخن فيها أهل الخلاف ، وأمعن في زيادة الاختلاف ؛حتــى خشعت أعناق الأعداء لسيوف الأمير التي حصدتها ،وبقي القتل فيهم حتى دانوا لـــه،وهو وارد فيهم حياض الحتف؛ قال مؤمن بن سعيد[9] :

دعِ اللُّهـــى يفْنِهَـــا مُحَمَّـــدُها   أسَنّى بني غالبٍ وأمجدها
أشْـــياعٍ لــبَ سَـــنَابِلَ خَـــشَعتْ   أعْنَاقِهَا فالسّيوفُ تحصُدُها

(1) النويري، نهاية الأرب، ج23، ص377.
(2) المصدر نفسه ، ص381.
(3) الشعراوي، الأمويون أمراء الأندلس الأول، ص316-317.
(4) النويري، نهاية الأرب، ج23، ص377.
(5) المصدر نفسه، ص377.
(6)المصدر نفسه، ص381.
(7) الشعراوي، الأمويون أمراء الأندلس الأول، ص317.
(8) النويري، نهاية الأرب، ج23، ص381.
(9) العمري ، مسالك الأبصار ، ج24 ، ص 471.

دَانُــــوا لَـــــهُ وَهـــــو وَاردْ بِهْــــمُ   حيِاضَ حتف ٍ يعافُ مورُدها

3-2-2 أدب عبد الرحمن الأوسط

رغم اهتمام عبد الرحمن الأوسط بأمور دولته والقضاء على الفتن الداخلية التي نشبت بالبلاد، لم يغفل النواحي الأخرى، خصوصاً أنه كان شغوفاً بالعلم والأدب والفن، والفلك والتنجيم [1]. وكان أديباً حسن التثقيف مجيداً للنظم، نصيراً للعلوم والآداب، يحشد حوله جمهرة من أكابر العلماء والأدباء والشعراء، مثل عباس بن فرناس[2].
ويحيى الغزال[3]، وشاعره الخاص عبد الله بن الشمر، وعباس بن ناصح شاعر أبيه، وعبيد الله بن قرطان بن بدر [4].

وإلى جانب هذا كان عبد الرحمن يعشق الغناء والموسيقى، ويجمع حولــه عــدداً كبيراً من الفنانين، وعلى رأس من اشتهروا بهذا الفن في عهده، أبو الحسن علي بن نــافع الملقب بـــ (زرياب)[5] ، وولع بجاريته طروب، وكلف بها كلفاً شديداً، وهـــي التـــي بنـــى عليها الباب بيدر المال حين امتنعت عنه، وأعطاها حلياً قيمة مائة ألف دينار، فقيل له: إن

---

(1) الشعراوي، الأمويون لأمراء الأندلس الأول، ص280.

(2) هو فيلسوف وعلامة رياض من نوع فريد في بابه، ويرجح أنه من البربر وقد شغف بدراســة الفلــسفة والفلــك والكيمياء والصناعية، وهو أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة، وقــد حــاول أن يختــرع أداة للطيران، انظر الفقي ، عصام الدين عبدالرؤوف الفقّي ، تاريخ المغرب والأندلس ، الناشر ، مكتبة النهضة الشرق – جامعة القاهرة ، ص93.

(3) ينسب إلى بكر بن وائل، وأصله من مدينة جيان، ولقب بالغزال، لجماله وظرفه وتأنقه، وكان شاعراً جزلاً مطبوعاً، ونبغ في شعر الغزل، عالماً بالفلك والفلسفة وقد أكثر من التعرض للفقهاء، حتى سخطوا عليه، واتهموه بالكفر والإلحاد، انظر الفقي، تاريخ المغرب والأندلس ، ص93.

(4) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص263.

(5) هو: مغني عراقي فارسي الأصل ولقب بزرياب، وهي كلمة تطلق على طائر أسود حسن الــصوت، وشخــصية زرياب فريدة في يابها، وكان تلميذاً للموسيقي العراقي الكبير إسحاق الموصلي، وذكر أنه غنـــى أمـــام الخليفـــة العباسي هارون الرشيد فأعجب به، فخاف أستاذه أن يأخذ مكانه، فهدده وطلب منه الرحيل إلـــى أي بلـــد، فقـــرر الرحيل إلى الأندلس، فبلغها في سنة (207هـــ) في أوائل عهد عبد الرحمن بن الحكم، انظر: الفقي،تاريخ المغرب والأندلس، ص91-92.

مثل هذا لا ينبغي أن يخرج من خزانة الملك، فقال: إن لابسه أنفس، وأرفع قدراً، وأكـــرم جوهراً، وأشرف عنصراً؛ وفيها يقول [1] :

إذا ما بَدَت ليَ شَمْسُ النّها ... رِ طالعَةً ذكّرتنـــي طَرُوبــاً
أنا ابن الميامين من غالبٍ ... أشُبُّ حُرُوباً وأطفي حُرُوباً

ومن رقيق شعره في الغزل الذي كان ينم عن موهبة عظيمة ، وعاطفة جياشة اتجاه مـــن يحب ، نستشهد هنا بهذه الأبيات؛ يقول[2] :

وهل بَرَأ الرحمنُ مِـــنْ كـــلِّ بَـــرَا ... أقَـــرَّ لعينـــي مِـــنْ منعَّمـــة بكْـــرِ
تَرىَ الوردَ فوّقَ اليَاسَمِينَ بِخَـــدِّها ... كَمَا فوِّق الوردُ المنَّـــورَ بـــالزَهرِ
فلو أنَّني مَلَكْت قلبي ونَاظِـــري ... نظمتهْما منَّها على الجيدِ والنَّحْـــرِ

فالشاعر يشبه محبوبته بهذه الأبيات بأنها أفضل ما خلق الله عز وجل ، فالورد والياسمين تراهما بخدها ، وهذه الفتاة الجميلة قد ملكت قلب وناظر الشاعر.

ومن شعره في الغزل نستشهد أيضاً بهذه الأبيات؛ قال :

مـــــا تــــراه فـــــي اصـــــطباح ... وعقـــــود القطـــــر تنتثـــــر
ونـــــسيم الـــــروض يختـــــا ... ل علـــــى مـــــسك وعنبـــــر
كلمـــــا حـــــاول ســـــبقاً ... فهـــــو بالريحـــــان يعثـــــر
لا تكـــن شـــبهاً لـــه واســـــ ... ــبق فما فـــي الـــبطء تعـــذر[3]

يشبه الشاعر محبوبته بنسيم الروض الذي يختال بمشيه على المسك والعنبر ، كما أنها تعثر بالريحان كلما حاولت السبق ، فالشاعر يصبغ على محبوبتـــه بأجمـــل أنـــواع الورود ذوات الروائح الزكية .

---

(1) المقري، نفح الطيب، ج1، ص349.
(2) الصفدي ، ، الوافي بالوفيات، ج 18 ، ص140.
(3) المصدر نفسه ، ص 141.

وحكى أنّه فرّق في يوم فصدٍ له بدراً على من حضره، وعبيد الله بن قرلمان أحد خواصه غائب في باديته، فابتدر فوجد أمراً قد نفذ، فكتب إليه بأبيات، منها(1):

يا ملكاً حلَّ ذُرَى المجدِ   وعَمَّ بالإنعام والرِّفدِ
طُوبى لمن أسمعتَه دعوةً   في يومك المأنوسِ بالفصدِ
فظلَّ ذاكَ اليومَ مِن قصفهِ   مُستوطِناً في جَنَةِ الخُلّدِ

فوقع في أسفل كتابه: "من أثر التضجُّع فليرضَ بحظه من النوم!" فجاوب ابن قرلمان بأبيات أولها:

لا نمت إن كنتُ يا مولاي محروماً

فأمر بالصلة وردّ في جوابه(2):

لا غَروَ أنْ كنتَ ممنوعاً ومحروماً   إذ غبتَ عِناً وكان العرفُ مقسوماً
فلن ينال أمرؤٌ من حظه أملاً   حتى يشُدَّ على الإجهاد حيَزوما
فهناكَ مِنْ سبينا ما كنتَ تأمُله   إذ حُمتَ فوق رجاءِ الوردِ تحويمه

3-3 المعتمد بن عباد (3):

وكنيته أبو القاسم(4)،كان مولده بباجة سنة (431هـ)، وكان عمره حين ولى العرش ثلاثين سنة(5). ومع إطلالة اليوم الثاني من شهر جمادى الثاني عام (461هـ)، توفي المعتضد ابن عبّاد، هذا الرجل الذي عُرف عنهُ الهول والبطش والفتك بأعدائه دونما

(1) ابن الأبار، الحلة السيراء،ج2، ص118-119.
(2) المصدر نفسه، ص119.
(3) هو الـ معتمد على الله أبو القاسم محمد بن المعتضد بالله أبي عمرو عباد بن الظافر المؤيد بالله أبي القاسم محمد قاضي إشبيلية أبن أبي الوليد إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم اللخمي، من ولد النعمان بن المنذر اللخمي آخر ملوك الحيرة ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، م 3 ، ص 21.
(4) النويري، نهاية الأرب، ج23، ص452.
(5) المصدر نفسه ، ص452.

ر حمة وشفقة، وارتفع المعتمد بن عبّاد إلى سدة الملك، فوجد نفسه فوق عرش وطيد الأركان، مكين البنيان إلى حد بعيد[1].

وبعد فترة زمنية طويلة من حكم المعتمد لإشبيلية،وبعد ودخول يوسف بن تاشفين للأندلس والانتصار على النصارى في معركة الزلاقة الشهيرة وطردهم من الأندلس،عاد المعتمد وملوك الطوائف إلى ما كانوا عليه من تنازع وفرقه مما دفع ابن تاشفين إلى دخول الأندلس للمرة الثانية برغبة من أهلها لحمايتها من خطر النصارى.

ما أن جازت القوى المرابطية البحر للأرض الأندلسية، حتّى انتشر عقد ذلك النظام تحت الضربات الداخلية و الخارجية، وكان أولها غرناطة، وبعدها تلاحقت المقاطعة إثر الأخرى[2].

أمّا المعتمد ففي هذه الأثناء بدأ الشعور السيء ينتابه، فعاد لألتماس نصرة عدوه بيوم الزلاقة (الفونسو السادس) [3] ، وبعد أن يقن الفونسو بالخطر الذي يهدد الوطن المشترك (اسبانيا)، لهذا سارع الفونسو إلى إمداد المعتمد (بعشرين ألف مقاتل)، غير أن قوات المرابطين بقيادة سير بن أبي بكر[4] بعد أن سمع بمسير هذه القوة توجه للقاء الفرنج، وقابلهم وهزمهم ورجع إلى إشبيلية لمحاصرتها مع قوات يوسف بن تاشفين[5].

فحاصروا المعتمد في اشبيلية وضيقوا عليه، فقاتل المعتمد قتالاً شديداً، وأظهر من شجاعته وشدة بأسه وحسن دفاعه عن بلده ما لم يشاهد من غيره[6].

وأسر المعتمد معه أولاده الذكور والإناث، بعد أن استأصلوا جميع أقوامه وقيل إن المعتمد سلّم البلد بأمان، وكتب نسخة الأمان والعهد، واستخلفهم على نفسه وماله وعبيده وجميع ما يتعلق بهِ. فلما سلّم إليهم إشبيلية لم يفوا له[7].

---

(1) النويري، نهاية الأرب، ج23، ص452.

(2) مرعشلي نديم ، المعتمد بن عباد،بطل جسد مأساة الاندلس وشاعر غنى مجدها المفقود،دار الكتاب العربي، ص36.

(3) المصدر نفسه ، ص37.

(4) ضيا باشا، الأندلس الذاهبة، ص98-99.

(5) النويري، نهاية الأرب، ج23، ص459.

(6) المصدر نفسه،ص459.

(7) المصدر نفسه،ص459.

ثم سيرّوا إلى مدينة أغمات، فحبسوا بها، وفعل بهم أمير المسلمين أفعالاً قبيحة لم يفعلها أحد قبله، وبقى المعتمد في حبسه بأغمات إلى سنة (488هـ) فتوفى فيها، وقبره بأغمات[1].

ولما كان أول عيد بعد وفاة المعتمد وفد الشاعر أبو بحر بن عبد الصمد إلى أغمات لزيارة قبر المعتمد[2]وقد أورد صاحب القلائد أبيات أخرى من القصيدةغير التي وردت عند ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان وهي:

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أن تبدِّدَ أَدْمعُي ... نيرانَ حزنٍ أضرمَت بفُؤَادي

فإذا بدَمعي كُلَّما أَجْرَيْتُهُ ... زَادَتْ عَليَّ حرَارةُ الأَكبَادِ

فالعَينُ في التّسكَابِ والتَّهتُانِ والـ ... أَحشاءُ في الأحراقِ والإيقادِ

يا أَيَّها القَمَرُ المنُيرُ أهكذا ... يُمحَى ضِياءُ النَيِّرِ الوقَّادِ

أُفقدتُ عَني مُذ فَقَدْتُ إنارةً ... لحجابها في ظُلمةٍ وَسَوَادِ

مَا كَانَ ظَنّي قَبل موتِكَ أَن أَزُرْ ... قَبْراً يَضمُّ شَوامِخَ الأطوَادِ

الهضبةُ الشمَّاءُ تَحتَ ضَرِيحِهِ ... والبَحرُ ذو التَيّار والأزبادِ

عَهدي بمَلكٍ وَهو طَلَقٌ ضاحِكٌ ... مُتَهلِّكُ الصَّفحاتِ للقُصَّادِ

ولمالُ ذو شَملٍ مُزَادٍ والنَّدى ... يَهمي وَشَمْلُ المُلْكِ غَيْرُ مُزادِ

وهي قصيدة بنى بها اللواعج وشادها، فانحشد الناس وتحلقوا، وبكوا ببكائه وأعولوا، وأقاموا أكثر نهارهم مطيبفين به طواف الحجيج، مديمين البكاء والضجيج، ثم انصرفوا وقد نزفوا ماء عيونهم، وأقرحوا مآقيم بضيق شؤونهم. [3]

وقد أورد النويري أول ثلاثة أبيات من هذه القصيدة منسوبة إلى الشاعر ابن اللبانة وهي[4]:

مَلِكَ المُلُوكِ،أَسَامِعٌ فَأُنَادي ... أَمْ قَدْ عَدَتْكَ عَنِ السَّماع عَوَادِ؟

لما خلت مْنكَ القُصورُ فلَمْ تَكُنْ ... فيها كما قَدْ كُنْتَ في الأَعْيَادِ

(1) النويري، نهاية الأرب، ج23، ص460.

(2) أدهم ، المعتمد بن عبّاد، ص329.

(3) ابن خاقان، قلائد العقبان، ص107-108.

(4) النويري ، نهاية الأرب،ج23،ص464.

قَبَّلْتُ في هذا الثّرَى لكَ خَاضِعاً وَتَخَذْتُ قَبْرَكَ مَوْضِعَ الإنشْــادِ

وبعد التقصي والبحث في المصادر الأدبية تبين لي إن هذه الأبيات للشاعر ابن عبد الصمد وليس لابن اللبانة، وقد وردت عند (المقري[1]، وابن خاقان) منسوبة لابــن عبــد الصمد.

1-3-3 منزلته الأدبية:

كان المعتمد كأبيه وجده شاعراً صادقاً بكل ما توحي به هذه الكلمة من معانٍ، خلق ليقرض الشعر، ويطرب الإحساس بجماله. وكان شعره كالحلل المنتشرة، وقد اجتلب إليه من أعلاق الثناء، ونثر عليه من درر الحمد[2]، وكان المعتمد ذكي النفس، غزيــر الأدب، وهو من الشعراء القلائل الذين أعجب الناس بهم، فقد كان ينظم شعراً مثيراً[3].

ولعل أبدع شعر للمعتمد هو شعر محنته، فقد أذكت حياته المؤسية في أغمات شاعرية فصدرت عنه طائفة كبيرة من الأشعار تتميز بالتلهف على سابق مجده، وتعبر عن آلامه في المنفى وتفجعه لزوال سلطانه وانكباب صروف الدهر عليه، ومن شعره في محنته ما عبر فيه عما يدور في نفسه وما يقاسيه من الألم، فبعد أن كان ملك أصبح الآن أسير محروم من كل الملذات التي كان يتمتع بها سابقاً؛ وفي هذا يقول[4]:

غريبٌ بــأرضِ المغربيــن أسيرُ سيبكي عليه منيرٌ وسريرٌ
وتندُبُه البيضُ الصــوارمُ والقنــا وينهلَّ دمــعٌ بينهنَّ غزيــرُ
إذا قيل في أغمات قَدْ ماتَ جودُهُ فما يُرتجى للجودِ بعدُ نشورُ
مضى زمنٌ والملك مستأنسٌ بــهِ وأصبحَ عنه اليومَ وهو نفورُ

---

(1) ابن خاقان، قلائد العقبان، ص107-108.

(2) المعتمد بن عباد ، الديوان ،جمعه وحققه أحمد بدوي،حامد عبدالمجيد،أشرف عليه وراجعه حضرة صاحب المعالي طه حسين،وزارة المعارف العموميــة،الإدارة العامــة للثقافــة،إدارة نــشر التــراث القديم،المطبعــة الأميريــة بالقاهرة(1951م)، ص4.

(3) يكن، زهدي، المعتمد بن عباد وشعراء عصره، حققهوعلق حواشيه، محمد زهدي يكن، قدم له سامي نسيب مكارم، دار يكن للنشر بيروت ص37-38.

(4) ابن بسام،ابو الحسن علي بن بسام الشنتريني(543هــ) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،تحقيق إحسان عباس،دار الثقافة بيروت-لبنان، ق2، م1، ص75.

برأيِ مِــنْ الدهرِ المضلِّلِ فاســدٍ   متى صلُحَتْ للصالحين دهورُ

يشير المعتمد إلى أنه غريب بأرض المغرب وأسير،وسوف يبكي عليه المنبر والسرير في إشبيلية ،وتندبه السيوف الصوارم والقنا وتدرف الدموع على فراقه،ثم يقول بأن جوده قد مات بأغمات وليس هناك بعده جود،ثم يشير إلى حياته وهو على ملك إشبيلية مستأنس به،وهاهو اليوم يقبع في ظلمة السجن والأسر.

ومن شعره في أسره نستشهد أيضاً بهذه الأبيات؛ حيث يقول:

سلَّتْ علَّــي يــَدُ الخُطوب سُيوفَها   فَجَررن مِن جسدي الخصيف الأَمتُنا

ضرَبَتْ بها أيدي الضروب وإنما   ضربت رقابَ الأمنين بهــا المنــى

يا أملي العــادات مِــنْ نفحاتِنــا   كُفُّــوا فــإن الدهــر كَــفَّ أَكُفَّنــا[1]

يتحدث المعتمد في هذه الأبيات عن المصائب العظيمة التي حلت به،فيشبه الخطوب بالإنسان الذي يحمل السيف ويرفعه في وجه المعتمد ثم يجررنا هذه المصائب بـجسد المعتمد،ثم يتحدث عن الدهر الذي لا يستقر على حال ،فقد كف الدهر اكف المعتمد عن الحكم فأصبح أسيرا بعد أن كان ملكا.

ومن شعر الأسر عند المعتمد، الذي يعبر فيه الملك الأسير عن ضروب الذل والمهانة حتى وضعت القيود في رجليه، فيطربنا بوصف جميل لهذه القيود التي تلتف حول ساقيه وتنعطف مثل انعطاف الأرقم،الذي يساور فريسته بالغض بأنيابه حتى يقضي عليها،وان هذه القيود ما تزال تعمل في ساقي المعتد حتى تقضي عليه ،وهذه صورة جميلة يرسمها المعتد للقيد الذي بساقيه. فيقول[2]:

تَعطَّفَ مِنْ ساقي تَعطُّفَ أَرْقَمٍ   يساورها عَضًّا بأنياب ضيغم

وإنِّى مَن كانَ الرجالُ بسيبــِهِ   مِنْ سَيْفِهِ في جَنَّــةٍ وجهنــم

ومن شعره في الأسر وقد تعرض له أهل الكدية من الشعراء ، وألحوا عليــه فــي السؤال ، وهو على تلك الحال فرّد عليهم بأبيات، يعجب من هذا الــسؤال وهــو أســير، ويقول أنا أحق بالطلب منهم؛ حيث يقول:

سألوا اليسير من الأسير وإنّه   بسؤالهــم لأَحــقُّ منهم فاعجبِ

(1) النويري، نهاية الأرب، ج23، ص462.

(2) المصدر نفسه، ص462.

لولا الحياءُ وعِــزَّة لخميـــةٌ   طيٌّ الحشا لحكماهُم في المطلب[1]

وهكذا انتهت حياة بطل من أبطال الأندلس، وشاعرٌ من أعظم الشعراء.

3-4 ابن زيدون:[2]

كان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة ،وضرع أدبه ، وجاد شعره ، وعلا شأنه ثم انتقل عن قرطبة إلى المعتضد صاحب إشبيلية سنة إحدى وأربعين وأربعمائة فجعله من خواصه يجالسه في خلواته ، ويرتكن إلى إشاراته، وكان معه في صورة وزير. [3]

كان في الأندلس متيم ذلك الحي ، وعاشق ولادة لامي ، زاد على مجنون ليلى وقــيس لبنى، وإبن أبي ربيعة صاحب الثريا ، لا يغترف إلا من صبابته ،ولا تركه هواه ،أنحــف من قلم من نارعلى علم ، وله مع ولادة أخبار ما حكى مثلهــا إبــن أبــي عتيــق ، ولا الأصفهاني عن سكان وادي العقيق، أندى من نسيم الصباح ، وأرق من ريق الغوادي في ثغور الأقاح . [4]

وذكره الفتح فقال : بهر بنظامه ،وظهر كالبدر ليلة تمامه ، فجاء من القــول بــسحر، وقلد أبهى نحر،ولم يصرفه إلا بين ريحان وراح، ولم يطلعه إلا فــي ســماء مؤانــسات وأفراح. [5]

3-4-1 أدب ابن زيدون:

كان لولد الشاعر أصدقاء من ذوي المكانة الرفيعة والعلم الغزيــر، ومثــل هــؤلاء الرجال الأعلام جديرون أن يرعوا حقوق صديقهم الراحل في ابنه العزيز ، وأن يوالــوه بالرعاية و التثقيف ،ولهذا تهيأت لابن زيدون عوامل النبوغ من ثــروة مناســبة، وعقــول

---

(1) النويري، نهاية الأرب، ج23، ص462 .

(2) هو أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي القرطبي الشاعر المشهور ،كان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة،ثم انتقل عن قرطبة إلى إشبيلية وصاحبها المعتضد في سنة 441هـــ،وبقي فيها إلى وفاته سنة 463هـــ،انظر: ابن خاقان،قلائد العقيان،ج1،ص29 .

(3) العمري،مسالك الأبصار،ج8،ص261.

(4) المصدر نفسه ،ص260 .

(5) المصدر نفسه ،ص261.،

حانية حازمة ، وبيئة جميلة فتانة، وعصر مزدهر بالمدنية والحــضارة ، حافــل بأفــذاذ ا لعلماء والأدباء ، هذا فضلا عن الموهبة الفطرية والاستعداد الخصب والوراثة الــصالحة والتوجيه السديد .[1]

لقد أبدع إبن زيدون في أغلب موضوعات الشعر ،من مدح وغزل وهجاء ووصف والقارئ لديوانه يجد هذا الشيء واضحا ، وقد غلب عليــه حــب الــشاعرة ولادة بنــت المستكفي ، لهذا نسج فيها العديد من القصائد الغزلية التي تدل على حب عذب صــادق ، وعاطفة جياشة اتجاه من يحب وسوف ندرس في هذا الجزء ، الناحية الأدبية عنــد إبــن زيدون في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي .

والطبيعة الأندلسية الساحرة الخلابة أثرت في ابن زيدون إحساسا مشوبا وقلبا متفتحا وموهبة مواتية ، وقد ارتبطت هذه الطبيعة الخلابة الجميلة بكل ما تحويه من معالم الجمال بالحب عند إبن زيدون ، ولذلك نراه يربط بين الحب والطبيعة من خلال قصائد الغزليــة التي كان يبث فيها إحساسه وشوقه وحبه إلى ولادة بنت المستكفي، ومن هــذه القــصائد نستشهد بقصيدته التي كتبها إلى حبيبته ولادة من الزهراء[2]،حيث يربط الشاعر في هــذه الأبيات بين الطبيعة وحبيبته ، ويتذكر أيامه الحلوة العذبة مع محبوبته في مدينة الزهــراء الخلابة الجميلة ومن هذه القصيدة قوله: [3]

ولِلنّسيمِ اعْتِــــــلاَلٌ في أَصَــائلِهِ	كمــــا رَقَّ لي فاعْتَلَّ إشْفَــاقــا
وَالرَّوْضُ عَنْ مَائِه الفِضِّي مُبْتَسمٌ	كأَنَّما شَقَقْتَ عَنْ اللَّبَّاتِ أَطْوَاقــا
يومٌ كـــــأَيَّام لــذَّات لنَا انصرَمَتْ	بِتْنَا لها حينَ نَامَ الدَّهرُ سُــــرّاقا
لَوْ كانَ وفَّي المُنَى في جَمْعِنا بِكُم	لكانَ مِنْ أَكــرَمِ ألايَّامِ أَخْــــلاقَا
لَوْ شاءَ حَمَلَ نسيمُ الريحَ حينَ هفَا	وافاكُمُ بفتىً أَضنَـــــــاهُ ما لاقــا
والآن أوثقَ ماكُنَّـــــا نودكُـــــمُ	ســــــلوتم وبقينَــا نَحْنُ عُشَّــــاقَا

(1) ابن زيدون، الديوان ورسائله،شرح وتحقيق علي عبدالعظيم،دار نهضة مصر للطبع والنشر،الفجالة–القاهرة، ص24.

(2)انظر ابن زيدون، الديوان ،ص80، 82.

(3)العمري مسالك الأبصار،ج8،ص262.

ومن نظمه أيضا نستشهد بهذه الأبيات: (1)

وَلَيْلٍ أَدَمْنَا فِيه شُرْبَ مُدَامَـــــةٍ إلى أنْ بَدَا للصُّبْــْـح فِيهِ تَأْشِــيرً
وَجَاءَتْ بوادي الصُّبْحِ تَضْرِبُ في الدُّجىَ فَوَلَّتْ نُجُومُ اللَّيْلِ واللَّيْلِ مَــعْمُورُ
فَحُزْنَا منْ اللَّذَّاتِ أَطْيَبَ طِيــبِهَا ولَمْ يَعْرُنَا هَمٌّ ، وَلا عَـــاقَ تَكْدِيرُ
خَلا أَنَّهُ لَّوْ طَالَ دَامَتْ مَسَرَّتـــي وَلَكنْ ليَالي الوَصْلِ فيهِّن تقْصِــيرُ

ويصف الشاعر في هذه الأبيات الليلة الجميلة التي قضاها في إحدى جنان إشبيلية (2)، هذه الليلة التي قضاها قي شرب المدامة إلى أن بدا الصبح في الظهور ، إذ استمرت هذه الليلة الجميلة كما يقول الشاعر من بداية الليل إلى طلوع النهار ،وقد حاز الشاعر فيها الإستمتاع بأطيب اللذات ، ولم يعده أي هم ، ولم يعتقه أي تكدير ، ثم يتمنى الشاعر لو طالت هذه الليلة أكثر لدامت مسرته ، ولكن الليالي الجميلة الحلوة تكون قصيرة دائما .

ومن نظمه أيضا نستشهد بقوله: (3)

وَلَقَدْ شكَوْتُكِ بالضَّميرِ إلى الهَوَى وَدَعَوتُ مِنْ حَنَقٍ عَلَيْكِ فَأَمَّنَا
مَّنيت نفسي مِنْ صَفائِكَ ضَــلَّةً وَلَقَدْ تغُرُّ المْرءَ بارقةُ المُــنَى

ويشكو الشاعر في هذين البيتين من فراق المحبوبة له ، ويبث دعوته المظلومة اتجاه من يحب ، ويقول أشكوك بهذا الضمير المعذب ، الذي عشقك وأحبك كثيرا ، إلى الهوى ليس إلى شيئا أخر ، وقد منعت نفسي من عودتك وصفاء نفسك اتجاهي ، ولكن يغير الإنسان في أحيان كثير بارقة المنى والأمل ، والشاعر في البيتين يقصد الأمل في عودة محبوبته اليه .ومن نظمه أيضا نستشهد بهذه الأبيات: (4)

رَاحَــتْ يصـــحُ بِهَا السَّقِيمْ ريـــحٌ يعَطِّـــرها النَّسيمْ
مقْبـــوُلةٌ هبَّــتْ نسِيـــما فهـــي تعـــبقٌ بالشَّمــيمْ
إيـــــهٍ أيـــــا عبدِالكريمِ نــــداءَ مغــــلُوبِ الغَرِيمْ
ذكـــرى لعــــهدكَ كالسهادِ ســـرى فبــــرَّحَ بالسَّليمْ

(1) العمري مسالك الأبصار،ج8،ص263 .
(2) انظر ابن زيدون،الديوان ،ص245 .
(3)العمري مسالك الأبصار،ج8،ص262.
(4)المصدر نفسه،ص 262-263.

عهـــــد كما لـــوف الرضاع يشـــــوق ذكـــــراه الفطيمْ
أَيـــَّـامَ أَعْقِـــــدُ نَاظِـــريَّ بـــــذلكَ المرْأى الوَسـيمْ
اللهُ يعـــــــلَمُ أنَّ حُبَّـــــكَ مِنْ فـُــؤادِي في الصَّميمْ
إنَّ الَّـــذي قسَــمَ الحُظُوظَ حَبَـــاكَ بالخُـــلُقِ العَظيمْ
لا استـــزيدُ الله نُعمـــــى لي فَيـــكَ بَلْ أَسْتَـــدِيمْ

كتب الشاعر هذه الأبيات إلى صديقه يصف فيها أيامه ولياليه الحلوة في بلنسية معه ، عندما تحدث عن جمال هذه الأيام التي يصح من جمالها السقيم ، بهذه الريح الجميلة التي يعطرها النسيم ، هذه الريح ريح الصبا التي تهب من الشرق فهي تفوح بالنسيم العــذب ، يخاطب صديقه ، بقوله له هذا نداء مغلوب على أمره ، ويتذكر الشاعر صــديقة ، بــأن حنينه إلى ذكرياته العذبة ، وتثير هواجس ملحة في عقلة تكاد تدفعه من شدة الوجد إلـــى الجنون [1]،ثم يتذكر هذه الأيام الجميلة التي كان يعقد ناظره بمرأى صديقة الوسيم ، الذي حبه سكن صميم فؤاده ، ثم يقول إن الله عز وجل قد حباك بالخلق العظيم ، ثم يطلب من الله ان يستزيد حبه إلى صديقة .

ومن نظمه أيضا نستشهد بهذه الأبيات: [2]

وإنِّي لتَهانْي نُهـــــاي عَنْ التَّي أَشَارَبِهَا الواشي وَيَعْقُـــلني عَقْلي
أأنْقضُ فيكَ المَدْحَ منَ بَعْـــدِ قُوَّةٍ فلا أَقْتَدي إلا بَناقضَـــةِ الغَـــزْلِ
هي النَّعلُ زَلَّتْ بي فَهلْ أَنتَ مُكْذِبٌ لقيلِ الأَعَادي إنَّها زَلّـــةُ الحِسْـــلِ
أَلا إنَّ ظَنِّي بَيْنَ فِعْلَيْـــكَ وَاقِـــفٌ وُقُوفَ الهَوىَ بَيْنَ القَطِيَعةِ وَالوَصْلِ

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن مرارة الاعتقال ، ويقول أن عقلـــي بمنعـــي مـــن الإندفاع إلى الأخطاء التي اخترعها علي الوشاة ، ويقول أصل ما أبرمتـــه منـــك وكيـــف أهجوك بعد المدح فأكون مثل ناقضة الغزل الحمقاء ، ولقد زللت رغما عني ، فلا تستمع إلى قول الحساد إنها زلة خسيس لئيم ، وهو لهذا جدير بالعقاب ، ولقد وقفت مترقبـــا مـــا تفعله بي من عقاب القطيعة أو الوصل بأصفح الجميل [3] .

---

(1) انظر ابن زيدون، الديوان ،ص201، 202.
(2)العمري مسالك الأبصار،ج8،ص 263.
(3) انظر ابن زيدون، الديوان ،ص269 ، 270، 272.

ومن نظمه أيضا نستشهد بهذين البيتين: (1)

كأنَّنا لَمْ نَبتْ وَالوَصْلُ ثالثــــــنُا والدَّهرُ قَدْ غضَّ مُنْ أجفانِ واشِينا

سِرَّانِ في خاطرِ الظلماءِ يكتُــمنا حتّى يكادَ لسانُ الصـــبحِ يُفشِينا

فقد جعل من الوصل كائنا عاقلا يسعى في ضمها كما جعل من السعد حارسا امينا يطمس أبصار الوشاة ، وصور الظلماء ضميرا يسكنهما في أعماق أسراره ، وللصبح لسانا ثرثارا يفضح الأسرار(2).

ومن شعر ابن زيدون في النسب السائرالقريب الطيار المليح، الحفيف الروح ،نستشهد بهذه الأبيات: (3)

أمَّا رضـــاكَ فشــــيءٌ ماله ثُمــنُ لَوْ كانَ سامحني في مِلكهِ الزمـــنُ

تبكي فراقَكَ عينٌ أنتَ ناظـــرُها تدلجَّ في هجرِها عَنْ هجرِكَ الوَسَــنُ

إنَّ الزمانَ الذَّي عهدي بهِ حسَـــنٌ قَدْ حالَ مذْ غابَ عَنْي وجهُكَ الحسنُ

واللهِ ما ساءَني أنَّي جفِيتُ ضَنَـــىً بل ساءَني أنَّ سري في الهّوىَ عَلَنُ

لَوْ كانَ أمريَ في كتمِ الهَوىَ بيــدي ماكانَ يعلَم مُا في قلبــيَ البـَــدَنُ

وفي هذه الأبيات ينفضح سر الشاعر الذائع ، عندما يتحدث عن رضاء محبوبته فارضاءها شيء نفيس غالي الثمن عند الشاعر ، ولا يقدر بأغلى الأثمان ، ثم يبكي الشاعر بدموع حارقة على فراق المحبوبة بعين حزينة متألمة على مرارة الفراق ، ثم يتحدث عن أن زمانه قد أصبح غير سعيد عندما غاب وجه محبوبته العذب الجميل ، فيغير زمانه من السعادة والفرح بوجود المحبوبة ،إلى حزن وألم بفراق المحبوبة ، ثم يتحدث الشاعر عن سبب ما ساءه ، ليس الاساءة عند الشاعر كما وضحها في الأبيات بسب جفى المحبوبة عنه بل بسبب حبه العلني لمحبوبته ، ثم يوضح أن أمر كتم الهوى ليس بيده ، ولوكن بيده ، لما علم البدن ما في قلبه ، فالشاعر في الأبيات حزين متألم ، فتظهر عنده عاطفة صادقة جياشة اتجاه فراق محبوبته له.

---

(1)انظر ابن زيدون، الديوان ،ص263.

(2)انظر المصدر نفسه ،ص99.

(3)العمري مسالك الأبصار،ج8،ص263.

ومن نظمه أيضا نستشهد بهذه الأبيات: (1)

ياليـــــــــلُ طُـــلْ أو لا تَطُلْ لابُـــــدَّ لـــــــي ما أَسَهَــرَكْ
لَوْ بـــــاتَ عِنْدِي قَمَـــــرِي ما بـــِــتُّ أَرْعى قَمَـــــرَكْ
يا ليـــــــلُ طُلْ لا أشـــتَــهي إلا لَعهـــــــــدِ قَصَــــــدَكْ

يتحدث الشاعر في الأبيات عن تمرد محبوبته له ، ويناجي الشاعر هنا الليل ويقــول له ياليل إذا أردت أن تأتي أو لم ترد ، لابد وأن أسهرك معي ، وأخبرك عن تمرد حبيبي لي ، لتشاركني أحزاني وألامي ثم يخاطبه ، ويقول لو بات عندي قمري ، لما أتيت بالليل هنا أرعى قمرك في السماء وأخاطبه ، بل لخاطبت محبوبي ،فالشاعر في هــذه الأبيــات يجسد من الليل إنسان ويخاطبه ، ويبث له أحزانه وألامه ، على غدر الحبيب .

ولقد هجت ولادة بنت المستكفي إبن زيدون ، بقولها إن إبن زيدون على الــرغم مــن فضله إلا أنه يغتابني ويوسعني شتما وذما ولا ذنب لي ، ثم تقول في البيت الثاني إن إبــن زيدون إذا جئته يلحظني شزرا ، كأنني عندما آتي أخفى عليه . (2)

ما لابن زيــدون على فضلهِ يوسعِـــــنِي شَتْمـــًا ولاذَنْبَ لي
يلحظـــــني شزرًا إذا جِئْتــُهُ كأَنَّنَـــــي جِئْــــتُ ليخفِي علي

3– 5 ابن أبي الخصال (3):

نبغ ابن أبي الخصال في العلم والثقافة، فكان شاعراً، وناثرا، وله العديد مــن القــصائد الشعرية والرسائل والكتابات النثرية، وبرع في الكتابة في عصر المرابطين في الأندلس كمــا مر سابقاً، حيث كان كاتباً لأمير المرابطين يوسف بن تاشفين.

3–5–1 أدب ابن أبي الخصال:–

برع ابن أبي الخصال في الأدب في عصر المرابطين، حيث كان كاتباً للأمير

(1)العمري مسالك الأبصار،ج8،ص 263.

(2)المصدر نفسه،ص260.

(3)المصدر نفسه،ص260.

(يوسف بن تاشفين)، ولابنه في مراحل لاحقة[1]. وقبل البدء بالحديث عن الحياة الأدبيــة عند ابن أبي الخصال، لا بد من إلقاء نظرة موجزة على العصر الذي عاش فيه (ابن أبي الخصال) ، عصر المرابطين، وكيف أثر هذا العصر من خلال الأحداث التي حصلت على الحياة الأدبية.

تميزت هذه الحقبة من الزمن (عصر المرابطين) بالانتصارات والفتوحات الــساحقة كما تقدم حيث ركز علي بن تاشفين على الغارات والغزوات المتتالية علــى (طليطلــة)، وانعكست هذه الأحداث على عصر ابن أبي الخصال فكرياً واجتماعياً، وســاعدت هــذه الأحداث على ازدهار الحركة الفكرية والأدبية في ظل دولة المرابطين، فنضجت صــورة الأدب ا لأندلسي، وبلغت مرحلة من التطورات؛ ساعدت على إنتاج نماذج أدبية يفخر بهــا هذا العصر[2].

شارك ابن أبي الخصال في فنون النثر الشائعة فــي زمانــه، فكتــب فــي أغلــب الموضوعات النثرية، وجاءت رسائله متنوعة بين الرسائل السلطانية، والأخوية، كما كتب في الرسائل الزرزورية[3]، وألف في المقامــات، وأنــشأ الخطــب، وعــارض رســائل المعري،كما حظيت رسائل ابن أبي الخصال بعناية واسعة في زمانه، وبعناية أجيال جاءت

---

(1) انظر المراكشي،عبد الواحد ،المعجب في تلخيص اخبار المغرب من لدن فتح الاندلس الى اخر عصر الموحدين مع مل يتصل بتاريخ هذه الفترة من اخبار الشعراء ،ص173.

(2) قارة حياة ، رسائل جديدة لأبي عبد الله ابن أبي الخصال ، كلية الآداب، فاس – المغرب، بحث منشور في مجلــة دراسات أندلسية ، سنة (1995م)، العدد(13 – 14) ، ص 58.

(3) هي رسائل تبادلها عدد من كتاب الأندلس في زمان المؤلف، وأصلها لمحة عابرة في رسالة لأبــي الحــسين بــن سراج أحد كتاب الأندلس يشفع فيها لرجل لقبه (الزر زور)، وأدار الحديث وكأنه عن زر زور؛ واستعار ما يليق به من الريش والطيران والفراخ..... ، وشارك في هذا النوع من الرسائل أبو القاسم بن الجد وابن أبي الخــصال وغيرهم، وحاول كل واحد من الكتّاب أن يتناول معالجة الرسالة الزرزورية بأسلوبه ومنهجه، انظر ابــن أبــي الخصال، الكاتب الفقيه ابي عبدالله بن ابي الخصال الغافقي الاندلسي ،ت (540هــ) ، رسائل ابن ابي الخــصال ،تحقيق محمد رضوان الداية ، دار الفكر ، دمشق ــ سوريا ، الطبعة الاولة ص 13.

بعده، فقد كان الكتاب والمتدرجون في الخدمة السلطانية يقرؤون رسائله، ويقلدونها[1]، وكان بعض الخطباء يخطبون بها[2].

وسندرس هنا الكتابة عند أبي الخصال بشقيها (الكتابة الديوانية (السلطانية) والإخوانية، ولن ندرس كل الرسائل سواء كانت الديوانية أو الإخوانية بل سنأخذ نماذج نتعرف من خلالها على موضوعات هذه الرسائل والصور الجمالية فيها، والتعرف على موهبته وبراعته في الكتابة، حتى أطلق عليه اسم أول كاتب بالأندلس، وقد جعله القلقشندي في (صبح الأعشى) أنموذجا لكتاب العصر الأندلسي، مع بعض الكتاب الآخرين، وأورد له العديد من الرسائل في موسوعته (صبح الأعشى).

رسائله السلطانية (الديوانية)

أبدع أبو عبد الله ابن أبي الخصال في نسجه لرسائله السلطانية، بالترسيل البديع الذي انفرد به قلم ابن أبي الخصال، وامتزجت به طلاوة الكلمة الشعرية ببيان العبارة النثرية، واستطاع أن يكشف من خلال هذا التزاوج عن صور بلاغية تشهد له بالكمال[3]، وقد أتيت من كلامه ما يدل على نبله وأدبه[4].

ونحن في صدد الحديث عن رسائله السلطانية لا بد من الاستشهاد بنماذج من هذه الرسائل، التي كان يبعثها إلى أمراء المرابطين، ومن هذه الرسائل رسالة تهنئة بقدوم وزير، أوردها القلقشندي في (صبح الأعشى)؛ يقول فيها:-

"سرّ الله مولاي ورئيسي، وربّ تشريفي وأنيسي، بلقاء الأحباب، واتصال الأسباب، وأوبة الغياب، ولا زالت الأيام تتصنع لإقباله ، وتقبله أوجه العزّ في اقتباله؛ وتوفيه على رغم الحاسد حقَّ جلاله.

---

(1) ابن ابي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، 16.

(2) المصدر نفسه، ص 15.

(3) قارة ، رسائل جديدة لأبي عبد الله ابن أبي الخصال، ص 62.

(4) ابن بسام، الذخيرة ق 3، م2 ، ص 787.

البشرى – أدام الله اعتزازه – بمقدم الوزير فلان قد أوضعت ركابها، واتصل بالنفوس أعلاقها وأسبابها؛ فهنيئاً معشر الأولياء بسبوغ هذه النعمة الجليلة،والمنحة الجزيلة؛ ولا استوفى شكر ما به أتى معظم قدره، وملتزم بره؛ من ثناء كعرف الطيب يهدي، ومذهب في الإنهاض لا يقضي واجبه ولا يؤدى؛ ولا زالت حياة مولاي تفدى، وأفعال بر تتعدى؛ وقد لثمت مواقع أنامله وداً.

ووردت من محاسن بيانه منهلاً عذباً [ووردا] فامتعني الله بحياته العزيزة الأيام، الطيبة الإمام، الموصولة العهد والذمام، وأقرأ على سيدي من سلامي ما يلثم يده، ويقضي حق اليراع [الذي] أنشأ به البر وولده، والسلام المعاد عليه وعلى جملته ورحمة الله وبركاته"(1).

يبدأ ابن أبي الخصال كتابه بالدعاء إلى سيده ومولاه بسرور بلقاء الأحباب ، واتصال الأسباب ، وعودة الغياب ، ثم يطلب البشرى من سيده بمقدم الوزير فلان ، ومهنيئا مولاه بسبوغ هذه النعمة الجليلة ، والمنحة الجزيلة بقدوم الوزير،ويصبغ ابن أبي الخصال على الوزير بصبغة الوالي لأمر، ويعدد صفاته الطيبة التي يتحلى بها هذا الوزير من النباهة والعلم، والطيب، والكرم، وينهي كلامه بتحميله سلامه إلى سيده ،وتقبيل يده اعترافاً منه بجميل صنيع سيده عليه.

ومن رسائل ابن أبي الخصال ،أيضا رسالة كتبها في الأخبار عن زلزلة عظيمة وقعت بمدينة قرطبة من الأندلس؛ يقول فيها:

"الشيخ الأجل، الولي الأكرم الأفضل، أبو فلان ، الذي أطرفه الله تعالى بعجائب الأخبار، وأذهب به مسلك الاتعاظ ومنهج الأذكار، أبقاه الله آخذاً في سنين الانزعاج ونهج الازدجار. المخلص له المحض الناصع من الولاء ومعرفة غريب الآثار وعجيب الأنباء؛ فلان

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9،ص35 – 36.

أما بعد حمد لله الذي جعل عبره أنواعاً متلونة وصنوفاً، وأرسل الآيات أو ما نرسل بالآيات إلاّ تخويفاً). والصلاة على سيدنا محمد المصطفى صلاة طيبة تعبق تأريجا وتضوع تعريفا ؛ وعلى آله وأصحابه الطاهرين الذين حضروا حروبا وشهدوا زحوفا، والدعاء لسيدنا الإمام أمير المؤمنين في نصر عزيز يونس مذعورا ويؤمن مخوفا، فإني كتبته – كتب الله لكم دعة حافظة وأمانا ، وتصديقا بآيات الله البينة وبرهانا – من موضع كذا ، عندما طرأ علينا ما كحل العيون بقذاها ، ومنعها لذيذ كراها ، واخفق الضلوع الحانية واقلق مصارين حشاها : وهو أن الله عز وجل ذكر عباده إن نفعت الذكرى ، ونبهم إن تتبهوا ولم يأمنوا منه كيدا مبيراً ولا مكراً؛ وذلك بزلزال قضى به على قرطبة وبعض أعمالها، ملأ نفوس ساكنيها من روعاتها واوجالها ؛ وحالت لذلك في الخوف والارتفاع أقبح حالها،؛ حتى نحو إلى الاستكانة والضراعة، وأطاع الله من لم يكن له قبل ذلك طاعة؛ وخشوا بل كانوا يوقنون أنها زلزلة الساعة ....وكان من عظيم آثارها ، وكريه إيرادها وإصدارها ، انهدام القبة العظمى في المسجد الجامع صانه الله ، وكانت قبة أسس على التقوى بناؤها ، وذهب في المشارق والمغارب ذكرها العاطر وثناؤها ؛ وتهدمت بسبب ذلك الهدم ديار كثيرة ، وحدث به حوادث مبيرة . وإما تلوكة من أعمالها ، وكان فيها مبنى من مباني الروم ، فانه غادرها قاعا صفصفا ، واضطر ذلك الخطب الفادح ، والريح القادح ، إلى أن اخرج السيد أبو إسحاق وكافة أهل قرطبة من ديارهم ،وفروا من الموت بأقواتهم وأصحابهم .

ثم إنّ الله عز وجل تدارك بالرحمى، وكشف تلك الغمى، جعل الله ذلك صقلاً لقلوبنا، وتوبة عما سبق من ذنوبنا؛ وعصمنا من جرمنا الموبق وحوبنا، وأولادنا وإياكم أمنا من الغير، وازدجاراً بما ظهر من العبر وجعل كلانا جميل الحوادث طيب الخبر، بمنة؛ والسلام الطيب المبارك ورحمة الله وبركاته"[1].

بدأ ابن أبي الخصال رسالته بالدعاء إلى الوالي الأكرم والأفضل الذي أطرفه الله بعجائب الإخبار ، بالبقاء في سنين الانزعاج ونهج الازدجار ، المحب إلى معرفة غريب الآثار وعجيب الإنباء ، ثم يذكر اسمه بالرسالة ، وبعد هذا الإسهاب بالدعاء ، يبدأ الرسالة

1 – القلقشندى، صبح الأعشى، ج9، ص 222– 223.

بالسلام وحمد الله عز وجل على جميع الأمور ، وهو الذي يرسل الآيـــات تخويفـــا ، ثـــم يصل على النبي صلاة طيبة وعلى آله الطاهرين ، ثم يدعو إلى أمير المؤمنين بالنـــصر العزيز الذي يؤنس المذعور ، ويؤمن المخوف ، ثم يتحدث عن مضمون الرسالة ، وهـــو أن قرطبة قد اصيبة بزلزال قضى عليها وعلى بعض أعمالها ، وما حل بأهلها من الخوف والهلاك حتى ظنوا أنها زلزلة الساعة ، ثم يبين في رسالته أضرار هذا الزلزال من انهدام القبة العظيمة في المسجد الجامع ، وانهدام ديار كثيرة ، حتى اضطر أهل قرطبة والـــسيد إسحاق إلى الحروج منها ، وفي نهاية الرسالة يخبره بأن الله قد أزال الغمة ، ويتمنـــى أن يجعل ذلك صقلا لقلوبنا ، وتوبة عما سيق من ذنوبنا ، ثم يدعوا الله أن يعصمنا من الجرم الموبق ، ثم يختتم الرسالة بالسلام .

الكتابة الإخوانية:-

لقد دارت بين أبي الخصال وإخوانه العديد من الرسائل، التي تـــدل علـــى المـــودة والمحبة ، وجاءت هذه الرسائل في أجمل حلة، وأبدع صور، ولم تقـــل هـــذه المكاتبـــات الأخوية عند ابن أبي الخصال عن مكاتباته السلطانية، من قوة العبارة واختيـــار الألفـــاظ بعناية، وإظهار براعته الفنية.

ومن هذه المكاتبات الإخوادية، نستشهد برسالة كتب بها إلى أحـــد الـــوزراء مـــن أصدقائه يخبره بوصول رسالته الجوابية على رسالة سابقة كان ابن الخصال قد بعث بهـــا إليه ، يبدأ الرسالة بالدعاء إلى الوزير بأن يطيل الله بقاءه ، ثم يتحدث عن صفاته الحميدة والحسنه ، فهو الفقيه الأفضل ، وارث المجد والسؤدد الأعـــز ، المنقطـــع فـــي المكـــارم والمآثر ، ثم يخبره بان لسانه يقصر عن الإتيان بالعبارات التي تستوفي حقه ، ثم يخبـــره بان كتابه قد وصله وهو يحوي بين طياته الوفاء ظاهرا وباطنا و وهو أمان مـــن الـــدهر وضمان للحياة وطيبها ، ثم يعتذر منه عن سبب تأخره في الرد على كتابه ؛ يقول فيها:

" أطال الله بقاء الوزير الأجل الفقيه الأفضل، وارث المجد الموثّل والسؤدد الأغر المحجل، المتلقي لكل مأثرة باليمين، المتقطع في المكارم والمآثر عـــن القـــرين. ولا زال فصيح مغاني المجد، مذلل مجاني الحمد .

الشكر _ أدام الله عزك – ينذر، واللسان يقصر، والعبارة عمـا أجـده مـن ودك واعتمده من توفيه حقك لا تحضر وو افاني الكتاب الكريم الذي فات البلقاء لفظاً ومعنـى، وتضمنت الوفاء ظهراً وبطناً .لا جرم! إنه من الدهر أمان وللحيـاة وطيبهـا ضـمان .. ورأيت في تأخر المراجعة العذر لائحاً ونشر الصدق صائكاً فاتحاً، ولعمر لله ما ارتبـت في ذلك بريب، ولا حدثت نفسي إلا أجمل ظن وأحسن غيب.....

وما قدمته... وصل الله تقديمك – من ذكر في ذلك البساط فقلادة المناط وسمة يبقى شرطها إلى الاشراط...".

ومن رسائل ابن أبي الخصال أيضا نستشهد بقوله في المداعبة وقد أورد القلقشندي معنى المداعبة، نقلاً عن (مواد البيان)؛ حيث يقول :–

"ومعاني المداعبات التي يستعملها الإخوان غير متناهية، والأغراض التي ينتظمها المزاح وتعدُّ من طلاقة النفس ولا تقف عند قاصية: لأنها مستملاة من أحوال متباينة، ومـأخوذة من أمور غير معنية... ثم يقول : والأحسن بأهل الوداد والصفاء، الأليق بذوي المخالصة والوفاء؛ أن يتنزهوا في المداعبة الدائر ة بينهم عن بذيء اللفظ ومفحشة، ومؤلم الخطـاب ومقذعة، ويكفوا اللسان واليد عن الانطلاق بما يدل على خفة الأحلام، والرضا بالرذل من الكلام اللائق بسفهاء العوام؛ ويتحرجوا من إرسال قول "يبقى وصمة على [مدى الأيام] إذ لا فرق بين جرح اللسان وجرح اليد..." (1).

يتحدث ابن أبي الخصال عن معاني المداعبة التي لا تحصى فهـي كثيـرة جـدا ، وان الإغراض التي يتضمنها المزاح تعد من طلاقة النفس ولا تقف عند حد معـين ، ويرجـع أسباب ذلك إلى أنها مستملاة من أحوال مختلفة ، ثم يبين الصفات التي يجـب أن تكـون عليها المداعبة ، فتكون بعيدة عن بذيء اللفظ ومفحشة ، ومؤلم الخطـاب ومقذعـة، وان يكفوا اللسان واليد عن الانطلاق بما يدل على خفة العقول ، ويجب أن تكون بعيـدة عـن الكلام الرذل ، الذي يبقى وصمة عار على مدى الأيام ، فلا فرق بين جرح اللسان وجرح اليد فكلاهما واحد يبقى اثره على مدى الايام ، وفد يورث البغضاء والتنافر

(1) القلقشندى ، صبح الأعشى، ج9 ، ص 225.

ومن رسائل المداعبة التي صدرت عن ابن أبي الخصال التي تحتوي على قوة العبارة، وجزالة اللفظ، وروح المداعبة والفكاهة، وقوله:

"سيدي وواحدي الذي أجمل ذكره ، وأولى شكره؛ لا زال مغناك رحيباً، وزمانك خصيباً؛ ولا زالت تأخذ لأخراك نصيباً؛ عبدك فلان مؤديها ينتجع الكرام، ويباري في جريها الأيام: فتارة يجمع، وأخرى يفرق وطوراً يغرب وطوراً يشرق؛ وأم الحضرة – وصل الله حراستها، وأدام بهجتها ونفاستها – والملك بها غض الشباب، أخضر الجلباب؛ وإحسانك إحسانك، ومكانك من المروءة مكانك؛ فأوسعه قرى، وأملأ عينيه على الشبع كرى، استغفر الله بل أمجده تبناً وعلفاً ، وأركبه حزناً من الأرض ظلفاً؛ ودونكه لم يقلب أرضه بيطار، ولا الجناية به جبار، وجرحه جبار؛ وعنده كما علمت دعاء مباح ، وثناء في الشكر مساءً وصباح؛ والسلام"(1).

بدأ ابن أبي الخصال رسالة المداعبة بالدعاء إلى سيده ، فهو ما زال مغناه رحيبا ، وزمانه خصيبا ، ثم يذكر اسمه ، ثم يوضح انه ينتجع فيها الكرام ويباري في جريها الأيام فتارة يجمع وأخرى يفرق وطورا يغرب وطورا يشرق ، ثم يتحدث عن حضرة الملك التي هي غض الشباب ، اخضر الجلباب ، فهو مازال يحسن إلى الناس ، ومكانه من المروءة كما كان ، وفي نهاية الرسالة تبدأ كلمات المداعبة الموجه إلى سيده ، والتي تظهر فيها روح المزاح الخالية من الكلمات البذيئة والفاحشة حيث يقول " ملأ عينه الشبع كرى ، واستغفر الله بل أمجده تبنا وعلفا ، واركبه حزنا من الأرض ظلفا ..."

ومن رسائله الأخوية، رسالة بعث بها إلى صديق له حالت دون زيارته موانع ، بدأ ابن أبي الخصال رسالته بالدعاء للفقيه بطول البقاء من الله عز وجل في القدر الرفيع النبيل ، والمجد الأصيل ، وبعد هذا الإسهاب بالدعاء يتحدث عن الأسباب والموانع التي منعته من زيارته ، فقد حالة دون لقائه يد البين ، ثم يختتم الرسالة بحديثه عن صفاته وآدابه الكريمة ، ويدعو له بالنشاط الدائم والانبساط الحسن من الله عز وجل ؛ يقول فيها:

---

(1) القلقشندى ، صبح الأعشى، ج9 ، ص 277.

" أطال الله بقاء الفقيه الجلي، في القدر الرفيع النبيل، والمجد الأصيل الأثيل؛ ولا زال أمله مستقلاً، ومحله منيعاً مطلاً ما كل من احتجب عن العين، وحالت دون لقائه يد البين؛ يحتجب عن الضمير، ويخفى مدى صوته الشهير؛ كلا إن القلب يليه وان السمع يجتليه. رب مزنة حرمناها نظراً، وشهدناها أثراً، سحت مطراً، ولاحت روضاً يانعاً وزهراً .. وهذه – دام الله عزك – حال المحصور، وجهد الممنوع المقصور؛ ولعل وجه قربك يجلو، وسند دنوك يعلو فأخذ حديث المجد عنك، واتلقى القول غريضا فيك وفي دون ما هو إلى المفاتحة على ما فيها من مقام هائل، وخطر دون الوطن حائل؛ تتضى المطي وتعتقل الصبيّ، وينتشر العزم المطوي؛ فخبر خطا الساعين، وأهدى سبل المتبعين خطاً يتعلق البر بأذيالها، وتبل رسم الإيمان ببلالها ... ولولا ما تؤثره من كرم الآداب، لأعفيتك من الجواب؛ لكنه أقرأنا مراقبه، وفي سبيل الله صدوره وعواقبه؛ فرأيك في النشاط وحسن الانبساط؛ إن شاء الله"[1].

خطب ابن أبي الخصال:-

وهناك العديد من الخطب لأبن أبي الخصال، لا تقل أهمية عن كتاباته سواء السلطانية أو الإخوانية، ومن خطبه ، نستشهد هنا بخطبته المنبرية كما يقول عنها (محمد الداية في رسائل ابن أبي الخصال) [2]، ولا بد هنا من الإشارة إلى مقطوعات من هذه الخطبة، التي وردت حول الشكر على نزول المطر بعد ما انحبس، وأجدبت الأرض، يقول منها:-" الحمد لله الذي لا يكشف السوء سواه، ولا يدعو المضطر إلا إياه، ننزل فقرنا بغناه، ونعوذ من سخطه برضاه، ونستغفره من ذنوبنا: (ومن يغفر الذنوب إلاّ الله) ،واشهد إن لا اله إلا الله وحده لا شريك له الها على فاقتدر،وأورد عباده واصدر،وبسط الرزق وقدر؛ واشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي بشر وانذر،ورغب وحذر؛وغلب البشرى على الإقناط،ودل على الصراط،وأشار إلى الساعة بالاشرط،ولم يأل أمته في الذب والاحتياط،صلى الله عليه وعلى الوزراء الخلفاء،البررة الأتقياء،والأشداء الرحما،والأصحاب الزعما،صلاة تملأ ما بين الأرض والسماء،وتوافيهم في كل الاوقات

(1) ابن ابي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال ، ص 131 – 123.

(2) المصدر نفسه، ص 272.

والانا،وتضع ألتناء موضع النسا. ولما لقحت حرب الجـدب عـن حيـال، وأشـفق رب الصريحة والعيال، وتنادى الجيران للتفرق والزّيال، وتناوحت في الهبوب ريحها الجنوب والشمال، وتراوحت على القلوب راحتا اليمين والشمال؛ وأحضرت أنفس الأغنياء الـشَّح، وودّوا أن لا تنشأ مزنة ولا تسحّ؛ وتوهم خازن البر، أن صاعه يعدل صاع الّـدرْ؛وخفت الازواد،وماجت الأرض والتقت الرواد؛وانتزعت العازب القصي،فالقت العصي ،وصدرت بحسراتها،وقد اسلمت حزراتها؛وأصبحت كل قنة فدعاء،وهضب درعاء؛(صفاه وهنا ونقبا وهنا) ؛ والصبح في كل أفق قطر أو قطا،والأرض كلها سيف ونطع؛والشعر يـشمر ذيلـه للنفاق،ويضمر خيله للسباق؛وجاء الجد وراح الهزل، وقلنـا: هـذه الـشدّة هـذه الأزل؛ للمرجفين في المدينة عجاجة ظنّوها لا تلبد وقسى نحو الغيوب تعطف وتلبـد.. حتـى إذا عقدوا الأيمان، وأخذوا بزعمهم الأمان؛ وقالوا لا يطمع في الغيث، وزحل في الليث؛ فـإذا فارق الأسد، لكد ما أفسد :

تَحرِّصاً وأحَاديِثاً مُلّفقَةً   لَيسَتْ بنْبعٍ إذا عُدتْ ولا غَرَبِ !

وأنشأ الله العنان، وقال له: كن فكان؛ فبينما النجوم دراريها الأعلام، وإغفالها التي لا تحمد عندهم ولا تلام؛ قد اختلط مرعاها بالهمل، ولم تدر السدة بالحمل؛ ولا علم الجدلى بالرئبال... فيا أيها المؤمن بالكواكب ، أنظر إلى الديم السواكب، واسبح في لجج سيولها، وارتح في ممر ذيولها؛ وسبح باسم ربك العظيم الذي قذف بالحق على الباطـل، وأعـاد الحلى إلى العاطل؛ فبرود الظواهر مخضرة، وثغور الأزاهر مفترة؛ ومـسرات النفـوس منتشرة، والدنيا ضاحكة مستبشرة... ومن عرار تغنى مطالعة على غرار، وكلفـت بـه السواري والغوادي كلف عمرو بعرار؛ فجاء كسوالف الغيد ترف، وكوميض الثغور يعبق ويشف.

فشكراً لربنا شكراً، سحقاً للذين بدلوا نعمة الله كفرا؛ اللهم بارىء النـسم، ودارىء القسم، وناشر الرحمة والنعم، ومنزل الديم، وباعث الرميم، ومحي الأمـم؛ فإنـا نـؤمن بقدرك: خيره وشره، ونطوي غيثك على غره، ولا نتعرض لنشره حتى تأذن بنـشره...، تباركت وتعاليت، وأمت الحي وأحييت الميت؛ لا هادي لمن أضـللت ولا مـضل لمـن

هديت، فاكفنا فيمن كفيت ، وتولنا فيمن توليت، انك تقضي ولا يقضى عليك، ونقرأ:(ألم تَرَ أنّ الله أنزلَ مِنْ السماءِ ماءً فتصبحُ الأرضُ مخضرةَ)[1]".

بدأ ابن أبي الخصال خطبته بحمد الله وشكره ، فهو القادر على كشف السوء ،المجيب لدعاء المضطر إذا دعاه، ويعوذ من سخطه برضاه، يستغفره من ذنوبه، ثم يضمن الخطبة الآيات القرآنية التي تدل على مدى بلاغة الرسالة وقوة ألفاظها ومعانيها، لأنها جاءت في حالة خطيرة وطارئة وهي انحباس المطر حتى أجدبت الأرض، فأصبحت قاحلة قفرة بعد أن كانت مخضرة، وقد أصبح الأغنياء يتمنون أن لا ينشأ الله مزنه ولا تسح، وأصبح صاع البر عند خازنه يعدل صاع الدر ، وقد خفت الازواد و قل الطعام؛ نتيجة قلة الأمطار وجدب الأرض، حتى أيقن الناس أن لا مجال لنزول المطر ، وهمه على تلك الحالة اليأسة من عدم نزول المطر ، جاء فرج الله عز وجل، ونعمته على عباده الأبرار الصادقين الموقنيين بقدرة الله على كل شيء، فأنشأ الله العنان وقال له كن فكان، فتبدل حال الأرض من القفر إلى النماء والاخضرار من جديد، فأصبح الخير الوفير.

يطلب ابن أبي الخصال من المؤمنين أن يسبحوا باسم ربهم العظيم الذي قذف بالحق على الباطل، وأعاد الحلي إلى العاطل، فأصبحت برود الظواهر مخضرة، وثغور الازاهر مفترة، وأصبحت النفوس مستبشرة والدنيا ضاحكة، وأصبحت أغصان الشجر مائلة والنيل لأهل الثناء والخيرات، والويل لأهل الأقوال المنكرات، فأعاد الغيث للأرض نضارتها فالنرجس ترنو الرواني بأحداقه، ويود المسك نفحة انتشاقه، ويحسد السندس خضرة ساقه، وأعاد الغيث للروض والبساتين رونقهما، واختتم ابن أبي الخصال خطبته بشكر الله تعالى على نعمه الوفيرة ، من بعثه للغيث بعد انحباسه، فأحيا به الأرض بعد موتها فأصبحت مخضرة.

3-6 لسان الدين ابن الخطيب :-

كان القرن الثامن الهجري في مملكة غرناطة بالنسبة لدولة التفكير والأدب، عصر النضج والازدهار، وفيه ظهرت طائفة من أكابر المفكرين والكتّاب والشعراء، الذين

---

(1) القلقشندى، صبح الأعشى، ج14، ص 263 – 266.

أعادوا روعة الأدب الأندلسي في أعظم عصوره، أمثال (ابـــن خاتمـــة شـــاعر المريـــة، والوزير ابن الحكيم اللخمي، والوزير ابن الجياب والوزير ابن الخطيب، والـــوزير ابـــن زمرك[1] ، تلميذ ابن الخطيب والمدبر الرئيسي لمحنة ابن الخطيب وقتله بعد أن طمع فـــي الوزارة، فأخذ يدبر المكائد من أجل إيقاع الخلاف بين ابن الخطيب والغنـــي بـــالله، وقـــد استطاع بمساعدة القاضي النباهي من إبعاد ابن الخطيب وهربه إلى المغرب، بعد أن كان ابن الخطيب وراء كل ما وصل إليه القاضي من مناصب في الدول[2]ة، زخـــرت دولـــة التفكير والأدب بآثار هم التي انتهى إلينا منها الكثير، وخصوصا مؤلفات ابن الخطيب، التي جاءت منوعة بين الشعر والنثر والفلسفة والسياسة والطب والتاريخ[3].

كان القرن الثامن الهجري الذي عاش فيه ابن الخطيـــب، وتـــوفي بـــآخره ســـنة (776هـــ) ، في مرحلة اشتد فيها الصراع بين الشرق والغرب والمسيحية والإسلام، وبدأ أن كفة الغرب قد رجحت، فلم يمض إلاّ وقت قليل حتى سقطت مملكـــة غرناطـــة آخـــر معاقل بني الأحمر في يد النصارى سنة (897 هـــ) [4]، فكان خروج آخـــر مـــسلم مـــن الأندلس بعد أن سلمها ملكها عبد الله الصغير للأسبان، بعد أن دام حكم العرب والمسلمين لهذه الجزيرة مدة ثمانية قرون.

3-6-1 أدب ابن الخطيب: -

كان ابن الخطيب كما مر سابقا صاحبً موهبة متعددة الجوانب، فكـــان يلـــم بكـــل نواحي العلم في عصره، حتى استحق أن يكون أفضل أديب في القرن الثامن هجري فـــي

(1) ابن الخطيب لسان الدين ، الإحاطة في أخبار غرناطة ،حققه وقدم له محمد عبدالله عنان،دار المعـــارف بمـــصر، المجلد الأول، ص 30 – 31.

(2) بو طالب عبدالهادي، وزير غرناطة لسان الدين محمد بن الخطيب السلملني ، نشر دار الكتاب ، الدار البيضاء ، الطبعة الثانية ت(1960) ،ص227–228.

(3) المصدر نفسه،ج2، ص 31.

(4) ابن الخطيب ،منوعات ابن الخطيب ، تحقيق الحسن بن محمـــد الـــسائح ، (1398 هــــ – 1978م) المملكـــة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مديرية الشؤون الإسلامية، ص5.

الأندلس والمغرب على الإطلاق، حيث كان من أعظم كتاب عصره وشعرائه ومن شعره يرثي سلطانه أبا الحسن قوله[1]:

إن بان منزله وشطت داره قامت مقام غيانه أخباره

قسم زمانك عبرة أوغيرة هذا تراه وهذه آثاره

وسوف نختصر الحديث في هذه الدراسة على جزئية بسيطة من ثقافة وحياة الرجل الأدبية، وهي موهبة النثر والكتابة، فقد صدر عنه العديد من المكاتبات والرسائل التي تنم عن موهبة وعبقرية لم تتوفر لأي شخص غيره، حتى استحق أن يكون أفضل كتاب عصره. فقد جاء النثر عنده متنوع بين الكتابة السلطانية أو الديوانية والكتابة الأخوية، حيث طغت الكتابة السلطانية على كتاباته الأخرى، نتيجة طبيعة عمله في الوزارة لابن الأحمر ملك غرناطة. وسنركز في هذه الدراسة على جانب النثر عنده وسندرس نماذج من نثره من المكاتبات الديوانية (السلطانية) أو الأخوية، وسنتعرض لذكر أهم مميزات الكتابة عند ابن الخطيب ، وسنركز على المكاتبات الواردة في موسوعة صبح الأعشى للقلقشندي.

وانتهى إلينا من رسائل ابن الخطيب السياسية العدد الجم ، وجمع ابن الخطيب منها في كتابه (ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب) طائفة كبيرة يتعلق بعضها بوصف الوقائع الحربية[2] والعديد من الرسائل الأخرى التي وجهها على لسان الملك إلى الملوك والأمراء سواء في المغرب أو غيره من البلدان، وقد أوردها القلقشندى في موسوعته (صبح الأعشى) ، وسنعرض مقتطفات من هذه الرسائل إن شاء الله ، لنسلط الضوء على عبقريته وموهبة ابن الخطيب الذي كان معجزة عصره، ومن هذه الرسائل السلطانية،ما كتب به عن سلطانه ابن الأحمر إلى سلطان أبي عنان بن أبي الحسن المريني صاحب فاس عند موت الطاغية ملك قشتالة من إقليم إشبيلية ، وطليطلة ،وقرطبة وما معها بعد نزوله على جبل الفتح من مملكة المسلمين بالأندلس لمحاربة المسلمين فيه، ورحيل قومه بعد موته به:-" أما بعد حمد الله مطلع أنوار الصنائع المجيبة متألقة الغرر، ومنشيء سحائب

---

(1) ابن تغرى بردى، جمال الدين أبي المحاسن يوسف ،المتوفى سنة (874هـ)،الدليل الشافي على المنهل الصافي،تحقيق وتقديم فهيم محمد شلتوت، الطبعة الثانية،دار الكتب المصرية بالقاهرة،(1998م)،ج2،ص641-642.

(2) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص59.

الألطاف، الكريمة الأوصاف ، هامية الدرر ،الكريم الذي يجيب دعوة المضطر إذا دعـــاه ويكشف السوء وما أمره إلاّ واحدة كلمح البصر؛ حجب كامن ألطافه عـــن قـــوى الفطـــن ومدارك الفطر، فما (يعلم جنود ربك إلاّ هو وما هي إلاّ ذكرى للبشر).

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله ذي المعجزات الباهرة والآيات الكبر، الذي بجاهه الحصين نمتنع عند استشعار الحذر، وبنور هداه نستضيء عند التباس الورد والصدر، فتحصل على الخير العاجل والمنتظر؛ والرضا عن اله وأصحابه الكـــرام الأثر ، الذين جنوا من أفنان العبر في الله ثمار الظفر؛ وفازوا من انجاز الوعـــد بأقـــصى الوطر، وانتظموا في سلك الملة الرفيعة انتظام الدرر، والدعاء لمقامكم الأعلى باتـــصال المسرات وتوالي البشر، والسعد الذي تجري بأحكامه النافذة تصاريف القدر...فإن كتبنـــا اليكم –كتب الله لكم من حظوظ فضله وإحسانه أجزل الأقسام ، وعرفكم عـــوارف نعمـــة الثرة وآلائه الجسام وعرّفكم من أخبار الفتح الهنّي المدفع وإنبائـــه كـــل شـــاهدٍ برحمتـــه واعتنائه فإنا كتبناه إليكم نحقق لديكم البشرى التي بمثلها تنضى الركاب، ويخاض العبـــاب ونعرض عليكم ثمرة سعدكم الجديد الأثواب؛ المفتح للأبواب علماً بما عندكم من فـــضل الأخلاق ، وكرم الأعراق، وأصالة الأحساب والمعرفة بمواقع نعم الله التي لا تجري لخلقه على حساب... وبينما نحن نخوض من الشفقة على ذلك المعقل العزيز على الإسلام لجـــة مترامية المعاطب، ونقتعد صعبا لايليق بالراكب؛ ولا التعلق بأســـبابكم فـــي أنـــواء تلـــك الغياهب، وما خلص إلى هذه البلاد من مواهبكم الهامية المواكب ...إذ تجلى نور الفـــرج من خلال تلك الظلمة، وهمت سحائب الرحمة والنعمة على هذه الأمـــة؛ ورم الله العـــدو بجيش من جيوش قدرته أغنى عن العديد والعدة...واهلك الطاغية حتف انفه، وقطـــع بـــه عن أمله فاطع حتفه، وغالته أيدي المنون في غيلة، وانتهى إلى حـــدود القواطـــع القويـــة والأشعة المريخية نصير دليله؛ فشفى الله منهم داء،وأخذ اشد ما كان اعتـــدادا واعتـــداء؛ وحمى الجزيرة الغربية وقد صارت نهبة طغاته، واشرقه بريقه وهي مضغة في لهواتـــه؛ سبحانه لا مبدل لكلماته...[1]".

(1) القلشقندي ، صبح الأعشى، ج 7 ، ص 40 –44.

بدأ ابن الخطيب رسالته بالدعاء للسلطان أبي عنان المريني ،مهنئا ومبشرا له بهذا الأمر العظيم وهو موت الطاغية ملك قشتاله،متمني له بلوغ الأماني،ثم حمد الله عز وجل مجيب دعوة المضطر إذا دعاه ،وكاشف أسوء وما أمره،وصلى وسلم على سيدنا محمد ذو المعجزات الباهرة والآيات الكبيرة الذي بنوره تستضيء عند التباس الورد و الصدر،وعلى أصحابه الكرام ،ثم يبين مكان صدور الرسالة من حمراء غرناطة،ثم يوضح مضمون الرسالة بما حل بالمسلمين من ضروب الطعن والقتل على يد جيش النصارى بقيادة مللك قشتالة،ثم يبين وصول العون والمساعدة التي قدمها السلطان للمسلمين في غرناطة،ولولا هذه المساعدة لما استطاع المسلمون في غرناطة من الظفر على الاعدء ما واسترجاع ما اغتصبوه منهم عنوة،ثم يبشره بموت الطاغية ملك قشتالة في تلك الآونة ،ويختتم الرسالة بتعريف السلطان بالبشائر بهذا النصر العظيم.

ومن نثره السلطاني كتابه إلى السلطان أبي سعيد عثمان بن يغمراسن) صاحب تلمسان، عند بعثه بطعام إلى الأندلس، شاكرا له على ذلك، ومخبراً له بفتح حصن من حصون الأندلس يسمى حصن (قنيط) وهو : -

" أما بعد حمد الله جامع الشمل بعد انصداعه وشتاته، وواصل الحبل بعد انقطاعه وانبتاته، سبحانه لا مبدل لكلماته ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسول الصادع بآياته، المؤيد ببيناته...، فإنا كتبناه إليكم – كتب الله لكم سعداً ثابت الأركان ، وعزا سامي المكان؛ ومجدا وثيق البنيان، وصنعاً كريم الأثر والعيان – من حمراء غرناطة – حرسها الله.. ، فحضر بين يدينا ملقيا ما شاهده من ازدياد المشاهد بتلك الايالة، واستبشار المعاهد بعودة ذلك الملك الرفيع الجلالة، الشهير الأصالة؛ ووصل صحبته ما حملتم جفنه من الطعام برسم إعانة هذه البلاد الأندلسية، والإمداد الذي افتتحتم به ديوان أعمالكم السنية... فأثنينا على قصدكم الذي لله اخلصتموه،وبهذا العمل البر خصصتموه؛وقلنا:لا ينكر الفضل على أهله،وهذا برصد عن محله؛فليس إعانة هذه البلاد الجهادية ببدع من مكارم جنابكم الرفيع،والاشاذة فيما أسدى على الأيام حسن الصنيع؛فقد علم الشاهد والغائب...إن فتح جيشنا حصنا من الحصون المجاورة لغربي مالقة يعرف بحصن قنيط من الحصون الشهيرة المعروفة...فجعلنا من ذلك الطعام الذي وجهتم طعمة حماته،ونفقات رجاله

ورماته،اختيارا له في ارض المرافق من سبل الخير وجهاته...لنعمل لفي تتميمها بمقتضى الود العذب الموارد،الكريم الشواهد؛والله يصل سعدكم،ويحرس مجدكم،والسلام. "(1)

بدأ ابن الخطيب رسالته بالسلام،ومن ثم حمد الله عز وجل وصلى على رسوله الكريم،وعلى أصحابه وأنصاره وحزبه وحماته المتواصلين في ذات الله وذواته،القائمين بنصر دينه وقهر أعدائه،ثم يدعو للسلطان بالسعد والعز والمجد،ثم يبين مكان صدور الرسالة من حمراء غرناطة،ويشير ابن الخطيب في رسالته إلى العديد ومن صفات السلطان من حيث حسن فضائله وشمائله بإرساله الطعام لإعانة البلاد الأندلسية،فيشكر فضله العظيم الذي خصصه لله تعالى،ويثني عليه على هذا العمل الكريم،فهو لاينكر فضله بمساعدة أهل الأندلس الدائمة في الجهاد في سبيل الله،ثم يوضح في الرسالة بأن الطعام الذي بعثه إلى الأندلس قد جعل لإطعام حماة حصن قنيط المجاور لغربي غرناطة،ويختتم الرسالة بالدعاء للسلطان بالسعد والمجد.

ومن نثره أيضا ما كتبه – رحمه الله – بالإمرة على الجهاد، وهي : –

" هذا ظهير كريم بلغ فيه الاختيار، الذي عضده الاختبار، إلى أقصى الغاية؛ وجمع له الوفاق، الذي خدمه البخت والاتفاق، والأهلية التي شهدت بها الآفاق بين نجع الرأي ونصر الراية؛وأنتجت به مقدمات الولاء نتيجة هذه الرتبة السامية العلاء والولاية . واستظهر من المعتمد به ،على قصده الكريم في سبيل الله ومذهبه،بليث من ليوث أوليائه شديد الوطأة على أعدائه والنكاية،وفرع من فروع الملك الأصيل معروف الأبوة والاباية : للتتضح حجة النصر العزيز والفتح المبين ذي القوة المتين محكمت الآية،وتدل بداية هذه الدولة الرافعة لمعالم الدين،المؤيدة في الأقوال والأفعال بمدد الروح الأمين،على شرف النهاية، أصدر حكمته وأبرز حكمه، وقرر حدة الماضي ورسمه ، عبد الله ، الغني بالله (محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر عضد الله كتائبه وشد عضده ،ويسر في الظهور على أعداء الله قصده– لوليه المستولي على ميادين حظوته وإيثاره،الفائز بالقدح المعلى من إجلاله وإكباره؛ظهير استنصاره،وسيف جهاده المعد لصدق ضريبته ويوم افتخاره، ويعسوب قبائل الغزاة بأصقاعه الجهادية وأقطاره . الأمير أبي عبد الرحمن

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص 45 – 47 .

ابن الأمير أبي علي، ابن السلطان أمير المسلمين أبي سعيد، ابن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق وصل إليه له أسباب سعده ، وأنجز للمسلمين بظاهرته إياه على الكافرين سابق وعده، ولما وفد على بابه الكريم مؤثراً على ما كان بسبيله عن جواره، ملقيا بعجلّة الجهاد عصا تسياره، مفضلاً ما عند الله على رحب أوطانه وأقطاره شيمة من أسرع إلى خير الآخرة ببداره، وقبل اكتمال هلاله وإبداره،ولينظر فيما لديه من القبائل الموفورة ،والجموع المؤيدة المنصورة؛نظرا يزيح العلل،ويبلغ الأمل،ويرعى الهمل ويحسن القول وينجح العمل؛منبها على أهل الغناء والاستحقاق مستدرا للعوائد والأرزاق،معرفا بالغرباء الواردين من الأفاق،مطبقا منهم الطباق،متغمدا للهفوات بحسن الأخلاق؛مستجيدا للأسلحة والكراع،مبادرا هيعات الصريخ بالإسراع،مسترعيا للمشورة التي يقع الحكم فيها عن حصول الإجماع،رفيقا بمن ضعف عن طول الباع؛محتاطا على الإسلام في مواقف الدفاع،مقدما عند اتجاه الأطماع؛صابرا في المضايق على القراع،مقدما للأبطال بالاصطناع،مقابلا نصائح أولى الخبرة بحسن الاستماع ،مستعملا في الحروب ما أجاز ه الشرع من وجوه الخداع؛حتى يكون عمله وفق شهرته البعيدة المطار،وسيرته فيما اسند إليه مثلا في الأقطار،واستقامة التدبير على يديه ذريعة إلى إرغام أنوف الكفار؛بقوة الله وحوله وعزته وطوله[1] .

وهذا نسخة من كتاب تعيين أمير على الجهاد في سبيل الله عز وجل،والإمارة هي رتبة سامية لا تكون إلا لرجل كالليث شديد الوطأة على الأعداء ،معروف الأبوة والابايــة ثم يضمن ابن الخطيب هذا الكتاب صفات من تكون له الإمرة على المسلمين وهي،أن يكون محبا للجهاد في سبيل الله،مفضلا ما عند الله على رحب أوطانه وأقطاره،متحلي بالبسالة والجلالة والطهارة اللائقة بمنصب الإمارة ،وبعد اكتمال هذه الصفات في هذا القائد ينصب على الولاية الجهادية،التي لا تعدل بولاية،ولا توازن عناية المعتد بها بعناية.

ومن ثم يقدم ابن الخطيب العديد من الوصايا إلى هذا القائد الذي لا بد من الأخذ بها حتى ينجح في عمله ؛ومن هذه الوصايا يجب على القائد أن ينظر فيما لديه من القبائل الموفورة،والجموع المؤيدة المنصورة ،نظرا يزيح العلل،ويبلغ الأمل،ويجب عليه أن

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص 12 – 14.

يحسن القول لإنجاح العمل ،ويتنبه إلى أهـل الغنـاء والاسـتحقاق،وان يجلـب العوائـد والأرزاق،وان يتعـرف علـى الغربـار الـواردين مـن الافـاق،وان يكـون رفيـق بالضعيف،ويحتاط على الاسلام في مواقف االدفاع ،وان يكون في اول الجيش عند تجـاه الأطماع ، وان يتحلى بالصبر في المضايق والمصائب،وان يأخذ بنصائح أول الخبرة وان يستعمل الحيلة في الحروب من اجل تحقيق النصر.

ومن الأمثلة الأخرى نستشهد بما كتبه ابن الخطيب من رسائله إلى الروضة الشريفة عن سلطانه ابن الأحمر إلى أمير المدينة النبوية على ساكنها سيدنا محمد أفضل الصلاة والسلام

((يعتمد المقر الأشرف الذي طاب بطيبة نشره ، وجل بامارتها الشريفة أمره ، وقدر في الأفاق شرفه وشرف قدره وعظم بخدمة ضريح سيد ولد ادم فخره ، ... أما بعد حمـد الله الذي فضل البقع بخصائصها الكريمة ومزاياها ، تفضيلا الريـاض الوسـيمة برياهـا ، وجعل منها مثابات رحمة تضرب إليها العباد أباط مطاياها ، مؤملـة مـن الله غفـران زلاتها وحط خطاياها ، وخص المدينة الأمينة بضريح سيد المرسلين فأسعد منها مماتهـا ومحياها ، ورفع علياها . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكـريم ، والـدعاء لمقر أ صالتكم الشريفة حياها الله وبياها ، كما شرفها بولادة الوصي الذي قدر وصـاياها ، وسلالة النبي الذي أعظم مواهب فخرها منه وعطاياها ، بالسعادة التي تبرز أكف الأقدار على مرور الأعصار خباياها ، والعز الذي يزاحم فرقد السماء وثرياهـا . فأنـا كتبنـاه اليكم... من حمراء غرناطة – حرصها الله – ونعم الله يحوك حللها الجهاد ، والـسيوف الحداد ، وتلبسها البلاد والعباد ، وتتزياها . وفلول الكفر ناكصة على الأعقاب ، من بعـد شد الوثاق وضرب الرقـاب ، خزاياهـا ، وبركـات حـرم النبـي الوجيـه علـى الله يستظلهاالاسلام ويتفياها ، وينقع الفلل من رواياها .

ونفلت الطارف والتلاد ، حسب ماتنصه مخاطبتنا إلى نبينا الكريم الذي شرفكم الله بخدمة لحده ، واستخلفكم على دار هجرته من بعده ...

بدا ابن الخطيب كتابه إلى أمير المدينة المنورة بالصلاة على أفضل المرسـلين ، ثـم يتحدث من مكانة ومقر المدينة المنورة (مدينة الرسول الكريم) الأشرف عند المسلمين ، ويصف الشرف العظيم الذي قدره له الله عز وجل ، بأن جعله أمير المدينة وعظيم أمـره

لخدمته ضريح سيد ولد ادم فخره ، والدعاء لمقر أصالتهم الشريفة التي شرفها الله بولادة الوصي من سلالة النبي الأكرم الذي يفتخربها على مر الأزمان ، وعلى هذا العز الـــذي يعلو إلى فرقد السماء وثرياها . ثم يوضح ابن الخطيب مكان صدور الكتاب من حمـــراء غرناطة ، وسبب هذا الكتاب بيان الفتح العظيم الذي خصها الله – عز وجل – بـــه وهـــو الجهاد في سبيله ، فقد استعد أهل الإسلام في غرناطة إلى الدفاع عنه في وجه النصارى ، فتزين الإسلام بالنصر العظيم الذي كان من أثره هزم أهل الكفر ، وفلول جيوشهم ناكصة على الأعقاب ، نتيجة مالاقوه من المسلمين من قوة وصلابة فـــي الـــدفاع عـــن الأرض الإسلامية ، وكان كل هذا ببركة حرم النبي الوجيه الذي يستظله الله بالإسلام ، ثم يخبـــره بهذه الفتوح العظيمة التي تحققت للإسلام ، وكانت هذه المخاطبة إلى النبي الكريم الـــذي شرفه الله بخدمة لحده ، واستخلفه على دار هجرته من بعده . ثم يختم الكتاب بالدعاء لـــه بحسن المكافأة من الله على المشاركة والإعانة التي تناسب الشرفاء والامجاد، وأن تكـــون خاتمته خاتمة السعادة ، ثم يختم بالسلام ورحمه الله وبركاته.

وقد جرت عادة الأمة من الملوك وغيرهم بكتابة الرسائل اليه صلى الله عليه وسلم بعد وفاته بالسلام والتحية والتوسل والتشفع به إلى الله تعالى في المقاصد الدنيوية والأخروية تسييرها إلى قربته صلى الله عليه وسلم [1].

وكانت ترسل هذه الرسائل إلى الضريح الشريف ، صحبة وفد رسمي يخصص لهـــذه الغاية وربما أصبحت بمجموعة من الغنائم المختارة المتوافقة مع طبيعة الرسالة كالنواقيس وأشارته إلى طبيعة الصراع أنذاك ، لعرضها في موسم الحج ، حتى ،تتـــصور الأيـــدي المجاهدة التي هصرتها[2] ، من الأمثلة على ذلك ما كتبه ابن الخطيب وزير ابن الأحمـــر بالأندلس ،وصاحب ديوان إنشائه عن سلطانه يوسف بن فرج بن نصر :

أما النثر فيبدؤه بتوجيه الخطاب إلى الرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم– مباشرة، مبتدئاً به إجلالاً وإكراماً ، فهو يبدأ رسالته التي كتبها عن أبي الحجاج بقوله[3] :"إلى

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص 469.

(2) الهروط،عبدالحليم حسين،النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب،الطبعة الاولى،2006م – 1426هـ،دار جرير للنشر والتوزيع،ص63.

(3) الهروط،النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب،ص64.

رسول الحق،إلى كافة الخلق، وغمام الرحمة الصادق البرق ، والحائز في ميدان أصطفاه الرحمن قصب السبق ، خاتم الأنبياء ..." [1] .

بعد ذلك يذكر اسم المرسل ، مقدماً له بما يصل به الحديث بقوله[2] :"المتوسل به إلى رضا ربه ،"يوسف ابن إسماعيل بن نصر"[3] .

ومن ثم يذكر فعل الكتابة من دون الدعاء بمعناها ، على صيغة المفرد الغائب ، بوصفها معدة للإلقاء بالإنابة ، فيقول[4] :"كتبته اليك يا رسول الله والدمع فاح، وخيل الوجد ذات جمام ،عن شوق يزداد كلما نقص الصبر، وإنكسار لا يتاح له إلا بدنو مزارك الجبر..." [5] .

أما موضوع إصدار الرسالة فقد ذكرها مرة بعد فعل الكتابة "من حمراء غرناطة حرصها الله ،ومرة أخرى في نهاية الرسالة[6] ، من حضرة جزيرة الأندلس غرناطة صانها الله ووقاها ودفع عنها ببركتك كيد عداها "[7].

وبعد أن يستوفي الفرض من الرسالة يختمها بالصلاة على الرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم– وحسب من دون غيره من الصحابة تارة أخرى من ذكر تاريخ كتابتها [8]، والصلاة والسلام عليك يا خير من طاف وسعي ، وأجاب داعياً إذا دعا ، وصلى الله على جميع أحزابك وآلك ،صلاة تليق بجلالك وتحق لكمالك ، ضحيعيك وصديقيك ، وحبيبيك ورفيقيك :خليفتك في أمتك ، وفاروقك المستخلف بعده على جلتك ...، والسلام الكريم عليك وعليهم ورحمة الله وبركاته "[9].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص471.
(2) الهروط،النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب،ص64..
(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج6،ص437.
(4) الهروط،النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب،ص64.
(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص473.
(6) الهروط،النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب،ص64.
(7) القلقشندي، صبح الأعشى، ج6،ص476.
(8) الهروط،النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب،ص64.
(9) القلقشندي، صبح الأعشى، ج6،ص476.

ويركز لسان الدين في هذه الرسالة على إبراز تعلقه ، بالشريعة السمحاء ، ووصف ما نتابه من الشوق ، ويعتريه من وجد شديد لزيارة الضريح الشريف ، ثم يتشوق إلى الأماكن التي ضمت الضريح الشريف وشهدت بواكير الدعوة الإسلامية ،بقوله[1]:"وقد مطلت الأيام بالقدوم على تربتك المقدسة باللحد ، وودعت الآمال ودانت باخلاف الوعد ، وانصرفت الرفاق والعين بنور ضريحك ... فيالها من معاهد فاز من حياها ، ومشاهد ما أعطر رياها ، وبلاد نيطت بها عليك التمام ، وأشرقت بنورك منها النجوم والتهام ، ... مدارس الآيات والسور ومطالع المعجزات السافرة ... فما أسعد من أفاض من حرم الله إلى حرمك ، وأصبح بعد أداء ما فرضت عن الله ضيف كرمك ، وعفر الخد في معاهدك ومعاهد أسرتك وتردد ما بين داري بعثتك وهجرتك !" [2].

كما يركز فيها على ذكر العوائق التي حالت بينه وبين زيارة الضريح الشريف ، وهي انشغاله بجهاد العدو[3] ، بقوله :" وأني لما عاقني عن زيارتك العوائق وأن كان شغلي عنك بك ،وعدتني الأعداء فيك عن وصل سببي بسببك ، وأصبحت ما بين بحراً تتلاطم أمواجه وعدو تتكاثف أفواجه ، ويدب الشمس عند الظهيرة عجاجة ، في طائفة من المؤمنين بك وطنوا على الصبر نفوسهم ، وجعلو التوكل على الله وعليك لبوسهم..." [4].

وفي هذه الرسالة يتوسل إلى الله عز وجل مستشفعاً برسوله لغياث الأمة المسلمة والأخذ بيدها، ونصرها على أعدائها، كما ويتوجه اليه بإغاثته ، وإعانته ، وشفاعته يوم القيامة ،بقوله :"يا غياث الأمة ، وغمام الرحمة أرحم غربتي وانقطاعي ، وتغمد بطولك قصر باعي ،وقف على هيبتك خور طباعي ..." [5].

ويعبر لسان الدين في هذه الرسالة عن قصور وسيلته في الخطاب أمام هيبة الرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم – وهول المناسبة العطرة ،وهو يعلق الآمال على شيم

---

(1) الهروط،النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب،ص64.
(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج6،ص473-474.
(3) الهروط،النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب،ص65.
(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج6،ص474.
(5) الهرو ط،النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب،ص65.

الرسول –صلى الله عليه وسلم –مبدياً ما لنسب سلطانه من السلف من وشـائج تـربطهم بالرسول الكريم [1]، ويقول : "هذه يا رسول الله وسيلة من بعدة داره ، وشط مزاره ولـم يجعل بيده أخياره ، فأن لم يكن للقبول أهلاً فأنت للإعضاء والـسماح أهـل ،.... فلـى بأئنتسابي إلى سعد عميد أنصارك مزيه ، وسيلة أثيرة خفية ، وأن لـم يكـن لـي عمـل ترتضيه فلي نيه ،فلا تنساني ومن بهذه الجزيرة المفتتحة بسيف كلمتك ، وعلى يد خيـار أمتك ...وبجاهك ندفع مالا نطيق ، وبغايتك نعالج سقيم الدين فيفيق ، فلا تفردنا ولا تهملنا وناد ربك فينا :ربنا ولا تحملنا ،وطوائف أمتك حيث كانوا عناية منك تكفيهم ،وربك يقول لك وقوله الحق "وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم "[2].

ولـ لرسالة النبوية عند لسان الدين ديباجة خاصة في بنيتها ، فهي تقوم على ساقين نظماً ونثراً ، حيث تتصدر الرسالة قصيدة شعرية من نظمه مكتملة المعنى . [3]

جمع القلقشندي، العديد من رسائل ابن الخطيب في موسوعته (صبح الأعشى) ولا مجال هنا لإيراد المزيد من هذه الرسائل الديوانية.

وأسلوب ابن الخطيب في الكتابة شأنه شأن كتاب عصره؛ يكثـر مـن الـسجع ، ويكرر الفكرة مرتين أو ثلاث في جمل متعددة[4] . ويغلب على نثره ظاهرة الإطناب التي تقترن بظاهرة أخرى كما ذكر شوقي ضيف في كتابه (الفن ومذاهبه في النثر العربي) هي ظاهرة التصنع لمصطلحات العلوم وخاصة العلوم اللغوية[5].لابن الخطيب مقـدرة فائقـة على تخير أساليب المدح والذم، ومديحه غالبا من النوع الرفيع الـذي لا يـشوبه النـزل الوضيع، بل تطيعه دائماً نزعة من الاعتزاز والكرامة، ومن ذلـك مـا ورد فـي كتابـه (الإحاطة)؛" وبعد فإنه لما قيض الله مني للآداب محلى سماتها، وناشر رحمها بعد مماتهـا وصاقل صفحاتها وقد محا محاسنها الصدأ على بعد المدى، وموضع طريقتها المثلى وقـد

---

(1) المصدر نفسه،ص65.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج6،ص475-476.

(3) الهروط،النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب،ص63.

(4) ابن الخطيب ، منوعات ابن الخطيب، ص 51.

(5) ضيف شوقي ، الفن ومذاهبه في النثر العربي،طبعة ثالثة مزيدة موسعة،دار المعارف بمصر،مكتبة الدراسات الأدبية (19)، ص 334 – 335.

أضحت طرائق قددا، والعاشي إلى ضوء نارها العلي أجد على نار هدى[1].وأما في الذم فإن ابن الخطيب يلجأ أحياناً إلى الأساليب المضرمة والعبارات العنيفة ويطلق العنان لضغنه وحقده ومن الأمثلة على ذلك ما قاله عن السلطان (إسماعيل) الذي انتزع الملك من أخيه (الغني بالله) لفترة قصيرة وفقد ابن الخطيب على أثره منصبه :" كان شيطاناً ذميم الخلق، حرفوشاً على عرف المشارقة، مترامياً للخسائس، كثير النكر، منغمساً في العهن[2]". ومدرسة ابن الخطيب النثرية ، ونظراً لما تمتاز به من صعوبة في تركيب الجمل ذات الفواصل المتعددة، فإنّ كتاب المغاربة والأندلسيين لم ينسجوا على منواله باستثناء بعض كتابات (ابن الأزرق[3]) وما كتبه (الفشتالي[4])، وإن رسائله الديوانية ظلت ذات أثر فيما ينتج الكتاب[5]، حيث اعتمدها القلقشندى في موسوعته (صبح الأعشى) أنموذجاً يحتذي به.

3-7 ابن عربي: [6]

صاحب المصنفات ،سيف يفري النوائب ،ويغلي لمم الخطوب الممتدة الدوائب،ليصرف سلم إليه خاتمة، ونسمي به طيء الكرام خاتمة. [7]

سكن دمشق مذ حلها ، ومد بسحره الزاخر محلها،وكان فيها ما به مهرعا ،وسحابه مكرعا،وجنابه محصنا ممرعا، وله أمور تحمل على محامل،وخوارق لا يجامله فيها

(1) ابن الخطيب، الإحاطة ، ج1، ص 60.

(2)ابن الخطيب، الإحاطة ، ج1، ص 60 – 61.

(3) أبو عبدالله محمد بن علي بن محمد بن الأزرق،انظر المقري،نفح الطيب،ج2،ص699.

(4) أبو فارس عبدالعزيز الفشتالي،كان كاتب أسرار الدولة المنصورية،انظر المصدر نفسه،ج5،ص22.

(5) ابن الخطيب ، منوعات ابن الخطيب، ص 90 – 92.

(6) هو محي الدين بن عربي محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبدالله،الحاتمي،من ولد عبدالله بن حاتم،أخي عدي بن حاتم،الصوفي الفقيه المشهور الظاهري،ولد بمرسية يوم الأثنين سابع عشر رمضان سنة 560هـ، قرأ القران على أبي بكر بن خلف بإشبيلية بالسبع وبكتاب الكافي ، وانتقل من مرسية لإشبيلية سنة568 هـ ، فأقام بها إلى سنة 598هـ ، ثم ارتحل إلى المشرق ودخل مصر ، وأقام بالحجاز مدة ، ودخل بغداد والموصل وبلاد الروم ، ومات بدمشق سنة 638 هـ ، ودفن بسفح قاسيون ، أنظر ، المقري، نفح الطيب ، ج2 ، ص161– 162 .

(7) العمري ، مسالك الأبصار، ج8 ،ص 327.

مجامل،على اتضاح نفس،وإيضاح في العلا إلى أن حل الرمس،ولم يمت حتى كثرة مصنفاته كثرة أمت الأقلام وأخفتها،وغطت الأيام وأحفتها. [1]

قال عنه أبو عبد الله الدبيثي:"أخذ عن مشيخة بلده،ومال إلى ا لآداب،وكتب لبعض الولاة،ثم حج ولم يرجع،وسمع بتلك الديار،وروى عن السلفي بالإجازة العامة،وبرع في علم التصوف،وله فيه مصنفات،و لقيه جماعة من العلماء،وأخذوا عنه. [2]

3-7- 1 أدب ابن عربي:

برع ابن عربي بالكتابة النثرية والشعرية ،حتى وصل إلينا من نثره وشعره العديد ،وقد أورد العمري في كتابه مسالك الأبصار مقطوعات من نثره وشعره.ومنه ما حكى شيخنا الكندي عنه أنه يقول (اللهم !ارزقني شهوة الحب ، لا الحب ، حتى أكون منعما أبدا) . قال : وفي هذا يقول : [3]

وَلمّا رأيْتُ الحَبَ يعظمُ قَدْرهُ   وما لي بِهِ حتّى الممات يُدانِ
تعشقْتُ حبَ الحبِ فيهِ ولَمْ أقلْ   كفانيّ الَّذي قَدْ نلتُ منهُ كفاني

فابن عربي يطلب من الله عز وجل أن يرزقه شهوة الحب ،ويشير في بيتيه إلى أن الحب قد عظم قدره،وماله عنه سبيل ،فقد تعشق الحب فيه،ولم يكتفي منه على الرغم مما ناله منه.

ومن كلامه المأثور،ودره المنظوم ،قوله[4] :

يا نائِما كَمْ ذا الرُّقادِ   وأنتَ تدَّعي فانْتبهْ
كانَ الإلهُ يقومُ عنكَ بِما   دعا لَوْ نمتَ بِهْ
لكنْ قلبكَ غافلُ عمّا دعا   كَ ومنْتبهْ
في عالمِ الكونِ الَّذي   يرديكَ مهما متَ بِهْ
فانظرْ لنفسِك قبلَ سيركَ   أنْ زادكَ مشتبهْ

(1) المصدر نفسه ، ص 327.
(2) العمري ، مسالك الأبصار، ج8 ، ص 328 .
(3) المصدر نفسه، ص 330 .
(4) المصدر نفسه ، ص 332 .

يقدم ابن عربي في هذه الأبيات النصائح للناس ،بأن لا يغفلوا عن ذكر الله وعبادتـــه،وهو الأمر الذي خلقوا من أجله ،في حين إن ا لغفلة لا تنفع،وإنما الذي ينفـــع هـــو النهـــوض والقيام بواجب الناس اتجاه ربهم.

ومن نثره أيضا،قوله :

لما انقضى ليل الشباب ولاح لي صبح المشيب
أضربت عن خوض السفاهة بالتبل للحبـــــيب

نفسي أخاطب ، وإياي أعاتب ، أيها المرسل عنان شهواته ، الجائل في ميدان لذاته ، السابق في حلبة هفواته ، إلى كم ذا الاغترار بالعمر القصير ؟ ، كأنك ما علمت أن إلـــى الله المصير ! فبادر إلى التوبة لعلك تقال ، وألق عن ظهرك أوقار الأوزار الثقال ، يصح لك ما أملت في الـ عقول ، في حضرة القبول ، فقد قال قيوم السماوات والارض : (وهـــو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات) وأمر به في كتابة المبين : (وتوبوا إلى الله جميعا أيها الؤمنون) ، ثم رغب فيم يحبه للمذنبين ، فقـــال تعـــالى : (إن الله يحـــب التوابين ويحب المتطهرين)

فيا إيها الناس ! اعلموا أن كل من ظهرت من حوبة ، فـــإن لله عليـــه توبـــة ، فمـــن عظمت حوبته ـــ جلت دوبتة ، فتوبة عالم الشهادة من الأعمال ، وتوبة النفوس من الامال وتوبة الأرواح من الوقوف مع حضرات الجمال ، وتوبة الأسرار من معاينة غين الكمال وتوبة أسرار الأسرار مما لا ينال ، والسر الواحد الجامع ، عدم رؤية الثـــواب النـــافع ، وهذا باب يدق وصفة ، ويمنع كشفه ، فألق سمعك أيها المغتر بحياته !، المحجوب علـــى الحقيقة بمشاهدة صفاته ، وخذ خطاب الحق ، من حضرة الفرق بلسان الصدق ، فيا محل العدم ! عليك بالبكاء والندم ، ويا محل التحميص والاختبار ! عليك بالافتقار والاعتـــذار ، ويا محل الاطلاع ! عليك بالنزوع والإقلاع، فشمر الذيل واقطع بـــالتلاوة زمـــان الليـــل، وطهر ثيابك قبل انسلاخك عنها ، واعرف قدر جنايتك وتب إلى الله عز وجـــل منهـــا ، وإياك والخديعة ، باسترسال الطبيعة ، وأقم ميزان العدل بين حجبك وجنايتـــك ، وكحـــل بميل الاعتيار عين بصيرتك ، لتعرف قدر ظلام عمايتك ، واعلم أنك على ما فرطت في

جنب الله نادم ، وعلى ما قدمت بين يديك قادم ، وأدنى مرامي أفعالك وأقصاها في كتـــاب (لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها)

فطوبى لمنْ غدا تائباً منيباً ذليـــــــــــلاً لـــــربٍّ جليلْ

تـــــــــــراهُ إذا جنَّ ليلـــهُ كثيرُ الأنينِ كثيرُ العـــــــويلْ

قريحُ الفؤادِ حليفُ السها دِ يراعي النجومَ بطرفٍ عليلْ

إذا الدمـــعُ سالَ على خدِّه محا أثرَ الدمعِ حرَّ الغليـــــلْ (1)

بدا إبن عربي خطبته بتوجيه الخطاب والعتاب إلى نفسه بعد أن أنقضى الشباب ولاح عنده المشيب ،ففي هذا العمر المتقدم ابتعد إبن عربي عن الخوض في السفاهة واتجه إلى الله عز وجل بالتبتل من أجل المغفرة .

ثم يقدم الموعظة إلى كل من يتبع شهواته وملذاته ،والمتسابق إلى الوقوع في الهفـــوات عليه أن يبتعد عن الاغترار بهذا العمر القـــصير،فعليه اســـتغلاله فـــي طاعـــة الله عـــز وجل،والابتعاد عن الوقوع في الشهوات والملذات،وإن الله يقبل توية التائب إذا تاب.

ثم يتابع إبن عربي موعظته بتوجيه كلامه إلى الناس عامة بقوله لكل من ظهرت عنده حوبة وعظمة،فإن الله يقبل التوبة الصادقة،فالتوبة عالم الشهادة من الأعمـــال.ثـــم يوجـــه خطابه إلى المغتر بحياته والمحجوب عن الحقيقة بمشاهدة صفاته،ويطلب منـــه أن يأخـــذ خطاب الحق من لسان الصدق،وكل من قام بمعصية وابتعد عن الله،عليه أن يعود إلى الله بالتوبة الصادقة البعيدة عن الخديعة،وعليه أن يقدم ميزان العدل بدل الظلم،فعلى كل إنسان أن يعرف قدر ظلام عمايته،ثم يقول بإن الكتاب الخاص بكل عبد لا يغـــادر صـــغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.فعليك يا عبدالله أن تعود إلى الله بالتوبة الصادقة مـــن القلـــب ،وأن الله وعد التائبين أن يبدل سيئاتهم حسنات.

ومن نثره أيضا ما قاله من خطبة : " فلا يقع بصر إلا عليه، ولا يخرج خـــارج إلا منه ، ولا ينتهي قاصد إلا إليه ،فيا أولي الألباب، أين الغيبة والحجاب(2) :

وَمِـــــنْ عجبٍ أنِّي أحنُّ إليهمُ وأسألُ شوقاً عنهم، وهمُ مـــعي

وتبكيهمُ عيني وهُمُ في سوَادِهَا ويشتاقهُم قلبي وهُمُ بَيْنَ أضلعي

(1) العمري ، مسالك الأبصار، ج8 ، ص 332- 333 .

(2) المصدر نفسه ، ص 333- 334.

ومنه قوله:" أيها الغافل عن مواقعه الحساب ، والمتعامي عن مناقشة ما في يديه من الاكتساب ، كأنك ما قرأت ما في في الكتاب المبين : (كفى بنا حاسبين) ، فأعلم – أيقظك الله من سنة الغفلة –: أن المحاسبة في هذه الدار على قدر المحاسب ، فمنهم معاقب ، ومنهم مغالب ، ومنهم معاتب ، ومنهم محاسب ، فمحاسبة الإحساس معاقبة ، والأنفاس مغالبة ، والأرواح معاتبة ، والأسرار مخاطبة . فحاسب نفسك – يا أخي ! – في مهل الأنفاس ، قبل حلول الأرماس ، ومثلها كعامل خراج بين يديك من قبل أن ينعكس الأمر عليك ، فكاني بك في ذلك اليوم تدعو تسمع مجيبا إلا : (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا)

بدأ ابن عربي خطبته أن الله عز وجل عليم كل شيء في هذا العالم ،فلا بيستطيع أي إنسان إن يقوم بأي عمل إلا بعلمه وبأمره،وينتهي إليه كل قاصد،ثم يخاطب كل إنسان غافل عن مواقعة الحساب،والمتعامي عن مناقشة كل شيء بين يديه يوم الحساب،فكل الاكساب من الله عز وجل بما أمر الله.

ثم يبين في خطبته أنواع المحاسبة في هذه الدار(الدنيا)فالمحاسبة تكون على قدر المحاسب،فمنهم معاقب،و منهم معاتب،ومهنم محاسب،فيطلب من كل شخص أن يحاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب في القبر،فحساب القبر أشد وأعظم،ثم يعظه من حساب الأ خرة،هذا الحساب الذي يكون بين يدي الحق يوم تدعو فلا تسمع من يجيبك.

ومن نثره أيضا، قوله :"أما بعد– يا اخي! –عصمنا الله وإياك من نتائج الغفلات، وآمننا من روعة البيات ، فإن الله _ سبحانه – لما أوضح المنهج إليه ، وبين الأمر المزلف لديه ، حمل من اصطفاه من عباده عليه ، وعدل بمن حرمة إلى أحد جانبيه ، فهنيئا لمن حمل على الجادة ، وبؤسا لعبد قطعت عنه العناية الربانية والمادة . ونحن – يا أخي !– من هذا كله على بصيرة ، مع قبح سيرة وسريرة ، فتدارك أخاك بدعوة ترقية إلى موقف الإختصاص ، وتلحقه بأهل الصدق والإخلاص ، قبل أن يفجأه الموت ، وينقلب بحسرة الفوت ، فقد طال الامل ، وساء العمل ، وترادف الكسل ، ولم تعظنا بمرورها الأيام ، ولا

زجرتنا حوادث العلل والآلام ، فأسأله سبحانه أن يطهر الذوات بأحمد الصفات ، والسلام[1]

بدا ابن عربي موعظته بالدعاء وبالعصمة له ولكل مؤمن من نتائج الوقوع بالغفلات عن أوامر الله عز وجل ،والأمان من روعة البيان،ثم يبين للناس منهج الله الواضح،الذي حمل من اصطفاه من عباده عليه ،وعدل بمن حرمه إلى احد جانبيه،ثم يقدم التهنئة لمن حمل على الجادة ، والبؤس والشقاء والعذاب لمن قطكعت عنه العناية الربانية،ثم يطلب من أخيه في الإسلام أن يدعو إلى أخيه المسلم بدعوة إلى الإسلام ،وتلحقه بأهل الصدق والإخلاص،قبل أن يدركه الموت فلم يعد ينفعه شيء، وفي نهاية الخطبة يسأل الله سبحانه أن يطهر الذوات بأحمد الصفات.

ومن نثره أيضا، قوله:"أما بعد-يا أخي!-فالقدر سابق،والقضاء لاحق،ولا يغرنك ما أنت عليه من سني الأعمال،وزكي الأحوال،ما دام رسنك مرخى،وحبلك على غاربك ملقى،فإن الخاتمة أمامك،ولا تدري بما يرسل الحق إليك أيامك،فخذ الكرامة على أدب،وأعرض عن الاشتغال بها وجد في الطلب،فكم مريد كانت حظ عمله لما كانت غاية أمله ومن الله نسأل عصمة الاحوال ،في السابقة والمال،والسلام. [2]

بدأ ابن عربي خطبته بالتركيز على قدر الانسان ،وقضاء الله الذي يحكم على كل كائن حي بالموت،ثم يطلب من اخيه المسلم عدم الاغترار بما هو عليه من أزكى الأعمال والأحوال،ما دام الإنسان حر في أعماله وأقواله،ثم تخبره بإن الخاتمة أمامك مهما طال عمرك،ثم يقدم له عدة نصائح منها عليه أن يأخذ الكرامة أدب،وأن يعرض عن الاشتغال بها،وأن يجد في الطلب،ثم يختتم خطبته بسؤال الله عصمة الأحوال في السابقة والمآل.

ومن نثره ايضا، قوله :" إن الحق -سبحانه- جعل الطريق الى معرفته اسهل الطرق واوضحها،فقال:"ليس كمثله شيء"،وهو أصل المعارف كلها. [3]

يركز ابن عربي في موعظته على ان الله عز وجل جعل اسهل الطرق واوضحها الطريق الى معرفته باتباع اوامره ،والابتعاد عن نواهيه وان الله اصل كل المعارف.

---

(1) العمري ، مسالك الأبصار، ج8 ، ص 334 .
(2) المصدر نفسه ، ص 334 .
(3) المصدر نفسه ، ص 335 .

الفصل الرابع

النثر الأندلسي في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي

كان النثر في الأندلس يقتفي أثر قرينه في المشرق وينسج على منواله ويسير على نهجه ويجري في مضماره، وكان في الأندلس عدد كبير من الكتّاب الذين رقَ أسلوبهم وراق نهجهم وأمسكوا من الكتابة بخير زمام وملكوا منها ناحية الإتقان وضروب البيان[1].

قال الأندلسيون في كل فنون النثر التي عرفها العرب وزادوا عليها ما اقتضته ظروف حياتهم الخاصة، وهو وليد أمزجتهم وثقافتهم وأوضاع مجتمعهم وشاعريتهم؛ لأن أكثر أدباء الأندلس كانوا يجمعون بين النثر والشعر[2]، ومن أشهر هؤلاء الكتّاب الذين يجمعون بين النثر والشعر نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر "ابن برد[3]، وأبا المغيرة بن حزم[4]، وابن شهيد، وابن حزم، وابن زيدون، وابن أبي الخصال، وابن الخطيب.

ولم تقتصر الكتابة النثرية على الدواوين والرسائل، قصيرة كانت أو طويلة، سجعه أو مرسلة، في العشق والغرام، أو في الذم والمدح، بل شمل كل شيء في الاجتماع هناك،

---

(1)الشكعة مصطفى ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ،دار العلم للملايين بيروت،الطبعة الثالثة(1975م)، ص569.

(2) عتيق عبد العزيز ، الأدب العربي في الأندلس،دار النهضة العربية للطباعة والنشر،بيروت(1976م)، ص437.

(3) هو من أشهر كتّاب الأندلس، ويلقب بأبي حفص بن برد، وكان هناك ابنا برد أحدهما بلقب بالأكبر، والثاني بالأصغر، لم يعرف من أخباره (الأصفر) إلا القليل، أمّا ابن برد الأكبر هذا فقد كان كاتباً بليغاً، غُزّي بالأدب، وعلا إلى أسمى الرتب، توفي سنة (418هـ) بعد أن عاش نحو ثمانين سنة، انظر أمين أحمد ، ظهر الإسلام، يبحث في الحياة العقلية في الأندلس من فتح العرب لها إلى خروجهم منها، ويتكلم في الحركات الدينية واللغوية والنحوية، والأدبية، والفلسفية والتاريخية والفنية، ملتزمة النشر والطبع مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ج3، ص208-209.

(4) هو أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم الشاعر الكاتب، وهو ابن عم الفقيه الأديب ابن حزم المعروف، ومن أخباره (أبو المغيرة) إنّه تولى الوزارة للمستنصر بالله عبد الرحمن بن هشام، وتؤكد بعض المصادر على أنّه عاش في القرن الرابع وفجر القرن الخامس هجري، وقد طغت عليه شخصية ابن عمه فأغرقته في لجج من النسيان، انظر، زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، الطبعة الثانية، يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ج1، ص218.

وكان مظهراً لتلك المدنية، والحالة العقلية والسياسية والعلمية، وكان أثره في الأدب والبلاغة كأثر الشعر؛ لاشتماله على كثير من أغراض الكتّاب، كوصف المباني الضخمة والكنائس والمساجد. [1]

وكل النثر الذي كان في المشرق كان مثله في الأندلس، وكان متبعاً نفس التطور الذي حدث في المشرق، فأخذ الكتّاب الأندلسيون يقلدون كتّاب المشرق في كل شيء، فكان ما يشبه أسلوب (الجاحظ) عند بعض العلماء الذين رحلوا من المشرق إلى الأندلس؛ أمثال "صاعد بن الحسن البغدادي" فكانت كتابته أشبه ما تكون بكتابة الجاحظ من تلاعب بالمعاني، وغزارة فيها[2].

وقلدوا بديع الزمان والحريري وجروا على منوالهما، يصنعون رسائل ومقامات تشبه رسائلهم ومقاماتهم (كابن شهيد) في التوابع والزوابع، ولمّا بلغتهم صنعة (ابن العميد) ومدرسته رحبوا بها كل الترحيب؛ لأنها وافقت أذواقهم، حتّى التزموها في رسائلهم الخاصة، وكتبهم المؤلفة[3].

وكتبوا في المناظرات الخيالية، كالمناظرة بين السيف والقلم (لابن برد الأصغر)، كما كتبوا في الدعوات والإرشاد والتوسل إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- وفي شعائر الحج، وبرعوا في فن المقامات[4].

1-4 فنون النثر الأندلسي:

تعددت فنون النثر الأندلسي حيث شمل الرسائل والخطابة والتوقيعات والمقامات والحكم والوصايا، حيث قلدوا فيها كتّاب المشرق، ونسجوا على منوالها.

---

(1) ضيف أحمد ، بلاغة العرب في الأندلس، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة-تونس، الطبعة الثانية (1998م)، ص41-42.

(2) أمين أحمد ، ظهر الإسلام، ج3، ص205-206.

(3) المصدر نفسه، ص206.

(4)ضيف أحمد ، بلاغة العرب في الأندلس، ص42-43.

وسوف نختصر الحديث في هذهِ الدراسة على المكاتبات بشقيها الرسمية والأخوية أو الرسائل الرسمية والأخوية، بالإضافة إلى دراسة العهود في كتابي صبح الأعشى، للقلقشندي، ونهاية الأرب، للنويري) ؛ لأنها أشبعت بالدراسة، ولا نريد التكرار، إلا إن كتابي (صبح الأعشى، ونهاية الأرب) لم يأخذا حقهما بالدراسة لهذا السبب قصرت الدراسة في هذه الموضوعات على الكتابين المذكورين.

ويرى الباحث قبل الخوض في موضوعات المكاتبات الرسمية والأخوية أن يتعرض ولو بشيء بسيط للحديث عن الكتابة في الأندلس، وأنواع كتّاب الرسائل وأهمية الكاتب عند السلطان أو الملك.

4-1-1 الرسائل

تعريف الرسالة:

لغة: ما يرسل والخطاب كتاب يشتمل على قليل من المسائل،تكون في موضوع واحد،وبحث مبتكر يقدمه الطالب الجامعي لنيل شهادة عالية. [1]

اصطلاحا:

الرسالة قطعة من النثر الفني تطول أو تقصر تبعاً لمشيئة الكاتب وغرضه وأسلوبه، وقد يتخللها الشعر إذا رأى لذلك سبباً، وقد يكون هذا الشعر من نظمه أو مما يستشهد به من شعر غيره، وتكون كتابتها بعبارة بليغة، وأسلوب حسنٍ رشيق وألفاظٍ منتقاة، ومعانٍ طريفة[2].

قال القلقشندي في (صبح الأعشى): "هي جمع رسالة والمراد فيها أمور يرتبها الكاتب: من حكاية حالٍ من عدّوّ أو صيد، أو مدح وتقريض، أو مفاخرة بين شيئين، أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى، وسمّيّت رسائل من حيث إنّ الأديب المنشيء لها ربَّما

(1) المعجم الوسيط، مجمع اللغة قام بإخراجه،إبراهيم مصطفى،أحمد حسن الزيات،حامد عبدالقادر،محمد علي النجار،أشرف على طبعه عبدالسلام هارون،المكتبة العلمية ،طهران،ج1،ص344.

(2) عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص448.

كتب بها إلى غيره مخبراً فيها بصورة الحال، ففتحه بما تفتتح به المكاتبات، ثم توسّع فيها فافتتحت بالخطب وغيرها"[1].

أمّا المقري في حديثه عن الكتابة يقول: "هي على ضربين: أعلاهما: كاتب الرسائل وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس، وأشرف أسمائه الكاتب، وأهل الأندلس كثيروا الانتقاد على صاحب هذه السمة، لا يكادون يغفلون عن عثراته، فإن كان ناقصاً عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلّط الألسن في المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه، والكاتب الآخر هو كاتب (الزمام)، ولا يكون نصرانياً ولا يهودياً"[2].

والرسالة عند فايز القيسي هي "لون من ألوان النثر الفني الجميل، وضرب من ضروبه التي تنهال على القريحة انهيالاً، ولا يكاد يختلف مفهوم الرسالة الفنية عند الأندلسيين عن مفهومها عند المشارقة، فالأدب في عرفهم جميعاً ينقسم إلى أصلين أساسيين منظوم ومنثور، والمنثور منه الخطب والرسائل، وهما فن واحد أو فنان متقاربان يقابلان الشعر"[3].

ويقول أيضاً إن(الأدباء الأندلسيين) يطلقون لفظ رسالة على ما ينشئه الكاتب في نسق فني جميل في غرض من الأغراض، ويوجَّهَه إلى شخص آخر، ويشمل ذلك الجواب والخطاب، كما كانوا يطلقون لفظ رسالة أحياناً على القصائد والمقطوعات الشعرية التي ينظمها الشاعر على شكل خطاب موّجه إلى صديق أو غيره في أي موضوع، كما ذكر بأن هناك ألفاظ مرادفة لمصطلح رسالة في الأدب الأندلسي كلفظ (كتاب) وهو يدل على ما يدل عليه لفظ رسالة في الأدب الأندلسي، ولفظ (صحيفة) (وقد أورد أمثلة على ذلك)[4].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص138-139.

(2) المقري، نفح الطيب، ج1، ص217.

(3) القيسي ، فايز عبد النبي فلاح ، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (1409هـ-1989م)، ص83.

(4) المصدر نفسه ، ص78-82.

وللكاتب مكانة مرموقة عند السلطان، لا يصل إليها أحد سواه، وقد ذكر القلقشندي أهمية مكانة الكاتب بقوله: "ليس في منزلة خدم السلطان، والمتصرفين في مهامته أخصُ من كاتب الرسائل. فإنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه، ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه، والإفضاء إليه بمهماته، وتقريبه من نفسه في أناء ليله وساعات نهاره وأوقات ظهوره للعامة وخلواته، وإطلاعه على حوادث دولته ومهمّات مملكته؛ فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصته ثقته بهِ، ولا يركن إلى قريب ولا نسيب ركونه إليه، ومحلّه منه في عائدة خدمته وأثرة دولته محلّ قلبه الذي يؤامره في مشكل رأيه حتّى يتنقح، ويراجعه في مهمّ تدبيره حتّى يتضح؛ ولسانه الذي يقرّر بترغيبه أولياءه على الطاعة والموافقة، ويستقر بترهيبه عن المعصية والمشاقة، ويقرّ بأوامره ونواهيه أمور سلطانه ... وعينه التي تلاحظ أحوال سلطانه ... ويده التي يبسطها بالأنعام، ويبطش بها في النقض والإبرام"[1].

وهذه منزلة عظيمة لا تكون لشخص غير الكاتب، يتمتع بها بمرافقة السلطان حيث يكون عينه التي يرى بها وأذنه التي يسمع بها، ويده التي يبطش بها.

2-1-4 الرسائل الرسمية

تعددت مجالات هذا النوع من الرسائل وأغراضه وتنوعت، فشملت كل ما يتصل بشؤون الدولة في السلم والحرب في داخل البلاد وخارجها[2]، ومع ذلك فهذا النوع من الرسائل مهما بولغ في إجادته الفنية، فإنه لا يخرج عن كونه متصلاً بحادث أو أمر عارض، وقلما تكون له صفة الدوام التي تهم الناس في كل زمان ومكان[3]، كما تتسم هذه الرسائل بالتأنق في اختيار الكلمات وكثرة الدعاء والتحميدات والمجاملات، مع الاقتباس من القرآن والحديث الشريف، والشعر العربي[4].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص101-102.

(2) العربي، سالم الشريف، دراسات في الأدب الأندلسي، دار شموع الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (2003م)، ص209.

(3) عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص449.

(4) العربي، دراسات في الأدب الأندلسي ، ص209.

وتكاد تكون هذه الرسائل تتوفر كلها على وحدة الموضوع، وتجدر الإشارة إلى أن النصوص التي بين أيدينا في (صبح الأعشى، ونهاية الأرب) لا تمثل كل ما أصدرته الأندلس إلا أنّها تعد أنموذجاً يقرب لنا الصورة التي كانت عليها مثل هذه المكاتبات الرسمية.

4-2 مجالات الرسائل الرسمية:

شملت الرسائل الرسمية عددا من الموضوعات مثل أخذ البيعة، وتنصيب العمال والوزراء والقضاة، والتهاني، والبشارات، والمجاوبة على الكتب، والشكر .

4-2-1 أخذ البيعة:

وفيها يتم وضع الكلمات في معانيها الحقيقية، والبعد عن الزخرفة والألفاظ ذات المدلولات الواسعة التي تحتمل التأويل، وتشرح في الرسالة فائدة الائتلاف والاتحاد، وتبسط أضرار المخالفة، ثم تختتم الرسالة بشروط تصل أحياناً إلى حدّ التعجيز ردعاً لمن تسول له نفسه الإخلال بالبيعة المنعقدة أو التلاعب بشروطها[1]، ونستشهد هنا على رسائل أخذ البيعة بما كتبه "الطاهر الأندلسي" في أخذ البيعة على أهل دانية من الأندلس، حيث بدأت الرسالة بتحميدة واحدة؛ يقول: " الحمد لله الذي أسبغ إنعامه باطناً وظاهراً، وسوغ أفضاله هاملاً وهامراً؛ وأعجز عن وصف إحسانه ناظماً وناثراً..."[2].

ثم حمد الله – عزوجل– على نعمه، وشكره على منته؛ يقول "نحمده سبحانه على نعمه حمد من أصبح لعلق الحمد ذاخراً، ونشكره على منته ولن يعدم المزيد منه شاكراً؛ ونضرع إليه أن جعل حظَّنا من بركة الاعتصام وافر، ووجه نيتنا في الانتظام سافرا.."[3].

---

(1) العربي، دراسات في الأدب الأندلسي ،ص210-211.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص298.

(3)المصدر نفسه، ص298.

ثم يتعرض للحديث عن الإمامة حيث؛ يقول: "أمّا بعـد، فـإنَّ الله سـبحانه جعـل الإمامة للناس عصمة، ومنجاة من ريب الالتباس ونعمه، بهـا تتمهَّـد عمـارة الأرض، ويتجدّدُ صلاحَ الكلِّ والبعض؛ ولولاها ظهر الخلل، واختلط المرعيُّ والحمل؛ وارتكبـت المآتم، واستبيحت المحارم؛ واستحلَّت المظالم، وانتقم من المظلوم الظالم؛ وفسد الائـتلاف وافترق النّظام، وتساوى الحلال والحرام[1].

ثم يتعرض للحديث عن صفات رعاة أمرهم والمقصود (الخليفة) بـأنهم يتـصفون بالعدل والتواصل مع الرعية، حيث شعر الناس بفضل إمامتهم من حماية الـبلاد والـذود عنها؛ يقول: " فاختار لأمرهم رعاة أمرهم بالعدل فعدلوا، وبالتواصل في ذات الله والتَّقاطع فقطعوا في ذات الله ووصلوا؛ ... ونهضوا بأعباء الكفاية والحماية واسـتقلّوا، وألـزمهم الاتفاق والانقياد وحظر عليهم الانشقاق والعناد؛ فملكوا بأزمَّة العقل قياد الأمور، وأشرقت بسيرتهم المباركة أقاصي المعمور؛ وشاهد الناس فواضل إمامهم، وتبينوا مـن سـيرتهم العادلة علوّ محلّهم في الخلائف ومقامهم ...." [2].

ويصف قيامه بالخلافة قيام الخلفاء الراشدين – رضي الله عنهم أجمعـين– وقـد خلدت الإمامة لهم إلى يوم الدين، ويصفه بالأسد الهـصور مـن أبـوه المـأمون وجـده المنصور؛ يقول " وقام بالإمامة مثل ما قام بها الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعـين، وخلّد في عقبهم الإمامة إلى يوم الدّين؛ وهو الأسد الهصور، ومن أبوه المـأمون وجـدّه المنصور؛ العريق في الخلافة، والحقيق بالإمامة والإنافة؛ فجمع ما افترق، ونظَّم الأمـور ونسَّق؛ ومنع الحوزة أن تطرق والملة أن تفترق أو تفرّق"[3].

ونستشهد بمثال أخرى على رسائل أخذ البيعة بما كتبه (أبو المطرف بـن عميـرة الأندلسي) يأخذ البيعة على أهل شاطبة من الأندلس لأبي جعفر المستنصر بالله العباسـي وقام بعقدها (أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود) صاحب الأندلس، حيث بدأت الرسـالة بالتحميدات، ثم تحدث عن (المسودة) الذين أعادوا للأمر رونقه، وحموا حرم المـسلمين،

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص299.

(2) المصدر نفسه، ص300.

(3) المصدر نفسه، ص300.

وأحيوا سنة ابن عمهم سيد المرسلين، فأصبحت الأمور مضبوطة والثغور محوطة، والسبل آمنة[1].

وتحدث عن وضع الرعية قبل بني العباس، "حيث كان الناس قبلهم قد ركبوا الصَّعب والذّلول، وامتطوا الحزن، والسُّهول، فوثقوا منهم بطاعتهم، واستخلفوهم على بيعاتهم ..." [2].

يقول في هذهِ الرسالة: "لمَّا دعا الناس بالمملكة الفلانية حماها الله إلى حجَّتهم القويَّة، وإمرتهم الهاشميّة؛ مجاهدُ الدين، بسيف أمير المؤمنين، جمال الإسلام، مجد الأنام، تاج خواصّ الإمام؛ فخر ملوكه، شرف أمرائه؛ المتوكل على الله تعالى أمير المسلمين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود، أسعد الله أيامه ... وقام لذلك متوحّداً لمقام الكريم، مشمّراً عن ساعد التّصميم ماضياً على الهول مضاء الحسام القاضب ... وجعل التوكل على الله سبحانه شريعة منيعة وذريعة معينة؛ وتقدم –أيده الله– بأخذ البيعة على نفسه وعلى أهل الملّة قاطبة للقائم بأمر الله سيّدنا ومولانا الخليفة الإمام المستنصر بالله أبي جعفر أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آله الخلفاء الراشدين؛ وكان له في ذلك المرام السَّعيد، والمقام الحميد ..." [3].

ومن نثره قوله:وكتابي هذا إليكم وقد اتفقت الكلمة في وضع رأس الإمارة على كاهله ونصل الإمامة في نصابه،وأعدنا الحق إلى أهله،أصفقنا على بيعة رضى واتفاق وطاعة لعبد الله أمير المؤمنين المتأيد بالله–أيده الله–وطهرنا المنابر من دنس تلك الدعوة استعارة،وهتفنا هتف التيباشير،وقامت بها الخطباء على المنابر،وانجلت العناية على فلق الصبح،واقتلعت الظلمة عن وضح الشمس،وأزاح الله غضة الشرب ،وسجى الإفك،والرمز يكفيكم،والإيماء يغنيكم،ولما استوسق الأمر على منهاجه،واستتم الأمر على أدراجه،هززنا لكم هزة التذكير ورمينا إليكم باليسير. [4]

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص304.

(2) المصدر نفسه، ص304.

(3) المصدر نفسه ، ص304–305.

(4) العمري،مسالك الأبصار،ج11،ص246–247.

وهذه رسالة في بيعة إمارة كتبها الوزير أبو جعفر أحمد بن عبـــاس ، للمؤيـــد بـــالله عبدالله أمير المؤمنين ، حيث وضح فيها أن الجماعة (المسلمين) ، قد اتفقوا علـــى بيعـــة المؤيد أميرا عليهم رضا منهم وطاعة ، وقد هتف الناس بهذه البيعة هتف التباشير، وقـــام الخطباء على بيعة على المنابر ، وبهذه البيعة فقد انجلت العنايـــة علـــى فلـــق الـــصبح ، واقلعت الظلمة التي كانت تسيطر عليهم فيما قبل ، وأزاح الله عـــنهم كـــل أنـــواع الـــذل والمهانة ، وتبدل الحال إلى الحسن و الأفضل .

2-2-4 رسائل تنصيب العمال والوزراء والقضاة:

ويشتمل هذا النوع من الرسائل على ذكر من وقع عليه الاختيار لهذا المنـــصب أو ذاك وأهمها الثقة والأمانة، والجد والاجتهاد، ثم يطلب من أهل البلد أو الناحية المبعـــوث إليها التزام الطاعة له، وعدم الخلاف عليه، وقد تشمل بعـــض التوجيهـــات والتعليمـــات لصاحب المنصب الجديد[1]. ونستشهد على هذا النوع من الرسائل بما كتبه (أبو عبـــد الله محمد بن عبد الله القضاعي، المعروف بابن الآبار عن الأمير (أبي جميل) إلى أهل ناحية بولاية والٍ عليهم؛ وهي:

"... واعلموا أنّا نرعاكم، كما رعى أوّلنا أولاكم؛ وقد عُيِّن لموضعكم كذا وكذا فأنفذوا إلينا بعضكم معجلاً، واستشعروا إنماءَ الأثرة، وأطراد النصرة، حـــالاً ومـــستقبلاً؛ والحركـــة الكبرى – يمنَّها الله– قد شرع في أسبابها، وأُتى ما يؤتى بمشيئة الله الفتح القريـــب مـــن بابها، ولا غنى بما يدار في ذلك عن فلان وقد خوطب بالوصول، ووجّه إليكم فلان واليـــاً عليكم، وثاوياً لديكم وهو ممن خبرت كفايته، وارتضيت لجبر أحوالكم سياسته، وشُكر هنا فأُوثرتم به هنالكم؛ وقد فوّض إليكم من نظر لخاصتّكم وجمهوركم، وقلد بما يـــستقلُّ أتـــمَّ الاستقلال من تدبير أموركم؛ وأمضى معه من الأجناد طائفة يحسنون الدفاع والـــذِّياد، ولا يفارقون الجدّ والاجتهاد؛ ووراء هذا من كريم العناية وجميل النظر، ما يقضي لكم بـــالفلج والظَّفر، ويديلكم بالأمانة الشاملة من الذّعر والحذر، إن شاء الله تعالى والسلام"[2].

---

(1) العربي، دراسات في الأدب الأندلسي، ص211.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص36-37.

بدأ الكتاب بحمدالله عز وجل وبيان عظيم فضله ونيله " الحمدالله الجسيم فضله ، والعظيم نيله ، فاحمدوا الله على مايسر لنا ولكم ، واستوزعوه شكرما خولنا وخولكم " ثم يتحـدث فيه عن رعايتهم لهم وحسن اختيار الوالي المناسب والصالح لتولي شؤون أمـرهم الـذي يأتي على يده النصر القريب ، ثم يتحدث عن صفات الوالي الجديد وهي الكفايـة الغاليـة التي خيرها الخليفة فيه ، وحسن السياسة ، وقد أمضى معه مجموعه من الأجنـاد الـذين يحسنون الدفاع والذياد ولا يفارقون الجد والاجتهاد ، في العمل من اجل النصر والظفـر، ويحيطكم بالامانه الشاملة من الذعر والحذر، ثم يختتم الكتاب بالسلام والتوفيق من الله .

ونستشهد هنا أيضاً برسالة وجهها ابن الآبار إلى أهل بلد بولاية قاضٍ؛ وهي:

"... وقد علمتم –وصل الله كرامتكم– أنَّ الأحكام الشرعية هي ملاك الأمـور ونظامهـا، وعليها مدار الأعمال الدينية ولها تمامها؛ وأنه لا يصلح لها إلا من تجرد عن هواه، وأكثر الحقَّ على ما سواه؛ واتبع حكم نبيّه –عليه السلام– في كلِّ مـا عملـه ونـواه، وتجمَّـل بالدِّراية وحمل الروّية فكانتا أظهر حلاه؛ وأتسم بالعدل والاعتدال فيما وليه مـن ذلـك أو تولاَّه، وكان ممن أطلق الحقُّ لسانه وقيَّد الورع يمناه ... وشهد له الاختيار بالأنكفاف عن كل سابق وغائب، وعن ارتكاب الشنّيات إلى السَّنين اللاحب؛ وذلكم "فلان" أدام الله كرامته وتوفيقه ... والوصية بتقوى الله فهي التي تعصم العامل بها وتنجيه؛ فقد وصّى بها الله من اختاره من خلقه لإقامة حقه وارتضاه، فقال تعالى: (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتابَ مـن قبلكم وإياكم أن اتقوا الله). فتلقوه أدام الله كرامتكم بنفوس منبـسطة، وقلـوب مبتهجـة مغتبطة، وأهواءٍ على التظافر... (1).

يفتتح الكتاب بالحديث عن أهمية الأحكام الشرعية التي هي ملاك الأمـور ونظامهـا، وعليها تدور الأعمال الدينية، ثم يتحدث عن صفات من يقوم بهذا العمل فعليه التجرد عن هواه، ويتبع الحق ولا شيء غير الحق، وعليه إتباع السنة النبوية الشريفة في كل أعماله، ويتجمل بدرايه الكافية، وان يتسم بالعدل والاعتدال، وان يكون طلق اللسان بـالحق، وان يشهد له بكل هذا مع الابتعاد عن ارتكاب الشنيات، ثم يذكر في نهاية الكتاب اسم الـوالي الجديد الذي يتمتع بهذه الصفات .

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص304.

ومنها أيضاً ما كتب بولاية وزارةٍ، ونستشهد هنا بما كتبه أبو المطرِّف بن عميرة؛ وهو: " مكتوبنا هذا بيد فلان أدام الله علاءه، وحفظ عنايته وغناءه؛ يجد به مكان العِــزَّة مكينـــا، ومورد الكرامة عذبا معينا، وسبيل الحرمة المتأكدة واضحاً مستبيناً؛ ويتقلد وزارتنا تقلُّــد تفويض وإطلاق، ويلبس ما خلع عليه منها لبسة تمكُّن واستحقاق، وينزل من رتبتها العليا منزلةً شرفها ثابت وحماها باق؛ ويسوَّغ الدار المخزنية التي يسكنها بغلافة تسويغاً يملكَّــه إيّاها أصحَّ تمليك، ويفرد فيها من غير تشريك؛ إن شاء الله تعالى والسلام"[1].

يشير الكاتب إلى مكانة وأهمية هذا المنصب الذي كلــف بالإناطــة بــه وهــو ولايــة الوزارة،لما لها من أهمية كبيرة ومميزة في الدولة الإسلامية؛فهي رتبة عليا،وشرف ثابت لمن يتولاها.

4-2-3 رسائل التهاني:

وفي هذا النوع من الرسائل تتم التهنئة من السلطان لنظيره بفتح أو نحوه، ويتــسم هذا النوع عادة من الرسائل بالطول والإسهاب، مع مــدح صــاحبه، وإضــفاء النعــوت المتعددة عليه، ثم تختتم الرسالة بالتهنئة بالأمر المعني مع الدعاء لصاحبه مرة أخرى[2].

ومن الأمثلة على هذا النوع من الرسائل مــا كتبــه ابــن الخطيــب عــن ابــن الأحمر(الغني بالله) إلى أبي عليّ الناصر ابن السلطان أبي الحسن المريني بفاس، عنــدما أرسله والده إلى ناحية من النواحي لعمارتها وإصلاح حالها، مهنئاً له بما أجراه الله علـــى يديه من الصلاح ، افتتحت الرسالة بمخاطبة الأمير بالعديد من الألقاب ، والسلام الكريم، ثم يتحدث عن موضوع الرسالة وهي التهنئة على حسن الصنيع بالعمــل علــى عمــارة وإصلاح النواحي، ثم يضمن كتابه بما يكنه له من الحب ،والــسؤال عــن أحــوال هــذه النواحي، ثم يطلب منه أن يعلمه بما لديه في هذه النواحي من الصنائع المتجددة ، ثم يختتم الرسالة بالدعاء له بالسعد والحفظ ؛ وهو: "الأمير الأجلّ، الأعز، والأســمى، الأطهــر، الأظهر، الأسنى، الأسعد، الأرضى، المؤيد، الأمضى، الأفضل، الأكمل، أبو عليّ الناصر ابن محلِّ أبينا الذي نعظمه ونجلُّه، ونوجب له الحقّ الذي هو أهله؛ السلطان

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص306.

(2) العربي، دراسات في الأدب الأندلسي، ص212.

الجليل الكذا أبو الحسن ابن السلطان المؤيد ... سلام كريم، برُّعميم؛ تتأرّج الأرجاء من طيب نفحته، ويشرق نور الودّ الأصيل على صفحته، يخصُّ أخوتكم الفاضلة وإمارتكم الحافلة؛ ورحمة الله وبركاته.

... فكتبنا إليكم هذا الكتاب نهنئكم بما سناه الله لمجدكم الرفيع، من حسن الصنيع؛ ونقرّر ما عندنا من الود الكريم، والحب الصميم، ونستفهم عن أحوال أخوتكم لنكون من علمها على السنن القويم ؛ وحتى لاتزال الأسباب متصلة ، والمودة جديدة مقتبلة ؛ ولولا العوائق المانعة ، والشقة البعيدة الشاسعة ، والأمواج المترامية المتدافعة ؛ لم نغب المخاطبة ، ولوصلنا المراسلة والمكاتبة ؛ ومجدكم يقبل الأعذار الصحيحة بمقتضى كماله ، ومعهود أفضاله ؛ ... والله تعالى يصلح بكم الأحوال ؛ ويسكِّن الأهوال، ويبلّغكم من فضله الآمال. وغرضنا أن تعرّفونا بما لديكم من المتزيدات، والصنائع المتجددات، وبما عندكم من أحوال محلِّ أبينا وصل الله عوائد النصر لسلطانه، وتكفل بإعلاء أمره ، وتمهيد أوطانه . وقد كتبنا إليه صحبة هذا كتابا غرضنا من إخوتكم الطاهرة ، أن يصل إلى حظرته العلية تحت عنايتكم ووصاتكم ، والرعاية التي تليق بذاتكم ؛ ... وهو سبحانه يصل سعدكم ويحرس مجدكم، ويحفظ ولاءكم الكريم وودّكم؛ والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته ..." (1).

ونستشهد هنا أيضاً بما كتبه أبو المطرف بن عميرة إلى المتوكل بن هود، عن نفسه، يهنئه بوصول هدية الخليفة العباسي إليه من بغداد؛ يقول فيه:

"... وحين صدور رسول دار السلام، ومثابة أهل الإسلام؛ ومقعد لجلاله، ومصعد إقرار الرسالة؛ ومعه الكتاب الذي هو غريب، أنس به الدِّين الغريب وبعيد الدار نزل به النصر القريب، وآية بأدلتها الصادقة لتبطيل الشُّبَه الآفكة وسكينة من ربنا وبقية مما ترك آل نبينا تحمله الملائكة – أطمأنت القلوب، وحصل المطلوب، ودرت أخلاف الإيناس وارتفع الخلاف بين الناس ... (2).

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص56-59.

(2) المصدر نفسه، ص98.

4-2-4 رسائل البشارات:

و في هذا النوع من الرسائل يتم فيه شرح الأمر الذي يبشر به، والذي يكون غالباً فتح حصن أو انتصار في معركة، أو موت عدو، حيث يورد فيها الصعوبة في فتح الحصن أو الانتصار في المعركة، مع تمجيد البطولة وذكر الأبطال في المعركة، ومن ثم يطلب فيها أن ينشر الخبر بين الناس(1).

ومن الأمثلة على هذا النوع من الرسائل ما كتبه أبو المطرَّف بن عميرة عن ابن هود(الأمير أبو محمد عبدالله بن هود) في البشارة بفتح حصن؛ وهو:

"كتابنا إليكم – أطلع الله عليكم من البشائر أنورها. جبيناً، وأوضحها صبحاً مبيناً- من فلانة في يوم كذا. سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي تكفل بنصر من ينصره، ونصلي على سيدنا محمد الكريم محتدة الزاكي عنصره ... وما زلنا منذ كان النزول على هذا الحصن نتعرّف فيه من مخايل النجح، ودلائل الظّفر والفتح؛ ما أعطانا فثلجَ اليقين بأنا نفصم عروته، ونفرع ذروته، ولم يزل العزم يذلّل شماسة، ويقلّل ناسه ... وأمكن الله من هذا المعقل الفذ في المعاقل، وقتل الضانين لامتناعهم والحسام إن شاء الله تعالى في يد القاتل؛ وقد صعدت راياتنا على السّور، وسعدت إدارتنا بالعزم المنصور، ويشيَّد الله من هذا الفتح الجليل أقصى الفتوح بعلوّ، وأشجاها للعدوّ، وأدلّها على نجح عملٍ مستأنف وبلوغ أملٍ مرجوّ ... وعرّفناكم بهذا الخبر الذي هو غذاء للروح، والمنبئ عن فتح الفتوح: لتشكروا الله عليه شكراً، وتوفّوه حقه إذاعةً له ونشراً ... واكتبوا من خطابنا هذا نسخاً إلى الجهات ليأخذ منها كلٌّ بحظه، وينعم القريب والبعيد بحلاله معناه وجزالة لفظه؛ أعاننا الله وإيَّاكم على شكر إحسانه الجزيل، ولا أخلى من لطفه العميم ونظره الجميل، بمنه والسلام"(2).

يفتتح الكتاب بالإشارة بما أطلعه الله عليهم بهذا الفتح العظيم ، ثم حمدالله عز وجل الذي تكفل بنصر من ينصره ، ثم الصلاة على النبي العربي ، ثم يتحدث في الكتاب عن كيفية فتح هذا الحصن ، والصعوبات التي واجهتهم حتى تمكنوا بعون الله من فتحه ،

---

(1) العربي، دراسات في الأدب الأندلسي، ص213.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى ، ج7، ص37-38.

وإعمال السيف في الأعداء ، ورفع راية الإسلام فوقه ، ثم يطلب أن يكتب أكثر من نسخة من هذا الكتاب حتى توزع على أكثر الجهات الإسلامية حتى يعلموا بعظيم هـذا الفـتح ، ويختتم الكتاب بشكر الله على إحسانه الجزيل .

5-2-4 رسائل المجاوبة على الكتب:

وفيها يتم الرد على الرسائل الواردة من الحكام المجاورين، وتتسم هـذه الرسـائل عادة بالطول إلى حد الإملال، ثم ينتقل إلى وصف الكتـاب الـوارد وإظهـار محاسـنه وبلاغته، وما احتواه من معاني الود والإخلاص، ويختتم بالرد على الكتاب الـوارد إلـى السلطان(1).

ومن الأمثلة على هذا النوع من الرسائل ما كتبه أبو المطرف بن عميرة عن بعض ملوكهم في جواب كتابٍ ورد عليه بطاعة بلد؛ يقول فيه:

"قد وصل كتابكم – وصل الله معونتكم وكلاءتكم– تذكرون ما تقرر عنـدكم هنالـك مـن أحوال تلك الجهة، وباشرتموه من أمورها؛ وأنتم عندنا بمحل الـصدق، ومكـان الإيثـار للحق. وقد رسمنا لكم أن تثبتوا في أهل تلكم الجهات كلَّها حميد الرأي فيهم، وحسن القبول لإنابتهم، وقصد الرفق بخاصَّتهم وعامتهم، وأنّا قد تقبلنا أوبتهم، واغتفرنا زلّتهم؛ وأولـئكم المتشذبثون بسبب الذِّمام، عرّفوهم أنكم رغبتم في شمول الصفح عنهم، والإقالة لمـا كـان منهم ... وإن كان أطيب لنفوسهم أن يصلهم مكتوب بذلك عرفتمونـا، ووجَّهنـاه إلـيكم، وأقيموا أنتم هنالكم أيّاماً خلال ما يصلكم من متثاقل الأحوال ما تطالعون بهِ، وتخـاطبون بما تعتمدونه إن شاء الله. أدام الله كرامتكم ..." (2).

ومن الأمثلة الأخرى نستشهد بما كتبه الوزير أبو جعفر أحمد بـن عبـاس(3):قـرأت الرقعة الكريمة التي ناولتنيها اليد العزيزة وكأن البدر مـد إلـي يـدا تختمـت بـالنجوم

---

(1) العربي، دراسات في الأدب الأندلسي، ص214.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص110–111.

(3) الوزير الكاتب أبو جعفر احمد بن عباس وزير زهير الصقلي ملك المرية ،كان حسن الكتابـة،جميل الخط،ملـيح الخطاب،غزير الأدب،قوي المعرفة،مشاركاً في الفقه،حاضر الجواب ،جماعاً للدفاتر.حتى بلغت اربعمائـة الـف مجلد،وبلغ ماله خمسمائة الف مثقال جعفرية،وكان مقتله بيد باديس بن حبوس ملك غرناطة،انظر المقـري ،نفـح الطيب،ج3،،ص535.

الزاهرة،أو الدهر أعطاني أمانا من خطوبه الزاهرة ،وعاينت وشيا منمنما وأبصرت ربطا مسهما،وطفقت ألتمس المجازاة وأروم المباراة،فإذا شأوي حسير،وباعي قصير،وفمي ملجم ،ولساني مفحم ،لإني تعاطيت مباراة أسد العرين وهو خادر،وموج البحر وهو زاخر.. (1)

وهذه رسالة كتبها الوزير أبو جعفر أحمد بن عباس ردا على رسالة قد وصلته ، ويوضح فيها قيمة هذه الرقعة وأهميتها عنده ويصف صاحب الرقعة بأنه ذو يد عزيزة ، وكأنه البدر الذي مد إليه يدا إمتلأت بالنجوم الزاهرة، وكأنه الدهر الذي أعطاه أمانا من خطوبه الزاهرة ، ثم يصف الرقعة بأنها ، وشيا منمنما ، وربطا مسهما، ويقول بعد أن قرأت هذه الرقعة،ألتمست مجاراة ومباراة هذه الرقعة الكريمة ، فإذا باعي قصير ، وفمي ملجم ، ولساني مفحم ، لأني أردت مباراة أسد العرين وموج البحر الزاخر، وهذه الصفات تدل على مدى موهبة وقدر صاحبه على الكتابة حتى أنه لا يستطيع مجاراته فيها .

ومن الأمثلة الأخرى نشتسهد بما كتبه الوزير الرئيس أبو عبد الرحمن محمد بن طاهر(2) ،كتابا ردا على كتاب قد وصله ومنه قوله:ووافاني لك كتاب كريم،كما طرز البدر النهر،وكما بلل القطر الزهر،طوقني طوق الحمامة،وألبسني ظل الغمامة،وأثبت لي فوق النجم منزله،وأراني الخطوب نائية ومعتزلة ،فوضعته على رأسي إجلالا ولثمت كل سطر احتفاء واحتفالا،وفتحته وأخذت منه للسعادة فألا. (3)

يصف الكاتب هذا الكتاب بالعديد من الصفات الجميلة،فهو كالبدر الذي يطرز بجماله النهر ،وكالقطر الذي يبلل الزهر فيعطيه أجمل المناظر،وكالطوق الجميل الذي طوقه،وكالغمامة التي أظلته من حر الشمس،وبهذا الكتاب جعلت لي منزلة عالية ،وأزالت عنه المصائب،ثم يقول وضعت هذا الكتاب على رأسي اجلالا لما فيه من كلام جميل ،والتثمت كل سطر فيه لما فيه من معاني جميلة ،وعندما فتحته فقد فتجت لي أبواب السعادة.

---

(1) العمري،مسالك الأبصار،ج11،ص247.

(2) محمد بن احمد بن سحاق،كانت وفاته سنة 507هـ أو 508هـ ببلنسية ،وكان أبوه أبو بكر من أعلام التدمير،بلغت وفاته قرطبة سنة 455هـ،وآل طاهر كانا ذوي بيت عامر وعدد وافر يفتخرون بالعروبية ويتسمون في قيس عيلان،انظر ابن بسام ،الذخيرة،ق3،م1،ص24.

(3) العمري،مسالك الأبصار،ج11،ص248.

6-2-4 رسائل الشكر:

ويتم فيها إسداء الشكر على صنيع سابق للشخص الذي يتولى الحكم، وقد تكون موجه إلى سلطان دولة أخرى قدم صنيعاً إلى أهل دولته، ويعبر في الرسالة عن جزيل شكره وامتنانه على هذا الصنيع، وقد حفل التاريخ الأندلسي بالعديد من هذهِ الرسائل، وخصوصاً في سنوات القحط التي مرت بها الأندلس في العصور الأخيرة من تاريخ المسلمين فيها، وقد عبر ابن الخطيب في رسالة وجهها على لسان السلطان إلى ملك المغرب عندما بعث بطعام إلى أهل الأندلس في سنة قحط، فبعث إليه يشكره على صنيعه هذا، وسوف يتم عرض الرسالة في الحديث عن نثر ابن الخطيب في الفصل الرابع إن شاء الله.

ومن النماذج على هذا النوع من الرسائل نستشهد برسالة بعث بها أبو الميمون عن بعض أهل دولتهم إلى الناصر لدين الله أحد خلفائهم، يشكر فيها الخليفة على نعم قد أسداها لهم، وقد بدأ الرسالة بألقاب عديدة أضفاها على الخليفة؛ يقول منها:

"المقام الأعلى، المقدّس، المكرّم، الأمامي، الطاهر، الزّكيّ، مقام الخليفة المؤيد بنصر الله، الإمام "الناصر لدين الله" كلأ الله جلالهم، وفيأ ظلالهم ... كتب عبد المقام الأعلى، والنَّدى الذي أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان واحتوى على الفضائل واستولى، من موضع كذا حماه الله تعالى ... وردت لك بهذه الجهة انقطاع المواساة، وامتناع الألسن بالمكابدة لشظف العيش والمقاساة؛ وإلى المقام الأعلى الأسنى نفزع حين نفزع، ونذهب حين نرجو ونرهب، ونلجا فلا تؤخر طلباتنا ولا ترجا ... والتضرُّع في إدرار ما جزر من تلك المنَّة، وغيض من فيض تلك النعمى؛ وينهى من رغبته في بركة تلك الأدعية، التي هي للخيرات كالأوعية؛ ما يرجوه بشفاعة تأكُّد الامتنان، ومجرَّد عوارض الرأفة والحنان والرب تعالى يبقي المقام الأعلى والنصر له مظاهر، والخير لديه متظاهر، والسعد لوليه ناصر، ولعدوّه قاهر ، بحول الله تعالى وقوّته لأربَّ غيره، ولا خير إلا خيره؛ والسلام"[1].

(1) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج6، ص532-533.

4-2-7 الرسائل الوصفية:

تبعث هذه الرسائل التي عادة ما تكون مقترنة بتلك الفتوحات العسكرية والإنتصارات العظيمة التي حققتها الجيوش الأندلسية،في البلدان المفتوحة،وتقدم وصفا كاملا للمعركة والجيوش وشجاعة القادة والجنود فيها،كما تقدم وصفا للمدن والحصون من مناعة الأسوار ،وقوة الدفاع عنها. ومن الأمثلة على هذا النوع من الرسائل، رسالة كتبها ابن الخطيب عن سلطانه ابن الأحمر إلى عجلان سلطان مكة شرّفها الله تعالى وعظمها، يخبره فيها فتحهم للعديد من المدن والحصون في الأندلس، ثم يقدم وصف لكل مدينة وحصن من مناعة الأسوار، وكثرة الجموع فيها، وخيرات هذه المدن والحصون التي أصبحت في يد المسلمين، ثم يصف ما كانت عليه الجيوش الإسلامية من شجاعة، عندما تهاجم هذه المدن والحصون، فتسفك دماء الأعداء؛ يقول فيها:

"... فإنا كتبناه إليكم – كتب الله لكم عنايةً تحجب الأسواء [بجننها] الساترة ، ورعاية تجمع الأهواء المختلفة والقلوب المتنافرة – من حمراء غرناطة دار الملك الإسلامي بالأندلس – حرسها الله ووفرّ جموع حاميتها المثاغرة– ... ولا زالت سحائب رحمة الله الحائطة لها الغامرة، تظلِّل جموع جهادها الظافرة، وتجود رمم شهدائها الناخرة، ونعم الله تحط ركائب المزيد في نواديها الحامدة الشاكرة[1] ..." .

وبعد مقدمة طويلة تحدث فيها عن أهمية الجهاد في الأندلس، وكيف يتم تعليم الأطفال على الجهاد، وتعلم القرآن، وشرح له وضع الإسلام في تلك البلاد، ومن ثم يصل إلى الحديث عن فتح المدن والحصون في تلك البلاد؛ حيث يقول:

ففتحنا مدينة (برغة) الفاصلة كانت بين البلاد المسلمة، والشَّجا المعترض في نحر الكلمة؛ وتبعتها بنات كنَّ يرتضعن أخلاف درّتها، ويتعلّقن في الحرب والسلم بارزتها. ثم نازلنا حصن (آش) ركاب الغارات الكافرة، ومستقر الشوكة الوافر فرفع الله إصره الثقيل، وكان من عثرة الدّين فيه المقيل.

(1) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج7، ص49-50.

ثم قصدنا مدينة (الجزيرة) بنت حاضرة الكفر، وعرين الأسود الغلب وكناس الظباء والعفر؛ فاستبحناها عنوة أضرمت البلاد ناراً، ودارت بأسوارها المنيعة سواراً، واستأصلنا أهلها قتلاً وإساراً؛ وملأت الأيدي من نقاوة سبي تعددت آلافه، وموفور غنم شذت عن العبارة أوصافه.[1]

ويتابع حديثه عن وصف الفتوحات الإسلامية للمدن والحصون، حتّى يصل إلى مدينة (جيان) وشهرتها المعروفة في المعمورة، وهي مدينة غنية، ففتحتها الجيوش الإسلامية عنوة عن مقاتليها، ودكت أسوارها، وأضرمت النار فيها، وعقرت أشجارها؛ يقول:

" ثم كانت الحركة إلى مدينة جيَّان وشهرتها في المعمورة، وشياع وصفها المشهور، تُغنى عن بسط مالها من الأمور؛ ففتحها الله على يدينا عنوة وجعلت مقاتلتها نهباً للسيوف الرِّقاق، وسبيها ملكةً للاسترقاق، وأهلَّة مبانيها البيض دريئة للمحاق، واستولت على جميعها أيدي الهدم والإحراق، ثم دُكَّت الأسوار، وعقرت الأشجار واستخلف على خارجها النار ..." [2].

وثم يكمل حديثه عن هذه الفتوح بفتح مدينة (أبَّدة)، ومرتبة (قرطبة) التي هي أهم المدن في الأندلس، ودار النعم الوافرة، حتّى كاد الجيش أن يفتحها لولا عوائق الأمطار؛ يقول:

"وغزونا بعدها مدينة أبدّة أختها الكبرى، ولدتها ذات المحل الأسرى؛ وكانت أسوةً لها في التدمير، والتّتبير والعفاء المبير. ثم نازلنا مدينة قرطبة وهي أمّ هذه البلاد الكافرة، ودار النعم الوافرة، وذات المحاسن السافرة؛ فكدنا نستبيح حماها المنيع، ونشتتُ شملها الجميع، ونحتفل بفتحها الذي [هو للدين أجل] صنيع، لولا عوائق أمطار، وأجل منتهٍ إلى مقدار؛ فرحلنا عنها بعد انتهاك زلزل الطود، ووعدناها العود ..." [3].

ويختتم الرسالة بالدعاء إلى السلطان، يقول:

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج7 ، ص51.

(2) المصدر نفسه، ص51-52.

(3) المصدر نفسه، ص52.

"وهو سبحانه يتولاّكم بما تولّى به من أعزَّ شعاره وعظمها، ورعى وسائله واحترمها؛ ويصل أسباب سعدكم، وينفعكم بقصدكم. والسلام الكريم ..." [1].

ومن الأمثلة الأخرى نستشهد بما كتبه إلى المنصور بن أبي عامر يخبره بخبر السيل الذي سال فعفى آثاره وهدَّ أسوارها واحتمل ديارها،وقد كان ورد كتابه مستفهما عن خبره،ومنتهى عبره.

"وردني أيده الله كتابة الكريم مستفهما عما طاربه إليه الخبر عن السيل الحافل الذي غظم منه الضرر، وقد كنت اخذا في الإعلام ، بحوادثه العظام فإنه أذهل الأذهان ، وشغل البيان إ ذ أقبل يملأ السهل والجبل ، والجنوب كما اضطجعت والعيون كما هومت للنوم وهجعت ، فمن ماض قد استلبه ، وناج قد حزبه، وفازع قد أثكله ، والبرق يجب فؤاده ، والودق ينسرب مزاده ، والكل قد استسلم للقدر، واعتصم بالله تعالى عزوجل من وزر ، حتى أرانا الله آية إعجازه و براهينة ، وغيض الماء لحينه ، وطلع الصباح على معالم قد غيرها ، ولم يبق إلا خبرها ، واكام قد حدرها لا ينقضي منها عجب لنا ، ولا يسمع بمثلها في الزمن الغار ، فالحمد لله على وافي دفعه وتلاقي غوثة ونفعه لا إله إلا هو". [2]

بدأ الكاتب كتابه بإلاخبار عن وصول كتابه أعزه الله ،إليه مستفهما عن هذا الخبر،ثم يبدا بوصف هذا السيل العظيم الذي سال بمرسية ،فقد أذهل الأذهان من عظمه ،وشغل البيان ،فقد أقبل هذا ا لسيل العظيم على مرسيه وقد ملأ السهل والجبل من عظمه،وقد وصل مرسيه في بداية الليل عندما اضطجعت الجنوب وهومت وهجعت العيون للنوم،فبدأ البرق يضرب والودق ينسرب،وفي هذه اللحظة قد استسلم الكل لأمر الله عز وجل،وقد اعتصم أهل مرسية بالله تعالى،حتى أجاب الله دعاء واعتصام أهل البلد،فظهرت آية الله في أن غيض الماء ،وطلع الصباح ،وقد غير السيل المعالم ،ولم يبقى منها شيء،واحتمل ديارها ،ثم تختتم الرساله بحمد الله عز وجل على وافي دفعه وتلاقي غوثه.

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج7 ، ص53.

(2) العمري،مسالك الأبصار،ج11،ص248-249.

4-3 الرسائل الإخوانية:

وهي تلك الرسائل التي بين الأصدقاء مصورة ما يكمن في قلوبهم اتجاه بعضهم البعض من مشاعر وعواطف وهي ما يكتب به الرئيس إلى المرؤوس والمرؤوس إلى الرئيس والنظير إلى النظير[1]. وتدور هذه الرسائل بين الإخوان والأصدقاء ، ومنها أيضاً الرسائل التي يرسلها الكاتب إلى من يريد أن يخطب مودته، أو يلتمس منه أمراً من الأمور[2] ، ولها موقع خطير من حيث تشترك الكافة في الحاجة إليها. والكاتب إذا كان ماهراً، أعذب معانيها، ولطّف مبانيها، وتسهل له فيها ما لا يكاد أن يتسهل في الكتب التي لها أمثلة ورسوم لا تتغير ولا تتجاوز[3].

ولأدباء الأندلس وكتّابه في الإخوانيات رسائل كثيرة أجادوا فيها واحتفلوا بأساليب متنوعة منها القصير والطويل[4]، وطرقوا فيها مواضيع شتى مثل (الشفاعات والتعازي، والاعتذار والاستعطاف، والمدح والدعاء، والمداعبة، والتبشير بمقدم صديق، وطلب الحاجة...".

4-3-1 الشفاعات:

وهي رسائل أنشأها الأدباء والغاية منها العفو عن إخوانهم والأخذ بأيديهم والشفاعة لهم عن ذنوب ارتكبوها ، ويصدر هذا النوع من الرسائل عن ذوي الرتب، والمنازل والأقدار، الذين يتوسل بجاههم إلى نيل المطلوب ودرك الرغائب[5].

ويحتاج الكاتب في هذا النوع من الرسائل إلى التطلف، وإيداعهما من الخطاب ما يخرج به الشافع عن صورة المثقّل على المشفوع إليه بما كلفه إيّاه، ويؤدي إلى بلوغ غرض المشفوع له ونجاح مطلبه، ويجب أن تسلك هذه الرسائل مسلك الإيجاز

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى ،ج9، ص5.
(2) عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص454.
(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص5.
(4) عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص454.
(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص124.

والاختصار، وأن يسلك به مسلك الرِّقاع القصار المجملة، لا الكتب الطوال المفصلة؛ وأن يرجع فيما يودعه إلى قدر الشافع والمشفوع فيه(1).

ومن الأمثلة على هذا النوع من الرسائل،الرسالة التي كتبها أبو المطرّف ابن عميرة إلى بعض الفقهاء شافعاً موصيّاً؛ يقول فيها:

"المحلُّ الأعلى –ضاعف الله أنوار هدايته، وأبقى على الجميع آثار عنايته– مستودع الكمال، ومشرع الآمال؛ ومقعد أرباب السُّؤال، ومصعد الصالح من الأعمال، وإن فلاناً من أمره كذا وكذا"(2).

تبدأ هذه الرسالة بالدعاء إلى صاحب الأمر بالهداية والبقاء، فهو مستودع الكمال،مشرع الآمال،الناطق بالحق،المبتعد عن الباطل،ومن ثم يطلب منه ما يريد.

ونستشهد هنا برسالة أخرى لنفس الكاتب في صدر شفاعة ، يبدأ الرسالة بدعاء لصاحبها بالبقاء حرما يتحاماه الأنام ، وعلما تتضاءل له الأعلام ، ثم يتحدث عن صفاته الحسنه ، والعمل على مساعدة العباد بعبارات في غاية الروعة والجمال ، حتى يصل في نهاية الكتاب إلى ذكر الموضوع الذي يريد الشفاعة فيه ؛ يقول:

" أبقى الله المحلّ الأعلى حرماً يتحاماه الأنام، وعلماً تتضاءل له الأعلام؛ ولا زالت آراؤه الناجحة، تستمدها العقول، والإفهام، ومساعيه الصالحة، يشكرها الله والإسلام. إنَّ مجداً سامي الكواكب بمثواه، وساري الفرَّ السواكب في جدواه؛ لداعٍ إلى استلام كفّه العلية، وا لاستهام على وصفه الذي له حقيقة الأولية؛ وكيف لا وقد أجار من الدهر المخيف، وصار قبلة كلِّ داخلِ تحت التكيف؛ يعيد متى أخطأها صلاة الأمل، ويرى الاجتهاد في طلبها من راحة العمل؛ وإنَّ الأمر كذا وكذا– إلى غير ذلك من أنواع الدعاء"(3).

4-3-2 التعازي:

ويشمل مثل هذا النوع من التعازي؛ التعزية بالبنت، والأب، والأم، والأخ، والزوجة . والمكاتبة بالتعزية واسعة المجال، لمّا تتضمنه من الإرشاد إلى الصبر،

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص124-125.

(2) المصدر نفسه، ص153.

(3) المصدر نفسه، ص150.

والتسليم إلى الله جلّت قدرته، وتسلية المعزي عما يسلبه بمشاركة السابقين منه، والتسليم بحسن العوض في الجزاء عنه[1].

ويتطرق بعد ذلك إلى ذكر مناقب الميت، من أخلاق كريمة، وصفات حميدة، ويمكن القول إن التعازي، هي ذكر الصفات الحميدة والحسنة عند الميت سواء كان ذلك شعراً أم نثراً.

وأصدق التعازي ما كان ينم عن عاطفة صادقة تجاه أهل الفقيد ، ويجب على المعزي أن يظهر الصفات الحميدة في الشخص المتوفى ، وأن يدعو الله أن يصبر أهل المتوفى على هذه المصيبة .

1- التعزية بالأب:

وأول أنواع التعازي التعزية بالأب ، ومن الأمثلة على هذا النوع من التعازي ما كتبه ابن أبي الخصال معزياً بوزير ، فقد بدأ ابن أبي الخصال الرسالة بالدعاء إلى المتوفى بدخول الجنة التي هي مطلب كل مؤمن صادق ، ثم يتابع رسالته بعبارات الأسف والأسى على فقدانه ، فهو عين زمانه ، وعمدة أخوانه ، ثم يختتم رسالته بالدعاء للمتوفى بالغفران ، وإن الموت هو نهاية كل حي سواء أكان من الأحباء أو الأعداء ؛ حيث يقول: "... وله في كلِّ عنق ختم؛ في الوزير الفقيه الشهيد أبيك كان، -رحمه الله- وأكرم مثواه، وجعل الحسنى التي أعدها لأوليائه مقرّه ومأواه؛ فأسفت كلٌّ الأسف لفقدانه، وقد كان عين زمانه، وعمدة إخوانه؛ تغمّده الله بغفرانه، ونقله إلى رضوانه؛ وتلك – أعزك الله – غاية الأحياء، وسبيل الأعداء والأحباء ... وإنّك بفضل الله تسدّ مسدّه، وتبلغ في كل فضيلة حضره السابق وشدَّه، وتعدَّ للأيام من الجدَّ والاعتزام ما أعدّه ... جعلنا الله من المتحابِّين في خلاله، والمتقلِّبين في ظلاله، وأمَّننا من الزمان واختلاف أحواله؛ بمنه والسلام"[2].

2- التعزية بالأم:

يعد فقدان الأم أصعب من فقدان الأب ، لأن الأم هي التي حملت ووضعت ، وسهرت على تربية أولادها التربية الإسلامية الصحيحة ، وفقدان الأم يرث الألم والأسى

(1)القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص80.

(2)المصدر نفسه، ج9، ص86.

والحزن ، وبسماع وفاة الأم يصم الناعي الذي كان يسمع ، ويرق القلب حزناً ، وتنهمر العيون دمعاً ، ويتصدع القلب ، وتتعب النفوس وتشعر باليأس ، ومن الأمثلة على ذلك نستشهد بما كتبه أبو محمد بن عبد البر المغربي(1) ؛ يقول:

"مَا ماتَ مَنْ أنتَ بعدَه خَلَفُ   والكُلُّ في البعضِ غيرُ ممتَنِع!

"... فيا أسفي لخطب ضعضع ركن الجدّ وكان وثيقاً، وصوَّحِ روض الفضل وكان وريقاً؛ ونغّص حسن ا لصبر ولم يزل صديقاً، وترك العبد خليقاً بهذا القول ومثله معه حقيقاً؛ فآه لدين ومروءة فقدا في قرن، وعلى صونٍ وعفاف أدرجا في كفن، وحصانٍ رزان لا تعرف بوصمة ولا تزن؛ لقد أصمَّ بها الناعي وإن كان أسمع، وأرّق ما شاء الفؤاد وأراق المدمع؛ ولم يبق قلباً للصبر إلا صدعه، ولا أنفا للسُّلوّ إلا جدعه؛ ولا بابا للتعزّي إلا أرتجه ... ولا عداكم في صروف المنايا المخيفة سلَمْ؛ لكن أبى الله إلا أن تعمَّ الحرقة، وتستولي على الوقت الفرقة(2).

3- التعزية بالبنت:

تعدُ البنت فلذة الكبد ، وأنيسة الروح ، البارة بوالديها ، الحنونة عليهم ، القائمة على راحتهم قدر المستطاع ، التي تكون عتقاً لوالدها من النار إذا أحسن تربيتها ، والمعزي بالبنت يدعو في رسالته إلى الصبر الجميل على هذا المصاب الجليل ، والدعاء إلى البنت المتوفى بالرحمة والفوز بالجنة وريحانها ، ومن الأمثلة على التعزية بالبنت ما كتبه ابن أبي الخصال معزياً؛ يقول: "الشيخ فلان عزَّاه الله على احتسابه، وجعل الثوابَ المرتقب أفضل اقتنائه واكتسابه. ومعزّيه عن فلذة كبده، ومساهمه في أرقه وسهده ، وألفات في عضد صبره الجميل وجلده؛ فلان. فأنّي كتبته – كتب الله لكم خيراً يذهب جزعكم، وحسّن منجاكم بالتفدّى الجميل ومنزعكم – عندما وصلني وفاة ابنتكم المرحومة

---

(1) أبو محمد عبدالله بن أبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر،كان أبوه أبو عمر بن عبد البر من كبار علماء الأندلس، ونشأ ابنه أديبا ،كاتباً، بارعاً،مات قبل أبيه بعد سنة 450 هـ،وله رسائل عن المعتضد افتتن بها معاصروه ،وكاد المعتضد بن عباد يفتك به لولا أن توس إليه أبوه أبو عمر يوسف فنجا وما كاد ينجو،ويقال إن ابن زيدون ألب عليه المعتضد،انظر الأصفهاني العماد ،خريدة القصر،وجريدة العصر،تحقيق الأستاذين عمر الدسوقي ،علي عبدالعظيم،دار نهضة مصر للطبع والنشر،الفجالة-القاهرة،ق4،ج2،ص13.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص87-88.

نفعها الله بإيمانها، وتلقاها بروح الجنّة وريحانها ... ولا يحزن لذهاب من ذهب من ذوي أُنسه؛ فاحمد الله عز وجل إذ رجحَّت ميزانك، وضمنت لـــك يـــوم المعـــاد جنانـــك؛ والله عزوجل يرزقنا احتساباً جميلاً و صبراً، ويؤنسك وقد اختار لك الصهر قبراً، ويعظم لـــك ثواباً جزيلاً على مصابك وأجرا، ويعمُّ فقيدتك بالرُّحمى ... [1].

4- التعزية بالأخ:

والأخ شقيق الروح ، والرفيق الصادق الدائم ، المحب للخير والداعي له ، الـــذي يقاسمه منامه وطعامه وشرابه ، ففي هذا النوع من الرسائل تظهر صفات الرجولة والكرم والشجاعة ، وسداد الرأي في الأخ المتوفى ، الذي لم تنجب النساء مثله ، ثم يدعو أهـــل الميت إلى الصبر والسلوان على ما أصابهم من ألم ، والله هو القادر أن يرفع عنهم هـــذا الحزن والأسى على فقدان الأخ ، ومن الأمثلة على هذا النوع من رسائل التعزية (بالأخ) نورد هذا المثال، وهي رسالة بعثها الكاتب أبو محمد بن عبد البر معزياً فيها بوفـــاة (أخ)؛ يقول:

"... أسفاً للمصاب الذي عمّ وغمّ، وأسمع نعيه فأصمّ؛ وقال للفرح: كفَّ من عنانك، وللترح انتظر لأوانك؛ بوفاة [الفرد] الذي في رأسه نور، وسداد الآراء المختلفة وسداد الثغور؛ والفذّ الذي شهد الرجال بفضله؛ وعقم النساء فما تجيء بمثله؛ أبي فلان صنوكم، السابق الذي لا يجاري، والشارق الذي لا يسارى؛ والغيث الذي عم المنيل والمستنيل، والليث الذي ورد الفرات زئيره والنيل، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون ... فصبراً فالمنون غاية الممسين والمصبحين والنبأ الذي يعلم ذوقاً ولو بعد حين؛ وهو تعالى المسؤول أن يرقع بمكانكم هذا الخرق المتّسع، ويصل بجنابكم ذلك الشَّمل المنصدع"[2].

ومن الأمثلة الأخرى على رسائل التعزية بالأخ نستشهد برسالة ابن أبي الخـــصال الذي بعثها معزياً، حيث حث فيها على الصبر، وجميل الاحتساب؛ يقول:

" الشيخ فلان أبقاه الله يتلقى الأرزاء بحسن الصبر، وجميل الاحتساب، ويتقاضى بـــالتعزي مرتقب الأجر، ومنتظر الثّواب، معزّيه في أخيه الكريم علينا، العظيم مصابه الفادح لدينا؛ فلان؛ فإني كتبته –كتب الله لكم صبراً تجدون ذخره ، واوجب لكم عزاء تحمـــدون يـــوم

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص85-86.

(2) المصدر نفسه، ص88-89.

القيامة شأنه وأمره ، عندما وصل من وفاة الشيخ أبي فلان أخيكم رحمه الله تعالى ما كدر العيش ونغصه ، وجشم جرع الحمام المقطوعة وغصصه ؛ فانا لله وأنا إليه راجعــون !! استسلاما لقدره وقضائه ، وأخذا فيما يدنى ويقرب من إرضــائه ؛ ومــا نحــن إلا بنــو الأموات الذين يدرجوا ، وسنخرج من الدنيا كما قبلنا خرجوا ؛ جعلنا الله جميعا ممن ينظر لميعاده ، ويجعل التقوى خير ما أوعاه بجداده ؛ وسلك بنا نهج هدايته وطريــق رشــاده . وهو جل وعلا يجزل لكم على مصابكم ثوبا عميما موفورا ، ويجعل فقيدكم بــين أيــديكم يوم القيامة نورا ؛ ويلقيه في دار الفردوس ملكا كبيرا وصبورا ؛ ولولا كذا لسرت إلــيكم لأعزيكم شفاها ، وأحدثكم عن ضلوع احرق هذا المصاب حشاها ؛ لكــن امتثــال أمــره المطاع ، حمل على البدار إلى ما أمر به والإسراع ؛ والله عز وجل يدين لنا بكم الإمتاع و بمنه وكرمه ، والسلام ." [1].

5- التعزية بالزوجة:

الزوجة رفيقة الدرب ، المقاسمة له في مــسؤولياته، الــساهرة علــى خدمتــه ، المحافظة على بيته وأولاده ، فهي الزوجة والأم، وإن القلب ليصدع وإن العين لتدمع على فراق الزوجة الصالحة الطاهرة التي تخاف الله في زوجها وبيتها ، التي تقــدم للمجتمــع الجيل المسلم المثابر ، المجاهد في سبيل قيمه وإعلاء كلمة الله، فهي ترث الألم والحــزن والحسرى في نفس زوجها وأولادها ، ومن رسائل التعزية بالزوجة رسالة أبي محمد بــن عبد البر[2] الذي بعثها معزياً بزوجة؛ يقول:

"... وقد نفذ القدر الذي ماله ردّ، ولا منه بدّ؛ بوفاة فلانة ألحقها الله رضــوانه، وأســكنها بفضله المرجو جنانه؛ فإنّا لله وإنّا إليه راجعون!! .. وعند الله نحتسبها عقيلــة معدومــة المثيل، مفقودة الدين والعفَّة في هذا الجيل؛ متحلية من دعاء الفقــراء، وثنــاء الــصلحاء، بالعزة الشادخة والتحجيل ... ولولا أنَّ التعازي مما أطرد به العمل، وســنّه الــصالحون

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص89.

(2) هو ذو الوزارتين الكاتب ابو محمد عبدالله بن الحافظ أبي عمر يوسف بن عبدالله بن عبدةالبر النمري، مــن أهــل الأدب البارع والبلاغة الرائقة ،والتقدم في العلم والذكاء،عمل فــي بــلاط المعتــضد بــن عبــاد،غير أنــه نقــم عليهم،فأضطر إلى عزله،حتى كانت وفاته سنة458هــ ،انظر ابن خاقان،قلائد العقيان،ج2،ص538.

الأول، لما سلك سبيله معكم وأنتم ممن قدر الأمور قدرها، وعلم أنَّ الحيـــاة ولـــو طالـــت فالموت أثرها وإذا لم تكن من الموت بُدّ ... أن يكون الثواب جـــزيلاً، والجـــزاء حـــسناً جميلاً[1] ، ومن الأمثلة الأخرى على هذا النوع من الرسائل، نورد مثالاً آخر وهو ما كتبه ابن أبي الخصال؛ يقول:

"الشيخ الأجل فلان – أنسَ الله وحشته، وجدّد على فقيدته رحمته. معزَّيه عن أهله الهالكة وسكنه؛ ومساهمه بأوجب حزن في القلوب وأسكنه . فلان : فانا كتبناه عن دموع تصوب وتتسرب ، وضلوع تخفق من وجيبها وتضطرب ، وانس يشرد منا ويحتجب ... بمـــوت فلانة رحمها الله التي أودعت في جوانحنا من الثكل ما أودعت، ورضت أكبادنا بمـــصابها وصدعت، عزّانا الله جميعاً فيها ، وأولاها نعيما في الفردوس الأعلى وترفيها ، واعقبنـــا من الوحشة آنسا ، وعمر بالرحمى جدثا مباركا ورمسا ؛ ... وجعلنا كلاًّ ممن يردع عـــن الانحطاط إلى الدنيا نفساً، بمنّه وكرمه"[2].

ويرى الباحث أن رسائل التعزية قد جاءت على نفس الوتيرة، مـــن ذكـــر مناقـــب الميت، والدعاء له، ونزول الصبر والسلوان على أهله، ومن ثم تختتم الرســـائل بالـــدعاء للميت ولأهله، واحتوت الرسائل على عاطفة صادقة، تنمّ عن مدى الحزن والأسى علـــى المصاب، و مشاركة أهله أحزانهم والتخفيف عنهم من شدّة المصاب .

4-3-3 رسائل الاعتذار والاستعطاف:

وتتمثل في تلك الرسائل التي تدور حول الاعتذار والاستعطاف، والاعتذار يكـــون عن أمر معين حدث مع الشخص، والاستعطاف في الصفح عن هذا الشخص ويحتاج هذا النوع من الرسائل إلى حسن تأت: لمّا تشتمل عليه من إيجاب حقوق الخدمة، ومن أسلفوه من مدّعي الخدم، وما يتبع هذا من التنصل والاعتذار الذي يسلُّ الـــسخائم مـــن القلـــوب، وتنزل الأوغار من الصدور، ويطلع الأنس وقد غرب، كما ينبغي على الكاتب فـــي هـــذه

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9 ، ص90-91.

(2) المصدر نفسه، ص91.

الرسائل أن يستعمل فيها فكره، ويوفيها حقها من جودة الترتيب واستقاء المعاني، وأن يذهب إلى استعمال الألفاظ الجامعة لمعاني العذر، الملوِّحة بالبراءة مما قرن به[1].

ومن الأمثلة على هذا النوع من الرسائل نستشهد هنا برسالة ابن زيدون الجدية التي وجهها إلى ابن جهور، يخاطب الكاتب ابن جهور بسيده ومولاه ، وهو المعتمد عليه ، والمعتد به ، يدعو له بالعزم والأمل ، والثبات على العهد ، حتى يصل الكاتب إلى الاعتذار والاستعطاف من سيده بأن لا يسلبه لباس النعمة ، وأن لا يغض عنه الطرف لحمايته ، الكاتب في هذه الرسالة يتساءل عن الذنب الذي أرتكبه ولم يسعه العفو عنه ، فإن يكون بريئاً فأين العدل ، وأن يكون مسيئاً فأين الفضل ، ثم يعرض الكاتب في الرسالة العديد من القصص القرآنية ، والأخطاء أو الذنوب المرتكبة التي يستحق فاعلها العقاب ، فالكاتب في هذه الرسالة لا يرى بأنه أرتكب خطأً يوجب عليه الذنب ، فيطلب من سيده العفو والمسامحة له عن ذنبه ويستعطفه ويعتذر منه بطريقة سلسة وبعبارات قوية ، يظهر فيها براءته من كل ذنب ، يقول:

"يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتدادي به، واعتمادي عليه- أبقاك الله ماضي حدِّ العزم، وأرى زند الأمل، ثابت عهد النغمة- إن سلبتني أعزك الله لباس إنعامك، وعطلتني من حلى إيناسك، وغضضت عني طرف حمايتك؛ بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصمُّ ثنائي عليك، وأحسّ الجماد باستنادي إليك؛ فلا غرو قد يغصُّ بالماء شاربه، ويقتل الدواء المستشفى به، ويؤتى الحذر من مأمنه، وتكون منية المتمنِّى في أمنيته ... والعتب محمود عواقبه، والنبوة غمرة ثم تنجلي، والنكبة "سحابة صيف عن قريب تقشع" وسيدي إن أبطأ معذور.

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً   فأفعالُه اللاتي سررنَ أُلوفُ

فليت شعري ما الذنب الذي أذنبتُ ولم يسعه العفو؟ ولا أخلو من أن أكون بريئاً فأين العدل؟ أو مسيئاً فأين الفضل؟ وما أراني إلا لو أُمرتُ بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت، وقال نوح: "اركب معنا" فقلت: "سآوي إلى جبل يعصمني من الماء" وتعاطيت فعقرت، وأمرت ببناء صرح لعلّي أطلعُ إلى إله موسى، وعكفت على العجل، واعتديت

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص165.

في السَّبت، وشربت من النهر الذي ابتلى به جنود طالوت، وقدت الفيل لأبرهة، وعاهدت قريشاً على ما في الصحيفة، وتأولت في بيعة العقبة، ونفرت إلى العير ببـدر، وانخـذلت بثلث الناس يوم أحد، وتخلّفت عن صلاة العصر في بني قريظة، وجئـت بالإفـك علـى عائشة، وأبيت من إمارة أسامة، وزعمت أن خلافة أبي بكر كانت فلتة، ورويت رمحـي من كتيبة خالد، ومزقت الأديم الذي باركت يد الله فيه، وضحيت بالأشمط الـذي عنـوان السجود به. وكتبت إلى عمر بن سعدٍ [أن] مع جعجع بالحسين، وبذلت لقطام

ثلاثة آلافٍ وعبدا وقينةً   وضَرْبَ عليٍّ بالحسام المخذَّمِ ..." (1)

اختطاب المودة:

وفي هذا النوع من الرسائل يقصد إلى بعث الموّدة بين شخصين لـم تقـم بينهمـا علاقة سابقة، أو إحياء علاقة قديمة لحقها بعض الفتور نتيجة لبعـد المـسافات وانقطـاع الاتصال(2). ويجب أن يقدَّر الخطاب فيها على أن يصل المرغـوب فـي عـشرته إلـى الانخراط في سلك أحبائه، والانحياز إلى أهل ولائه ويبعث على قـصده، فـي الالتحـاق بودّه، ويدّ ل على المماحصة، والصَّفاء والمخالطة، وينبغي أن يذهب الكاتب في هذه الرِّقاع مذهباً لطيفاً، ويحسن التوصّل إلى الإفصاح عن أغراضها: ليأخذ بجامع القلوب، ويعـين على نيل المطلوب(3).

ومن الأمثلة على هذا النوع من الرسائل ما كتبه أبو القاسم محمد بن عبد الله بـن الجدّ(4) ، من رسالة خاطب بها ذا الوزارتين أبا بكر المعروف بابن القصيرة(5) –وقد قربت بينهما المسافة ولم يتفق اجتماعهما ، يتحدث الكاتب في الرسالة عن الظروف التـي لـم

---

(1) النويري، نهاية الأرب، ج7، ص290-295.

(2) العربي، دراسات في الأدب الأندلسي، ص217.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص155.

(4) هو أبو القاسم بن الجد،محمد بن عبدالله،كان من أهل التفنن في المعارف والتقدم في الآداب والبلاغة،وله حظ جيد من الفقه والتكلم في الحديث،كان يفتي ببلدة لبلة ،توفي سنة 515هـ،انظر ابن سعيد ،المغرب،ج1،ص341.

(5) هو ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن سليمان الكلاعي،المعروف بابن القصيرة،كاتب المعتمد بـن عبـاد،ثم كتـب ليوسف بن تاشفين أمير المـؤمنين،رأس البلاغـة فـي وقتـه،توفي سـنة508هـ،انظر ابـن خاقان،قلائـد العقيان،ج2،ص305.

تسمح له بلقائه ، على العلم بأنه كان يحب هذا اللقاء ويتمناه ، ثم يختتم الرسالة بذكر صفاته الحميدة ، والدعاء له بأن يجعل لياليه أسحار ومساعيه أنوارا :

"لم أزل-أعزك الله- استنزل قربك براحة الوهم، عن ساحة النجم؛ وأنصب لك شرك المنى، في خلس الكرى، وأعلل فيه نفس الأمل، بضرب سابق المثل:

ما أَقدرَ الله أن يُدني على شَحطٍ   مَن دارهُ الحَزنُ ممن دارهُ صُولُ

فما ظنُّك به وقد نزل على مسافة يوم [وطالما نفر عن حبالة نوم]، ودنا حتّى همّ بالسلام، وقد كان من خُدع الأحلام، وناهيك من ظمئي وقد حمتُ حول المورد الخصر، وذممت الرِّشاء بالقصر، ووقف بي ناهض القدر، وقفة العير بين الورد والصَّدَر؛ فهلاً وُصِل ذلك الأمل بباع، وسمح الزمن باجتماع؛ وطويت بيننا رقعة الأميال، كما زويت مراحل أيام وليال، وما كان على الأيام لو غفلت قليلاً، حتى أشفى بلقائك غليلاً، وأتنسم من روح مشاهدتك نفساً بليلاً ... لا زالت أياديك بيضاً، وجاهك عريضاً؛ ولياليك أسحاراً، ومساعيك أنواراً"(1).

ومن الأمثلة على هذا النوع من الرسائل ما كتبه أبو عبد الله محمد بن الخياط(2) إلى الحاجب المظفر، بدأ الكاتب كتابه بالدعاء للحاجب المظفر بأن يحجب عنه أعين المصائب ويبعده عن الحادثات ، ثم يصف وقع الكتاب عليه وما ترك في نفسه من شوق وحنين ؛ ومنها:

"حجب الله عن الحاجب المظفر أعين النائبات، وقبض دونه أيدي الحادثات. وجاء منها: ورد له كتاب كريم جعلته عوض يده البيضاء فقبّلته، ولمحته بدل غرّتهِ الغراء، فأجللته؛ كتاب ألقى عليه الحبر حبره، وأهدى إليه السحر فقره؛ أنذر ببلوغ المنى، وبشَّر بحصول الغنى؛ تخيِّر له البيان فطبق مفصله، ورماه البيان فصادف مقتله؛ ووصل معه المملوك والمملوكة اللذان سمّاهما هديّة، وتنزّه كرماً أن يقول عطيّة؛ همّة ترجم السِّماكين،

---

(1) النويري، نهاية الأرب، ج7، ص304-305.

(2) في الأصل ابن الخياط،وهو تصحيف ،وهو أبو عبدالله محمد بن سليمان الرعيني بن الحناط البصير ،كان أبوه يبيع الحنطة بقرطبة فنسب اليها،كفله بنو ذكوان وشب تحت رعايتهم،وكان أعشى الحملاق ،ثم اصابه العمى من كثرة القراءة ،فأصبح متقدما في الآداب والبلاغة والشعر ،ومدح الملوك والوزراء،وبخاصة الأمير محمد بن القاسم بن حمود،وكانت بينه وبين الوزير أبي عامر بن شهيد مناقضات نظما ونثرا،برع في المنطق حتى إتهم في دينه ونفي عن قرطبة،توفي سنة 430هـ،انظر الأصفهاني العماد ،خريدة القصر وجريدة العصر،ق4،ج2،ص223.

ونعمة تملأ الأذن والعين؛ وما حرّك -أيده الله- بكتابه ساكناً بحمده، ولا نبّه نائماً عن قصده؛ كيف وقد طلعت الشمسُ التي صار بها المغرب شرقاً، وهبَّت الريح التي صار بها الحرمان رزقاً؛ صاحبُ لواء الحمد، وفارس ميدان المجد"(1).

وهناك نوع آخر من هذه الرسائل خوطب به أصحاب المؤلفات الأدبية الأندلسية، وهو يتضمن شيئاً من نتاج منشئية لإثباته في تلك المؤلفات، وقد يكون صاحب المؤلف هو الذي ابتدأ الكتابة إعلاماً بالمشروع الذي يعتزم القيام به(2).

ومن الأمثلة على هذا النوع من الرسائل ما كتبه أبو عبد الله بن أبي الخصال من جواب لابن بسام - وكان قد كتب إليه يسأله إنفاذ بعض رسائله ليضمنها كتابه الذي ترجمه بالذخيرة، يشير ابن أبي الخصال بكتابه لابن بسام بقيمة وقدر كتاب الذخيرة فيخاف أن لا تكون رسائله بالقدر المطلوب فيوضع ابن أبي الخصال الأوضاع التي أنشأ بها رسائله ، وهذا الكلام هو تواضع من عالم كبير مثل ابن أبي الخصال ، ويشير الكاتب في كتابه إلى وصول كتابه إليه الذي يحتوي على الكلام البليغ فكتب:

"وصل من السيد المسترقّ، والمالك المستحقّ- وَصَلَ الله أنعمه لديه، كما قصدر الفضل عليه -كتابه البليغ، واستدراجه المريغ، فلولا أن يصلد زند اقتداحه، ويردّ طرف افتتاحه؛ وتقيض يد انبساطه، وتغبن صفقة اغتباطه؛ للزمت معه قدري، وضنّ بسرّه صدري؛ لكنه بنفثه سحره يستنزل العصم فتنجب ويقتاد الصّعب فيصحب، ويستدرّ الصخور فتحلب؛ ولما جاءني كتاب ابتدأه ، وقرع سمعي نداه، فزعتُ إلى الفكر، وخفق القلب بين الأمن والحذر؛ فطاردت من الفقر أوابد قفر، وشوارد عفر ... ولولا دروس معالم البيان، واستيلاء العفاء على هذا اللسان؛ ما فاز لمثلي فيه قدح، ولا تحصَّل لي في سوقه ربح؛ ولكنه جوٌّ خال، ومضمار جهّال؛ وأنا أعزك الله أربأ بقدر الذخيرة، عن هذه النُّتف الأخيرة، وأرى أنها قد بلغت مداها، واستوفت حُلاها؛ وإنما أخشى القدح في اختيارك، والإخلال بمختارك؛ وعذراً إليك - أيدك الله- فإني خططت والنوم مغازل، والقرُّ نازل؛ والريح تلعب بالسراج، وتصول عليه صولة الحجّاج(3).

(1) النويري، نهاية الأرب، ج7، ص306.

(2) العربي، دراسات في الأدب الأندلسي، ص218.

(3) النويري، نهاية الأرب، ج7، ص303-304.

4-3-4 رسائل العتاب:

وهي تلك الرسائل التي تدور حول عتاب الكاتب للمخاطب في أمر ساءه منه، أوجب عتابه له، وتتباين صور العتاب بين اللين والرقة والقسوة، وذلك بحسب نفسية الكاتب وحالته والغرض الذي استثاره فدبَج رسالته فيه(1)، وفيها تنتقي الكلمات بعناية لأحياء رسم الصداقة الذي تعرض لبعض الفتور، ويبدأ هذا النوع من الرسائل عادة بالحديث عن عهد الصداقة المنصرم وتذكر أيامه وملاذه(2).

ومن الأمثلة على رسائل العتاب رسالة أبي حفص عمر بن برد الأصغر الأندلسي يعاتب بعض إخوانه ، يتساءل الكاتب في كتابه عن أسباب إقصاء بهجة الود، وإذبال زهرة العهد ، وتقطع الصلة والجفاء ، فيشير الكاتب إلى هذه المعاني بألفاظ في غاية الروعة والجمال من حيث التصوير الفني الذي يعطي الكتاب قوة وتأمل في المعنى ، وفي نهاية الكتاب يطلب ابن برد من صديقه أن يقدم له السبب الرئيسي للجفاء ، فيعودا كما كانا أو تكون القطيعة بينهما ؛ يقول:

" أظلم لي جوُّ صفائك، وتوعَّرت عليّ طرق إخائك؛ وأراك جلد الضمير على العتاب، غير ناقع الغلّة من الجفاء؛ فليت شعري ما الذي أقصى بهجة ذلك الود وأذبل زهرة ذلك العهد؛ عهدي بك وصلتنا تفرق من اسم القطيعة، ومودّتنا تسأل عن صفة العتاب ونسبة الجفاء، واليوم هي آنسُ بذلك من الرضيع بالثدي، والخليع بالكأس؛ وهذه ثغرة إن لم تحرسها المراجعة، وتذك فيها عيون الاستبصار توجهت منها الحيل على هدم ما بنينا، ونقض ما اقتنينا؛ وتلك نائحة الصفاء، والصارخة بموت الإخاء؛ لا أستند أعزك الله من الكتاب إليك – وأن رغم أنفُ القلم، وانزوت أحشاء القرطاس، وأجر فم الفكر، فلم يبقَ في أحدهما إسعاد لي على مكاتبك، ولا بشاشة عند محاولة مخاطبتك – لقوارص عتابك، وقوارع ملامك [التي أكلّت أقلامك]، وأغصَّت كتبك، وأضجرت رسلك، وضميري طاوٍ لم يطعم تجنباً عليك، ونفسي وادعة لم تحرك ذنباً إليك، وعقدي مستحكم لم يمسسه

---

(1) القيسي، أدب الرسائل ...، ص101.

(2) العربي، دراسات في الأدب الأندلسي، ص223.

وهن فيك؛ وأنا الآن على طرف الإخاء معك، فإما أن تبهرني بحجّة فأتصل عندك، وأمّا أن تفي بحقيقة فأستديم خلّتك، وإما أن تأزم على يأسك فأقطع حبلي منك ..." [1].

5-3-4 رسائل التهاني:

كتب التهاني من الكتب التي تظهر فيها مقادير إفهام الكتّاب، ومنازلهم من القناعة ومواقعهم من البلاغة. وهي من ضروب الكتابة الجليلة النفيسة، لما في التهنئة البليغة من الإفصاح بقدر النعمة، والإبانة عن موقع الموهبة، وتضاعف السُّرور بالعطيَّة[2]. وتبدأ غالباً بالكثير من التحميدات، والأدعية ثم تذكر وقع خبر النعمة – محلّ التهنئة على نفس الكاتب، مع سرد النعوت المتعددة لباعثها، ثم يعرّج على التهنئة بها وتمني دوامها أو تكرارها أو إصابة غيرها، وتختتم الرسالة بالدعاء والسلام[3].

وأغراضها ومعانيها متشعِّبة لا تقف عند حدّ[4]، ومن الأمثلة على ذلك رسالة أبي القاسم محمد بن الجدّ، لمن رزق بمولود ، يصف الكاتب المولود بالعديد من الصفات ، فهو نجم سعادة طلع في الأفق ، وغصن سناء تفرع من دوحة علا ، ثم يصف حال الناس عند قدوم هذا المولود ، بأن تههللت الوجوه بقدومه ، وقدمت الوفود تهنئ ، ثم يختتم الكاتب كتابه بالدعاء بأن يكون المولود على خلق عظيم يفخر به والده ويتربى بعزه وجاهه ؛ يقول فيها:

" إن أحقّ ما انبسط فيه للتهنئة لسان، وتصرّف في ميادين معانيه بيان وبنان؛ أمل رجيّ فتأبّى زماناً، واستدعى فلوى عنانا؛ وطاردته الأمانيّ فأتعبها حيناً، وغازلته الهمم فأشعرها حنينا؛ ثم طلع غير مرتقب، وورد من صحبة المناجح في عسكر لجب؛ وكان كالمشير إلى ما بعده من مواكب الآمال، والدليل على ما وراءه من كواكب الإقبال؛ أو كالصُّبح افترَّت عن أنوار الشمس مباسمه، والبرق تتابعت إثر وميضه غمائمه. وفي هذه الجملة ما دّل على المولود، المؤذن بترادف الحظوظ وتضاعف السعود. فياله نجم سعادة،

(1) النويري، نهاية الأرب، ج7، ص307-308.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص5.

(3) العربي، دراسات في الأدب الأندلسي، ص220.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص5.

طلع في أفق سيادة؛ وغصن سناء، تفرّع من دوحة علاء. لقد تهلّلت وجوه المحاسن باستهلاله، وأقبلت وفود الميامين لاستقباله؛ ونظمت له قلائد التمائم، من جواهر المكارم ... فأمّا وقد اهتزّ في أيكة السيادة قضيب، ونشأ من نبتة النّجابة نجيب، فأخلق بذلك المنبت أن تعاوده نضرته، وترفّ عليه حبرته .. وهو المسؤول أن يهبك منه صنعاً يحسن في مثله الحسد، ويتمنى لفضله النسل والولد، بعزّته"[1].

4-3-6 المدح والدعاء:

ويتمثل هذا النوع من الرسائل في المدح والدعاء إلى الشخص المخاطب بالمكاتبة، وتفتتح في الغالب بالدعاء، ولا تخلو أي رسالة سواء أكانت سلطانية أو أخوية من أسلوب المدح والدعاء إلى المخاطب، المدح يكون بذكر الصفات الحميدة في الشخص المخاطب من حسن الأخلاق والكرم والشجاعة، والحلم، والحكمة وجميع الصفات المحببة للأشخاص، والدعاء، عادة ما يكون، بطول العمر والتقدم والتعظيم، والحياة السعيدة.

ومن الأمثلة على رسائل المدح والدعاء ما كتبه أبو المطرف ابن عميرة، حيث بدأت الرسالة بالدعاء للمخاطب بالتقدم والتعظيم، ثم أخذ يمدحه بما عنده من موهبة الكتابة والبلاغة، حتّى يصل في مدحه بأن جعله إمام أئمتها، يقول:

" أطال الله بقاء الأخ السرى الكريم، الحريّ بالتقدم والتعظيم؛ أوحد فرسان الإحسان، وواحد عقبان البيان، ولا زال قلمه جالي بدائع السِّحر، جالب بضائع الشحر، مغبوط السَّبق، عند كلال جياد الكلام، مبسوط الرِّزق، في حال إملاق الأقلام، إن ذكرت- أبقاك الله- البلاغة فمن على موردها يساجلك، أو قيل في شريعتها بُنيت على خمس فإنما هي أناملك، صفوها متفجر من معينك، وشأوها لا مطمع فيه لغير يمينك، وشأوها تستوفيه في هيئة متمهل ... فهنيئاً لها أن كنت سابق غايتها، وسائق رايتها، وبشرى لمهرقٍ وشته براعتك ، ومشتّه براعتك، لقد أوتى من الحسن ما تشتريه القلوب بحبَّاتها، وتشتهيه النفوس أكثر من حياتها؛ وإن الأمر كذا وكذا[2].

---

(1) النويري، نهاية الأرب، ج5، ص133-134.

(2) القلقشندي صبح الأعشى، ج8، ص149.

ومن الأمثلة الأخرى على رسائل المدح والدعاء ما كتبه أبو محمد بن عبد البر، إلى بعض أرباب الأقلام؛ يقول:

"أبقى الله الشيخ في عزّةٍ تالدة طارفة، وسعادةٍ لا تزال طارقةً بكلِّ عارفه؛ ولا زال قاصده مخيماً من رفده بروضٍ ناضر، ومحوّماً من مجده على مسَّرة سمع وقرَّة ناظر؛ والأمر كذا وكذا[1].

4-3-7 رسائل الطلب:

حفلت رسائل الطلب بمكانة كبيرة بين الرسائل الأخوية شبه الرسمية. وفي هذا النوع من الرسائل يسلك الكاتب مسلك الشاعر في طلب الرفد والعطاء، حين يصف خصال الممدوح الحميدة، لذا فإنّه يغلب على هذه الرسائل طابع المديح، وتتسم بالبراعة والصياغة[2].

وقد حفل التاريخ الأندلسي بالعديد من هذه الرسائل التي جاءت متناثرة في كتب الأدب، وقد حفل كتاب صبح الأعشى، للقلقشندي، بمجموعة من هذه الرسائل التي يراد منها طلب حاجة معينة، وتأتي أغلب هذا النوع من الرسائل بطابع المدح ومن ثم يصل إلى طلب الحاجة، وفي بعض الأحيان لا يصرح بهذا الطلب مباشرة ولكن قد يعتريه بعض الغموض.

ومن الأمثلة على هذا النوع من الرسائل ما كتبه ابن أبي الخصال إلى بعض الكتّاب يسأله حاجة، حيث بدأت الرسالة بالمدح للشخص المخاطب كما هو الحال عليه في هذا النوع من الرسائل، حتّى يصل إلى طلب الحاجة، ولم يذكر ابن أبي الخصال في الرسائل نوع الحاجة، أو ربما لم يوردها القلقشندي كاملة؛ يقول فيها[3]:

"معظم الشيخ الأجل أبي فلان، ومجلُّه المكبر له فلان، أعلى الله قدركم وأوزع أولياءكم شكركم، أياديكم أدام الله كرامتكم أوكف من الغمام، ونعمكم ألزم للأعناق من أطواق الحمام، وإنَّ وليكم ومعظمكم يحتاج إلى كذا وكذا:

---

(1) القلقشندي صبح الأعشى، ج8، ص149.

(2) القيسي، أدب الرسائل، ص104-105.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج8، ص157.

كما كتب [بعضهم] من فلان إلى الشيخ الحافظ الأكرم أبي فلان: أدام الله كرامته بتقواه، فالكتاب إليكم كتب الله لكم أحوالاً صالحة، وخيرات عليكم غاديةً رائحة، من موضع كذا، والبركات متوافرة، والخيرات متظاهرة، والحمد لله تعالى، وإنَّ الأمر كذا وكذا"[1].

ولم تكن رسائل الطلب من شخص إلى مسؤول أو صديق وحسب، بل جاءت بعض الرسائل من نو ع أخرى، حيث دارت بعض رسائل الطلب بين الابن وأبيه يطلبه حاجة معينة، وقد أورد القلقشندي في صبح الأعشى، رسالة في هذا النوع، حيث كتب بعض الأشخاص إلى والده، وقد بدأت الرسالة ببيان فضل الوالد بأنه متكفّل بتعليمه، وفضله في حسن أدبه، ثم يدعو إلى والده بطول العمر، حيث يصبغ على نفسه صبغة العبد بدل الابن، ثم يتابع الرسالة بأن يبث فيها شوقه وحنينه إلى والده، الواضح من الرسالة إن الابن كان بعيد عن والده، بسبب الدراسة، ويختتم الرسالة بطلب الحاجة التي يوريدها؛ يقول فيها:

" إلى مولاي المعظّم وأبي، المتكفَّل بتعليمي وحُسن أدبي، أبقاه الله ناظراً إليّ بعين رضاه، وأعانني على الجري في برِّه على حكم الشَّرع القويم ومقتضاه؛ من ابنك المعِّظم لك، بل عبدك، المتطلع إلى ما يصل من الأنباء الكريمة من عندك، المواصل المسعى في شكرك وحمدك، فلان: بأبي كتبته كتب الله لكم ليانا من العيش وخفضاً، وجمع بعد الافتراق بعضاً منَّا وبعضا؛ ويسر لي بطوله منته أن يصفح عني وأن يرضى، من موضع كذا، ولا جديد إلا نعم من الله عزَّوجلَّ تراوح وتغادي، وتجري الخواتم منها على حكم المبادئ، وشوق إليكم يعمر أحناء ضلوعي وفؤادي، ويحسم عنِّي قطيعي دمعي الهتون وسهادي؛ والله جلَّ وعزَّ ييسِّر انقضاب غربة النَّوى، ويريح النفوس من محرق اللّوعة ولأعج الجوى؛ والأمر كذا وكذا"[2].

ويرى الباحث في نهاية الحديث عن الرسائل الإخوانية، أنّها جاءت في المواضيع التي تدور بين الأصدقاء، وتدل على صدق العاطفة فيها، وعلى طابع المودة والمحبة التي تجمع بين الأخوة في رسائلهم المختلفة.

---

(1) القلقشندي صبح الأعشى، ج8، ص157.

(2) المصدر نفسه،157-158.

4-4 خصائص الرسائل

تنوعت المكاتبات في الأندلس بين المكاتبات الرسمية والإخوانية، وكانت تسير جنباً لجنب مع نظيرتها في المشرق، حيث قلد كتّاب الأندلس كتّاب المشرق في جميع فنون النثر الأدبي كما مر سابقاً، وقد فصلنا بالحديث عن أنواع المكاتبات الأندلسية سواء أكانت الرسمية أو الأخوية، وسوف ندرس في هذا الجزء من الدراسة خصائص الرسائل، والتعرف على أسلوب أهل الأندلس في مراسلاتهم ومكاتباتهم.

فقد كان لكل نوع من أنواع المكاتبات الرسمية والإخوانية التي تصدر عنهم أسلوب خاص متعارف عليه عند كتّاب الأندلس، فهناك مصطلحات وألقاب يخاطب بها كل شخص حسب مكانته في الدولة؛ فالكتب التي توجه إلى الملوك والسلاطين تختلف بطريقتها عن الكتب الموجهة إلى الوزراء وكذلك الفقهاء وأرباب السيوف والوظائف الدينية والديوانية فلكل مقام ألقاب يخاطب بها الشخص.

ولن نكتفي بدراسة المكاتبات الرسمية، بل سندرس أيضاً المكاتبات الأخوية، لنتعرف على أسلوب الكتّاب في اختيار الألفاظ والألقاب التي يستخدمونها في مخاطباتهم فيما بينهم، أكانت كتبا صادرة أو كتبا واردة في كتاب "صبح الأعشى"؛ لأنه جمع بين طياته العديد من المكاتبات الأندلسية الرسمية والأخوية.

4-4-1 الرسائل الرسمية:

وسنقوم في هذا الجزء بدراسة فواتح المكاتبات الرسمية مثل "فواتح المكاتبات" القديمة، والكتب الواردة عن صاحب الأندلس، والكتب الصادرة عن الموحدين بالأندلس، والكتب الصادرة عن إتباع ملوك الغرب إليهم والمختار منهم، في الأجوبة الصادرة عن ملوك الغرب، وفي كتب العهود، وما يكتب لأرباب الوظائف الحكومية.

1- الرسائل الواردة عن صاحب الأندلس:

والرسم في ذلك أن يكتب "الأبواب الشريفة" ويصفها، ثم يقول: "أبواب السلطان الفلاني" ويصفه، ويذكر ألقابه، ثم يدعو له، ثم يقول: "سلام كريم" ويصفه. من فلان،

ويذكر السلطان المكتوب عنه، ثم يقول: أما بعد حمد الله، ثم يأتي بخطبة في المعنى تشتمل على التحميد، ثم ينخرط في سلك المقصود إلى آخره[1].

ومن الأمثلة عليها ما كتبه ابن الخطيب عن السلطان (أبي الحجاج[2]) صاحب غرناطة إلى السلطان الملك الأشرف "شعبان بن حسين" ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون، يشير فيه إلى حادثة الفرنج بالأسكندرية سنة (767هـ) يقول فيه:

" الأبواب الشريفة التي تعنو لعزّة قدرها الأبواب، وتعتزى إلى نسب عدلها الحكمة والصّواب؛ وتتاويها الأقطار البعيدة مفتخرة بولائها ... أبواب السلطان الكبير، الجليل الشهير، الطاهر، الظاهر، الأوحد، الأسعد ... الملك المنصور أبي الفتوح شعبان، ابن الأمير، الرفيع المجادة، الكريم البنوة والولادة الطاهر الظاهر، الكبير، الشهير ... الأمير أبي عليّ حسين، ابن السلطان الكبير، الشهير، ملك الإسلام والمسلمين ... أبي عبد الله محمد بن قلاوون، الصالحي أبقاه الله، وفلق الصباح يشهد بكماله، وخدمة الحرمين الشريفين طراز مذهب على حلّة أعماله ... سلام كريم، برّعميم ، كما استودعت الرياض أسرارها ... أما بعد حمد الله جاعل قلادة الإسلام على الدوام أمنة الأنخدام والانتثار .. والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله نخبة الأكوان ..." [3]

ويختتم بالدعاء حيث يقول فيه: "... ويبقيكم للإسلام ركناً شديداً، وظلاً مديراً، وسماءً مدرارا، ما استأنفت البدور إبداراً، وعاقب الليل نهاراً، والسلام[4].

2- الرسائل الصادرة عن الخلفاء الموحِّدين، أتباع المهديِّ بن تومرت:

تفتح المكاتبة الصادرة عن خلفاء الموحدين غالباً بلفظ "من فلان إلى فلان" ويقال فيها: "من أمير المؤمنين فلان" ويدعى له بما يناسبه "إلى فلان" ويدعى له بما يليق به، ثم

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج8، ص106-107.

(2) يوسف بن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر الأنصاري الخزرجي ،أمير المسلمين بالأندلس،أبو الحجاج ، تولى الملك بعد اخيه بوادي السقائين من ظاهر الخضراء ضحوة يوم الأربعاء ثالث عشر ذي الحجة عام 733هـ وسنه 15 عاماً وثمانية اشهر،أمه أم ولد،وكانت له ثلاثة أولاد كبيرهم محمد أمير المسلمين من بعده،انظر المقري،نفح الطيب،ج5،ص80.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج8، ص107-109.

(4) المصدر نفسه، ص115.

السلام، والبعدية والتحميد، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، والترضية عن الصحابة، ثم عن إمامهم المهدي، ثم المقصود بالكتاب، وتختتم بالسلام[1].

ومن الأمثلة على ما كُتِب عن عبد المؤمن: خليفة المهديّ إلى أبي عبد الله محمد بن سعيد، يقول فيه:

"من أمير المؤمنين أيَّده الله بنصره، وأمدّه بمعونته،؛ إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن سعد وفقه الله، وسيَّره لما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد فالحمد لله الذي له الاقتدار والاختيار، ومنه العون لأوليائه ... والصلاة على محمد نبيَّه الذي انبعثت بمبعثه الأضواء والأنوار، وعمرت بدعوته الإنجاد والأغوار ... وعلى آله وصحبه الذي هم الكرام الأبرار، والمهاجرين والأنصار والرِّضا عن الإمام المعصوم، المهديّ المعلوم؛ القائم بأمر الله حين غيَّرته الأغيار، وتقدّم الامتعاض له والانتصار ... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[2].

أن تفتتح الرسالة بلفظ "أما بعد"

ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه أبو الميمون عن المستنصر بالله: أحد خلفائه إلى بعض نوّابه، وقد نقض العهد على بعض المهادنين من النصارى؛ يقول:

" أمّا بعد حمد الله الأمر بالوفاء بالعهود، والصلاة على سيدنا محمد المصطفى الكريم سيد الوجود، وعلى آله وصحبه ليوث البأس وغيوث الجود؛ والرِّضا عن الإمام المعصوم، المهديّ المعلوم؛ الآتي بالنَّعت الموجود في الزّمن المحدود، وعن خلفائه الواصلين بأمره إلى التَّهائم والنّجود، والدعاء لسيدنا الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين بسعدٍ تذلُّ له النواصي، ويهدّ الأقطار القواصي...والسلام عليكم ورحمة الله"[3].

3- في الرسالة الصادرة إلى خلفاء الموحِّدين بالمغرب:

1- أن تفتتح الرسالة بالدعاء، وهي على ضربين:

وفي هذا النوع من المكاتبة تفتتح بالدعاء المناسب للحال، ويخاطب المكتوب إليه بأمير المؤمنين. ومن الأمثلة على هذه المكاتبة ما كتبه القاضي الفاضل عن السلطان (صلاح الدين يوسف بن أيوب) إلى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن: أحد

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص443.

(2) المصدر نفسه،ج6،ص443-445.

(3)المصدر نفسه، ص445-446.

خلفائهم في سنة (585هـ) يستجيشه على الروم الفرنج القاصدين بلاد الشام والديار المصرية، يقول فيه:

" فتح الله بحضرة سيدنا أمير المؤمنين، وسيد العالمين، وقسم الدنيا والدِّين؛ أبوابا الميامن، وأسباب المحاسن ؛ وأحلَّه من كفايته في الحرم الآمن، وأنجز من نصرة الحق ما الله له ضامن، وأصلح به كلَّ رأى عليه الهوى رائن؛ ومكَّن له في هذه البسيطة بسطة ..." [1].

الضرب الثاني: (أن تكون الرسالة صادرة عن بعض الأتباع)

وتفتتح المكاتبة هنا بالدعاء بطول البقاء، ويعبَّر المكتوب عنه عن نفسه بلفظ الإفراد، وعن الخليفة بأمير المؤمنين، ونستشهد على هذا النوع من المكاتبة بما كتبه أبو الميمون عن بعض أهل دولتهم إلى بعض خلفائهم جواب كتاب ورد بالكشف عن عامل ثغر شقورة؛ يقول فيه:

" أطال الله بقاء أمير المؤمنين، وناصر الدين والدنيا بفضله العميم؛ ولا برحت مصالح العباد بباله الكريم جائلةً ماثلة، وسيرته الحميدة لدانيهم وقاصيهم شاملة كافلة، ولا زال لله في أرضه بالقسط قائماً، وعلى ما ينفع الناس[2] محافظاً.

2- **أن تفتتح الرسالة بألقاب الخليفة نفسه** ثم يؤتى بالصدر معبرٌ عن المكتوب عنه بالعبد، ويختتم الكتاب بالسلام، وهو على ضربين:

الضرب الأول: "أن يوصف الخليفة بالمقام"

ومن الأمثلة على هذا النوع من المكاتبة نستشهد بما كتبه أبو الميمون عن بعض أهل دولتهم إلى الناصر لدين الله أحد خلفائهم؛ يقول فيه:

"المقام الأعلى، المقدّس، المكرَّم، الأمامي، الطاهر، الزّكيّ، مقام الخليفة المؤيَّد بنصر الله، الإمام "الناصر لدين الله" كلأ الله جلالهم، وفيّأ ظلالهم، وبوّأ وفود السُّعود ووجود الظهور والصُّعود مواطئهم المقدّسة وجلالهم. عبدهم المتقلِّب في نعمتهم، المتقرب إلى الله عز وجل بالمناصحة في خدمتهم ..." [3].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص526-527.

(2) المصدر نفسه ، ص530-531.

(3) المصدر نفسه، ص532-533.

الضرب الثاني: أن يعبر الخليفة بالحضرة

ومن الأمثلة على هذه المكاتبة نستشهد بما كتبه أبو المطرف بن عميرة عن صاحب أرغون من الأندلس إلى المستنصر بالله أحد خلفائهم، يستأذنه في وفادة صاحب أرغون من الأندلس أيضاً على أبواب الخلافة مغاضباً لأهل مملكته؛ يقول:

"الحضرة الإماميّة المنصورة الأعلام، الناصرة للإسلام، المخصوصة من العدل والإحسان بما يجلو نوره متراكم الإظلام؛ حضرة سيدنا ومولانا الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين، أبي يعقوب ابن سادتنا الخلفاء الراشدين، ... نشأة أيامها الغرّ، وربّى إنعامها المواظب على الحمد والشكر، المشرَّف باستخدامها الذي هو نعم العون على التقوى والبر، عبدها وابن عبدها فلان ..." [1].

4- في الرسائل الصادرة عن أتباع ملوك الغرب إليهم

1- أن تفتح الرسالة بأما بعد:

وتفتتح هذه المكاتبة بلفظ "أما بعد، ويتخلص إلى المقصد من الكتاب، ويختتمه بما يناسب المقام؛ ومن الأمثلة على هذا النوع من فواتح المكاتبات، نستشهد بما كتبه أبو المطرّف بن عميرة إلى المتوكل بن هود، عن نفسه؛ يقول فيه:

"أما بعد، فكتب العبدُ – كتب الله للمقام العليّ الناصري المتوكليّ مجدّاً يحلُّ الكواكب وجدّاً يغلُّ الكتائب ... وبإقبال الركاب السعيد إلى هذه ينزل به من سماء العلياء محكم حكمه، ويصل به إلى الأنام فضل من الله ونعمه؛ ويقتضي دين على الأيام، لا يبقى معه عسرة، ويوجد جبر للإسلام، لا يكون بعده كسره، وشفاء لقلوب الأولياء هو للأعداء حسرة"[2].

2- أن تفتتح الرسالة بالخطاب بلفظ "سيدي" أو "مولاي" مع حرف النداء أو دونه. ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه ابن الخطيب عن نفسه إلى السلطان أبي عنان بن السلطان أبي الحسن المرينيّ؛ يقول فيه:"مولاي! فاتح الأقطار والأمصار، فائدة الأزمان والإعصار، أثير هبات الله الآمنة من الاعتصار، قدوة أولى الأيدي والأبصار، ناصر الحق عند قعود

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص534.

(2) المصدر نفسه، ص98-99.

الأنصار ... مولاي! هذه تلمسان قد أطاعت، وأخبار الفتح على ولدك الحبيب إليك قد شاعت ..." [1].

5- في الأجوبة الصادرة عن ملوك الغرب:

وتفتتح هذه المكاتبات عادة بلفظ "قد" ونحوها. ومن الأمثلة على هذا النوع من المكاتبات ما كتبه أبو المطرف بن عميرة عن بعض ملوكهم في جواب كتاب ورد عليه بطاعة بلد؛ يقول منه:

"قد وصل كتابكم – وصل الله معونتكم وكلاءتكم – تذكرون ما تقرّر عندكم ..." [2].

6- ما يكتب لأرباب الوظائف من أصحاب السُّيوف

تفتتح هذه المكاتبات الخاصة بأصحاب السيوف من الوظائف الحكومية بألفاظ خاصة تختلف عن فواتح مكاتبات الملوك والسلاطين كما مر سابقاً، فالغالب على فواتح هذه المكاتبات الموجهة لأصحاب الوظائف الحكومية بأنّها تبدأ بعبارة (هذا ظهير كريم).

ومن الأمثلة على مكاتبات أصحاب السُّيوف نستشهد بما كتبه ابن الخطيب بنيابة السلطنة بالحضرة؛ يقول:

"هذا ظهير كريم، منزلته في الظهائر منزلة المعتمد من الظُّهراء، ومحلُّه من الصكوك، الصادرة عن أعاظم الملوك، محلُّ أولى الرايات، الخافقة العذبات، والآراء ... أمر به فلان لصدر أدائه، وحسامه المشهور على أعدائه؛ وولته الذي خبر صدق وفائه .. شيخ شيوخ المجاهدين، وقائد كتائبه المنصورة لغزو الكافرين والمعتدين ...) [3].

7-ما يكتب لأرباب الوظائف الدينية من أصحاب الأقلام:

وتفتتح المكاتبة أيضاً بلفظ "هذا ظهير كريم" ومن الأمثلة عليه، نسخة ظهير بقضاء الجماعة بالحضرة، وهو "هذا ظهير كريم أنتج مطلوب الاختيار قياسه، ودلَّ على ما يرضي الله عز وجل التماسه ... أمر به، وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه؛ أمير المسلمين أبو الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر – أيد الله أمره، وخلد فخره –

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج6ص99–102.

(2) المصدر نفسه، ج7، ص110.

(3) المصدر نفسه، ج11، ص6.

لقاضي حضرته العلية ... قاضي الجماعة، ومعرف الأحكام الشرعية المطاعة، الشيخ أبي الحسن ابن الشيخ أبي محمد ابن الحسن وصل الله سعادته..." [1].

8- في الرسائل الصادرة عن الملوك ومن في معناهم إلى خلفاء بني أمية بالأندلس:

تفتتح المكاتبة إليهم في العادة بالدعاء بطول البقاء، مع الإطناب في الإطراء في شأن الخليفة ومدحه والثناء عليه والدعاء له، والخطاب فيه للخليفة بأمير المؤمنين منعوتاً بمولاي وسيدي ونحو ذلك، ومن الأمثلة على هذا النوع من المكاتبات ما كتبه أبو المطرف بن المثنّى من إنشائه عن المنصور إلى هشام بن الحكم؛ يقول فيه:

"أطال الله بقاء أمير المؤمنين! مولاي وسيدي وسيد العالمين، وابن الأئمة الراشدين؛ عزيزاً سلطانه، منيرا زمانه؛ ساميةً أعلامه، ماضيةً أحكامه؛ ظاهراً على من ناوأه، قاهر لمن عاداه؛ كما يحبُّ- أيد الله أمير المؤمنين مولاي وسيدي على أحسن ما يكون عليه"[2].

4-4-2 الرسائل الإخوانية:

وسنتعرف في هذا الجزء أيضاً على أساليب المكاتبات الأخوية في الأندلس وكيف تفتتح هذه المكاتبات.

1- الرسائل الإخوانية الصادرة:

سنقوم بدراسة فواتح المكاتبات الأخوية الصادرة من صديق إلى صديقه، وما هي أهم الألفاظ التي تفتتح بها هذه المكاتبات.

أن تفتتح المكاتبة بالدعاء: أما بطول البقاء كما كتب أبو محمد عبد الله بن محمد بن طاهر بن عبدالله بن طاهر:

" أطال الله بقاء سيدي الأعلى، ومفزعي في الجلّي، متمَّمةً عليه النعم، ميسَّرة لديه الحمم؛ أقول بدءاً أيدك الله: لقد أعشى الناظرين سناك، كما أعيا الطالبين مسعاك..."[3].

أن تفتتح المكاتبة بلفظ "كتابي" ومن الأمثلة على هذا النوع من فواتح المكاتبات الأخوية نستشهد بما كتبه أبو المطرف بن عميرة إلى بعض العلماء؛ يقول فيه:

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص21.

(2) المصدر نفسه، ج8، ص524.

(3) المصدر نفسه، ص148.

"كتابي إلى سيدي –حفظه الله مقيماً وسائراً، وأنقاه لغرر البيان ساحراً، وعن وجه الإحسان سافرا؛ ولا زالت آدابهُ تشرق وتروق ساهراً، ومحاسنه كالشمس إذا لم يلق نورها ساتراً ...." [1].

أن تفتح المكاتبة بكتابةٍ عن المكتوب إليه من لقب ونحوه، كما كتب في ذلك أبو المطرف ابن عميرة لبعض الرؤساء؛ يقول فيه[2]:

" الجناب الرِّياسيُّ أدام الله اعتلاءه، وحرس مجده وسناءه".

أن تفتح المكاتبة بالتحيَّة والسلام

ومن الأمثلة على هذا النوع من فواتح المكاتبات الأخوية نستشهد بما كتبه أبو المطرف ابن عميرة؛ يقول فيه:

" تخصُّ الابن محبّة وقعة، والعباد اعتداداً بجانبه وثقة، حفظ الله نجابته؛ وجعل لداعي السّيادة تلبية وإجابته، تحيَّة الإجلال والتكرمة، والمودة الخالصة المتحكّمة ورحمة الله وبركاته ..." [3].

وتفتتح المكاتبة أيضاً بالألفاظ أخرى مثل "الكناية عن المكتوب، أو بلفظ من فلان، أو بلفظ إلى فلان"[4].

2- في الأجوبة:

أن يفتح الجواب بورود الكتاب ووصوله ابتداء .ومن الأمثلة على فواتح كتب الجواب نستشهد بما كتبه ابن أبي الخصال؛ يقول فيه:

"ورد كتابك في أمر فلان يفرض الحمل عليه في النفوذ لوجهته، والتقدّم إلى رتبته وليس عندي إلا عون وإنجاد، وطاعة وانقياد ..." [5].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج8، ص ،150-151.
(2) المصدر نفسه ، ص152.
(3) المصدر نفسه، ص156.
(4) المصدر نفسه،ص157.
(5) المصدر نفسه، ص158.

أمّا بالنسبة لخواتم المكاتبات، فإننا نستنتج أن أغلب خواتم هذه الكتب الرسمية و الإخوانية فتختتم بالدعاء أو السلام، أو التودد والمحبة والاحترام.

4-5 العهود

العهد رسالة ديوانية يدبِّجها كاتب الرسائل على لسان الخليفة لمن اختاره لولاية الخلافة من بعده، وتعرف حينئذ "بعهد الولاية". وتكتب أحياناً على لسان الخليفة أو الأمير بالأمان لثائر أو خارج على الدَّولة، أو لدولة مجاورة زالت أسباب الخلاف معها، وتعرف حينئذ "بعهد الأمان"[1]. أو لعقد اتفاق بين المتنازعين وتعرف حينئذ "بعهد الدعوة للصلح".

وسنركز على العهود بأنواعها الثلاثة؛: "عهد الولاية، وعهد الأمان، وعهد الصلح والدعوة إليه.

4-5-1 **عهد الولاية:**

في أصل مشروعيتها:

الأصل في ذلك ما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، إنه قيل لعمر عند موته "ألا تعهد؟ فقال: أأتحمل أمركم حيَّاً وميتاً؟ إن استخلفت فقد استخلف من هو خير مني (يعني أبا بكر]: وإن أترك فقد ترك من هو خير منّي رسول الله صلى الله عليه وسلم". ثم ذكر القلقشندي قصة استخلاف أبي بكر رضي الله عنه لعمر بن الخطاب[2].

وفي كتابة عهد الولاية، يجب على الكاتب في كتابة العهد مراعاة أمور وهي:

1- براعة الاستهلال بذكر ما يتفق له: من معنى الخلافة والإمامة واشتقاقهما، وحال الولاية، ولقب العاهد والمعهود إليه، ولقب الخلافة.

2- إن ينّبه على شرف رتبة الخلافة، وعلوّ قدرها، ورفعة شأنها، ومسيس الحاجة إليه الإمام، ودعاية الضرورة إليه.

---

(1) القيسي ، أدب الرسائل ....، ص117.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص349.

3- إن ينبّه على اجتماع شروط الإمامة في المعهود إليه حين صدور العهد بها من العاهد.

4- أن ينبّه على اجتهاد العاهد وتروِّى نظره في حِّقيّة المعهود إليه.

5- أن يشير إلى تقدم الاستخارة على العهد، وأن استخارته أدته إلى المعهود إليه.

6- أن ينبّه على أنَّ عهده إليه بعد مشورة أهل الاختيار ومراجعتهم في ذلك، وتصويبهم له، خروجاً من الخلاف(1).

وكان كتّاب العهود "عهد الولاية" يبدؤون كتابة العهد بأهمية الإمامة والخلافة للناس عامة، وبيان خوف الخليفة من أن يلقى ربّه، دون تحديد ولي عهده من بعده، ومن ثم يتعرضون لوصف صفات ولي العهد، الصفات الكريمة والحميدة التي اجتمعت في ولي العهد، ومن ثم يختتم العهد، بموافقة من اختاره الخليفة ولياً له، كما مر سابقاً في عهد الولاية الوارد.

ومن الأمثلة على عهد الولاية نستشهد بما كتبه الوزير أبو حفص بن برد عهد الناصر لدين الله عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر العامريّ، عن المؤيد بالله هشام بن الحكم الأمويّ، الخليفة بالأندلس ، بعد إنعام النظر ، والإطالة في الاستخارة ، فإذا وجده مناسباً لولاية العهد صرح به إلى الناس عامة ، ولا تكون ولاية العهد إلى لمن تتوفر فيه الصفات الحميدة من كرمه ، وشرف مرتبته ، وعلو منصبه ، وتقاه وعفافه، ومعرفته وحزنه ، محباً ومسرعاً لعمل الخير ، جامعاً للمؤثرات ، مستولياً على الغايات ، سابقاً في الحلبات ؛ منه:

" هذا ما عهد هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامة، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة وأعطى به صفقة يمنيه بيعة تامة؛ بعد أن أنعم النظر وأطال الاستخارة وأهمّه ما جعل الله من الإمامة، وعصب به من أمر المؤمنين، واتّقى حلول القدر بما لا يؤمن، وخاف نزول القضاء بما لا يصرف، وخشى إن هجم محتوم ذلك عليه، ونزول مقدوره به، ولم يرفع لهذه الأمّة علماً تأوي إليه، وملجأ تنعطف عليه، أن يكون يلقى ربَّه تبارك وتعالى مفرطاً ساهياً عن أداء الحق إليها ... بعد اطراح الهوى والتحرّي للحق،

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص351-352.

والتزّلف إلى الله جلَّ جلاله بما يرضيه. وبعد أن قطع الأواصر، وأسخط الأقارب؛ فلم يجد أحداً أجدر أن يولّيه عهده، ويفوّض إليه الخلافة بعده: لفضل نفسه، وكرم خيمه، وشرف مرتبته، وعلو منصبه؛ مع نقاه وعفافه، ومعرفته وحزمه ونقاوته؛ من المأمون العيب، الناصح الجيب "أبي المطرّف عبد الرحمن بن المنصور" أبي عامر محمد بن أبي عامر وفقه الله؛ إذ كان أمير المؤمنين – أيده الله– ابتلاه واختبره، ونظر في شأنه و اعتبره؛ فرآه مسارعاً في الخيرات، سابقاً في الحلبات؛ مستولياً على الغايات، جامعاً للمأثرات ... وأشهد من أوقع اسمه في هذا، وهو جائز الأمر، ماضي القول والفعل، بمحضر من ولي عهدهِ المأمون أبي المطرّف عبد الرحمن ابن المنصور وفّقه، وقبوله ما قلّده، وإلزامه نفسه ما ألزمه ..." [1].

ومن الأمثلة الأخرى على عهد الولاية،ما كتبه أبو المطرف ابن عميرة الأندلسي يأخذ البيعة على أهل شاطبة من الأندلس "لأبي جعفر المستنصر بالله العباسي" قام بعقدها أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود أمير الأندلس، ثم أخذ البيعة بعد ذلك عليهم لنفسه وأن يكون ابنه وليَّ عهده فقد اثبتوا البيعة في أعناقهم،وقد اشهدوا الله على أنفسهم بالبيعة له ولابنه من بعده ثم رفعوا أيديهم إلى الله بالوفاء بهذه البيعة بعده؛ وهي:

"... من أن يطلبوه بعقد البيعة لابنه الواثق بالله المعتصم به أبي بكر محمد بن مجاهد الدين، سيف أمير المؤمنين، على أن يكون وليَّ عهدهم مدة والده مدّ الله في حياته، وأميرهم عند الأجل الذي لا بدَّ من موافاته؛ فأمضى لهم ذلك من اتفاقهم، وأثبتوا على ما شرطته بيعته في أعناقهم ... وولده المأخوذ لهما البيعة بعد بيعته، وأشهدوا الله على أنفسهم، وكفى بذلك اعتزاماً والتزاماً، وشدّ لما أمر به وإحكاماً: و(من نكثَ فإنما ينكثُ على نفسه)، (ومن يفعلَ ذلك يلق (أثاما). وهم يرفعون دعاءهم إلى الله تضرُّعاً واستسلاماً، ويسألونه عصمةً وكفايةً افتتاحا واختتاماً؛ اللهم إنّا قد أنفذنا هذا العقد اقتداء واهتماما، وقضينا حقه إكمالاً وإتماماً، وأسلمنا وجهنا إليك إسلاماً؛ فعرِّفنا من حيرة وبركته نماءً ودواما، واكلأنا بعينك حركة وسكونا ويقظة ومناماً: {وهب لنا من أزواجنا

(1) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج 9 ، ص366-367، النويري، نهاية الأرب، ج23، ص408.

وذرياتنا قرَّة أعينٍ واجعلنا للمتقين إماما} إنكَ أنتَ الله منتهى الرّغبات، ومجيب الدعوات، وإله الأرض والسَّموات"[1].

وكان الكتّاب وهم يكتبون هذه العهود، يركزون على اتفاق الناس على هذا العهد والزامهم بعدم نكثه والغدر فيه، مع الاستشهاد من القرآن الكريم على عدم نكث العهود، والذي ينكث عهده، يلقى الإثم والعقاب، كما ورد في العهد السابق.وكان الكتّاب يسترسلون ويطنبون في بيان صفات ولي العهد وخصاله الحميدة، ويختتمون العهود بتاريخ كتابتها[2].

2-5-4 عهد الأمان:

أما عهود الأمان فقد كانت من الأغراض الرئيسة التي تناولها كتّاب الرسائل الديوانية، بسبب كثرة الفتن والثورات التي قامت في أنحاء مختلفة من الأندلس[3]. وقد ورد في كتابي "صبح الأعشى، ونهاية الأرب" إشارات إلى عهود أمان مختلفة أعطاها الخلفاء والأمراء إلى الثائرين والخارجين على الدولة، وسنطرح في هذا المجال بعض الأمثلة على عهود الأمان.

وكان الكتّاب يركزون في كتابة هذا النوع من العهود، على بيان قوة وعصمة الدولة على الثائرين والعاصين، وبيان أسباب العصيان على الدولة، ثم يركزون على حسن السياسة عند الثائر الذي يرى في النهاية عدم قدرته على مجابهة الدولة، فيقرر العودة إلى الطاعة.

ومن الأمثلة على هذا النوع ما كتبه أبو جعفر عمر بن برد الأصغر. في عهد أمان كتبه لمن عصى وعاود الطاعة ، ويشير الكاتب فيه إلى أن الغلبة لهم (أي الدولة) ، ويطلب ممن عصا أن يعود إلى الطاعة دون عقد أو شرط ، حتى لا يكون هناك سبب لسفك دمه ، ويصف الكاتب سياسة من قبلهم بأنها خرقاء ، لأنه غاب عن ترغيبه وترهيبه فقد عدم مخافتهم إلى الخروج على الدولة والطغيان وطلب السيادة ، ثم يطلب منه العودة

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص305-308.

(2) القيسي، أدب الرسائل ...، ص118.

(3) المصدر نفسه، ص118 .

إلى الطاعة بعد أن يمعن النظر في أمره ، فإن عاد إلى الطاعة فأمان الله له وأن لم يعد فعليه مواجهة مصيره؛ يقول فيه:

" أما بعد، فإن الغلبة لنا والظهور عليك جلباك إلينا على قدمك، دون عهد ولا عقد يمنعان من إراقة دمك، ولكنا بما وهب الله لنا من الإشراف على سرائر الرِّياسة والحفظ لشرائع السياسة؛ تأمَّلنا من ساس جهتك قبلنا فوجدنا يد سياسته خرقاء، وعين حراسته عوراء، وقدم مداراته شلاّء، لأنّه غاب عن ترغيبك فلم ترجُه، وعن ترهيبك فلم تخشه، فأدتك حاجتك إلى طلاب المطامع الدنيّة، وقلّة مهابتك إلى التهالك على المعاصي الوبيّة وقد رأينا أن تظهر فضل سيرتنا فيك، وتعتبر بالنظر في أمرك، فمهدنا لك الترغيب لتأنس إليه، وظلّلنا لك الترهيب لتفرق منه، فإن سوّت الحالتان طبعك، وداوى الثقاف والنار عودك، فذلك بفضل الله عليك، وبإظهاره حسن السياسة فيك؛ وأمان الله تعالى مبسوطٌ منا، ومواثيقه بالوفاء معقودة علينا؛ وأنت إلى جهتك مصروف، وبعفونا والعافية منا مكنوف، إلاّ أن تطيش الصّنيعة عندك فتخلع الرَّبقة ، وتمرق من الطاعة، فلسنا بأوّل من بغى عليه، ولستَ بأوّل من تراءت لنا مقاتله من أشكالك إن بغيت، وانفتحت لنا أبواب استئصاله من أمثالك إن طلبت"[1].

4-5-3 عهد الصلح والدعوة إليه:

وتتم في هذا النوع من الرسائل الدعوة إلى الصلح بين أطراف متنازعة، أو دعوة أهل ناحية من النواحي للدخول في صلح مع الحاكم، وتبدأ الرسالة بالدعاء بتآلف القلوب، والتغير من الانشقاق والخروج على الجماعة، ثم تعرض بنود الصلح والإغراءات التي يقدمها الخليفة أو الحاكم لدخول المنشقين تحت لواء دولته، وتختتم الرسالة كالعادة بالدعاء والسلام[2]. وهو قريب من عهد الأمان الذي يعطى في الغالب للثائرين عل الدولة.

ومن الأمثلة على هذا النوع من العهود الموجهة إلى الممالك النصرانية في محاولة عقد الصلح معها رسالة أبي المطرف بن عميرة التي كتبها عن جميل زيَّان، إلى ملك قشتالة من بلاد الأندلس في مراودة الصّلح ، حيث يبدأ الكتاب بالدعاء إلى الملك بإدامة

(1) النويري، نهاية الأرب، ج7، ص306-307.

(2) العربي، دراسات في الأدب الأندلسي، ص216.

عزه وكرامته ، ثم يذكر مكان صدور هذا العهد من مدين مرسيه ، ثم يحمد الله عز وجل ، ويسأله شكره وإحسانه وفضله ، ثم يتحدث عن أسباب عهد الصلح وما يجلبه عليهم من الخير والأمان ، ثم يطلب في الكتاب من ملك قشتالة أن يبعث مجموعة مما يرتضيهم للمصادقة على هذا العهد ، ويختتم كتاب العهد بالسلام ؛ يقول فيه:

"كتابنا إليكم – أسعدكم الله برضاه، وأدام عزّتكم وكرامتكم بتقواه- من مرسية، ونحن نحمد الله الذي لا شيء كمثله، ونلجأ إليه في أمرنا كلّه، نسأله أن يوزعنا شكر إحسانه وفضله – وعندنا لجنابكم المرفّع تكرمة نستوفيها، ومبَّرة ننتهي إلى الغاية فيها، وعلمنا بمحلّكم الشهير، وكتابكم الخطير، يستدعي الزيادة من ذلكم ويقتضيها؛ وقد كان من فضل الله المعتاد، وجميل صنعه في انتظام الكلمة في هذه البلاد، ما اكتنفه العصمة، وكملت به النعمة والمنّة وتيّسر بمعونة الله فتح أقر العيون، ورضيه الإسلام والمسلمون، وكانت مطالعتكم به مما آثرنا تقديمه، ورأينا أن نحفظ من الأسباب المرعيّة على التفضيل الجملة [حديثه وقديمه] وحين ترجّحت مخاطبتكم من هذا المكان، ومفاوضتكم في هذا الشأن ... ويذكر من قصدنا ما نولع به ونعنى؛ وهو فلان في ذكر السلم ومحاولتها، ما يتأدى من قبله على الكمال بحول الله تعالى. وإن رأيتم إذا انصرف من عندكم، أن توجِّهوا زيادةً إلى ما تلقونه إليه من رجالكم وخاصتّكم؛ في معنى هذا العهد وإحكامه، ومحاولته وإبرامه؛ فعلتم من ذلك ما نرقب أثره، ونصرف إليه من الشكر أوفاه وأوفره، إن شاء الله تعالى: وهو الموفّق لا ربَّ سواه، والسلام الأتمُّ عليكم كثيراً"(1).

ومن الأمثلة الأخرى على عهد الصلح والدعوة إليه، نستشهد بما كتبه الفقيه أبو عبد الله ابن ... أحد كتّاب الأندلس، عن بعض ملوك الأندلس من المسلمين من أتباع "المهديّ بن تومرت" القائم بدعوة الموِّحدين، مع "دون فرانده" صاحب قشتالة من ملوك الفرنج بعقد الصُّلح على مرسية من بلاد الأندلس؛ يقول فيه:

"هذا عقدنا بعد استخارة الله تعالى واسترشاده، واستعانته واستنجاده؛ نيابةً عن الإمارة العليَّة بحكم استنادنا إلى أوامرها العالية، وآرائها الهادية عقدناه – والله الموفق- لقشتالة مع فلان النائب في عقده معنا عن مرسله إلينا، الملك الأجلِّ الأسنى المبجَّل "دون

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص116-117.

فرانده" ملك قشتالة، وطليطلة، وقرطبة وليون، وبلنسية – أدام الله كرامته وميزته بتقواه– حين وصلنا من قبله كتاب مختوم بطابعه المعلوم له المتعارف عنه، تفويضاً منه إليه، في كل ما يعقد له وعليه.

وعاقدنا على أن يكون السِّلم بيننا وبين مرسله المذكور لعامين اثنين، أولهما شهر المحرّم الذي هو أول سنة تاريخ هذا الكتاب، الموافق من الأشهر العجمية شهر كذا، على جميع ما تحت نظرنا الآن من البلاد الراجعة إلى الدَّعوة المهدية ... وثغورها، مواسطها وأطرافها ... ومن هذه المهادنة أن لا يتسبَّب إلى الحصون بالغدر ولا بالشَّرِّ، ولا يتجاوز النصارى حدو د بلادهم وأرضهم بشيء من البناء، ولا يصل من بلد قشتالة مدد لمخالفنا، ولا معونة لمفاتننا ...

وعلى ما تضمَّنه هذا الكتاب أمضى فلان –أعزه الله– بحكم النيابة، عن الأمر العالي –أسماه الله– هذا العقد الصّلحيّ، وأشهد بما فيه على نفسه وحضره المفسل طور المذكور ... و الله الموفق لما يرضاه، ومقدم الخير والخيرة فيما قضاه، بمنِّه والسلام"[1].

وقد وضح كاتب هذا العهد شروط عقد الصلح الواردة في العهد، تحديد مدة العهد "بعامين" ، ومن شروط العهد الواردة في الكتاب أن لا يتسبب إلى الحصون الأندلسية بالغدر ولا بالشر ، ولا يتجاوز النصارى حدود بلادهم وأرضهم بشيء من البناء ، ولا يصل من قشتالة مدد ومعونة لأي مخالف للدعوة المهدية في الأندلس ، وتم التوقيع في نهاية الكتاب على جميع ما جاء فيه ، كما ورد في الكتاب العديد من المدن الأندلسية الواقعة في هذا العهد.

ومن الأمثلة الأخرى أيضاً على عهد الصلح، نورد ما كتبه الفقيه المحدِّث أبو الربيع ابن سالم من كتّاب الأندلس، بين ملكين متكافئين دون تقرير شيء من الجانبين، في عقد صلح على بلنسية وغيرها من شرق الأندلس؛ يقول فيه:

"وبعد، فهذا كتاب موادعةٍ أمضى عقدها والتزمه، وأبرم عهدها وتممه؛ فلان لملك أرغون، وقومط برجلونة، وبرنسب مقت بشلى، حافظة (؟) بن بطرة، بن أدفونش، ابن ريموند، أدام الله كرامته بتقواه له خاتماً وعنواناً، المعهود صدوره في أمثالها من

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص24–26.

المراوضات الصُّلحيَّة تضرعاً وإعلاناً؛ متضمّناً من الإحالة في عقد المسالمة عليه، والتَّفويض في إبرام أسبابها و التزام فصولها وأبوابها إليه ... وموافقة منه على ما يحفظ حقَّ المسلمين ويوقّيه، جنوحاً منه إلى ما جنح إليه من ذلك متقاضيه ... فأجلى ذلك على إمضاء عهد السّلم لملك أرغون على بلنسية وكافَّة جهاتها أطرافاً ومواسط، وثغوراً وبسائط؛ وكذلك شاطبة ودانية، وما ينتظم معهما من أحوازهما ويرجع إلى حكم بلنسية وحالها من الجهة النائية والدانية؛ لمدة عامين اثنين، ... وألزم نفسه مع ذلك وصول كتاب هذا الملك الذي تولّى النيابة عنه في هذا العقد، مصرِّحاً بالتزامه وإمضائه فيه عمله، وفق ما تضمَّنه كتابه الذي أرسله، واشهد مع ذلك زعماء دولته وكبراء القائمين عليه، تحقيقاً لمعناه، وتوثيقاً لمبناه، إن شاء الله تعالى"[1].

ومن الأمثلة الأخرى ما كتبه أبو المطرف بن المثنى عن المنصور إلى هشام بن الحكم يخبره بجريان الصلح بينه وبين الموفّق، بعدما كان بينهما من عداوةٍ ؟ يوضح الكاتب إن سبب النزاع والعداوة بينهم الشيطان ، فقد نزع بين المرء وصديقه ، والأخ وشقيقه ، فكان نتيجة الاستجابة للشيطان أن حل التشتيت والتبعيد والتقريب ، والمسلمون يعودون إلى التجامل والتآلف والإنصاف والتحابب ، وتحل المحبة بدل البغضاء ، فيصبح الأخوة أليفي تناصر ، وحليفي تظافر ، وهذا كله في ظل أمير المؤمنين؛ يقول فيه:

"... وبعد – أبقى الله أمير المؤمنين- فإن كتابي إليه سلف معرباً عن النَّزعة التي كانت بيني وبين الموفَّق مملوكة، وقديماً نزع الشيطان بين المرء وصديقه والأخ وشقيقه؛ وضرب ساعياً بالتشتيت والتشغيب، والتبعيد والتقريب، بين الأب الحاني الشفيق، والابن البر الرفيق؛ ثم يعود ذوو البصائر والنّهى، وأولو الأحلام والحجا، إلى ما هو للشحناء أذهب، وبالتجامل أولى وأوجب. وكتابي هذا وقد نسخ الله بيننا آية الافتراق، بالاتصال والاتفاق؛ ومحاسمة التباين والخلاف، وبدو التآلف والإنصاف ... وصرنا في القيام بدعوة أمير المؤمنين مولانا وسيدنا رضيعي لبان، وشريكي عنان؛ وأليفي نيً ولا سعةً؛ من إطلاع أمير المؤمنين مولاي وسيدي من ذلك على الجليَّة وإعلامه بالصورة ...". [2]

(1) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج14، ، ص26-29.

(2) المصدر نفسه، ج6، ص524-526.

الخاتمة:-

لقد صورت الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي مظـاهر الأدب الأندلـسي الذي جاء منوعاً بين النثر والشعر، وسلطت الضوء على هذا الأدب الذي يحمل بين طياته ممن ارسوا قواعد هذا الأدب الذي جاء في أغلبه مسايراً للأدب العربي في المشرق .

ودرست في هذه الرسالة " الأدب الأندلسي في الموسوعات الأدبية في العـصر المملوكي ، وكانت الغاية المرجوة من هذه الدراسة إلقاء الضوء على الأدب الأندلسي فيها فأكثر الدارسين والمؤرخين لم يعتمدوا على دراسة الأدب الأندلسي في هذه الموسـوعات، وإنما اقتصرت دراساتهم على جوانب أخرى .

وتبيّن ليّ أن الصلة كانت وثيقة بين الأدب الأندلسي والموسوعات الأدبيـة فـي العصر المملوكي ، فبدا الأدب الأندلسي واضحا فيها . أما الشعر الأندلسي فقد جاء قلـيلاً فيها ، فقد اقتصرت على ذكر نماذج من الشعر الأندلسي .

أما النثر الأندلسي في الموسوعات جاء قليلاً،واقتصرت على ذكر نماذج مـن النثـر الأندلسي .

كما سلطت الضوء على علماء الأدب الأندلسي " الشعراء والكتّـاب " فتعرضـت لذكر بعضاً من آدابهم . كما سلطت الضوء على فنون النثر الأندلسي ، فحوت بين طياتهـا العديد منه .

كما ركزت الموسوعتان الأدبيتان "صبح الأعـشى،نهاية الأرب" علـى الـشعراء الأندلسين من الأمراء والحديث عن مقطوعات من أشـعارهم وكمـا ركـزت موسـوعة العمري "مسالك الأبصار"على ذكر الشاعر ابن زيدون،وحوت بين طياتها مقطوعات مـن شعره الذي جاء منوعا في أغلب موضوعات الـشعر،والتركيز علـى أشـعار شـعراء الأندلس التي جاءت عبارة عن أبيات متناثرة في طياتها.

كما ركزت الموسوعتان الأدبيتان"صبح الأعشى ،ونهاية الأرب" على كاتبين مـن كتاب الأندلس وهما(ابن أبي الخصال،وابن الخطيب) حيث اتخذهما القلقـشندي نموذجـاً للنثر الأندلسي، كما ركزت موسوعة "مسالك الأبصار"علـى كاتـب واحـد مـن كتـاب الأندلس"ابن عربي"كما ذكرت بعـض المقطوعـات النثريـة المتنـاثرة فـي صـفحات الموسوعات لكتاب اخرين.

ولمست من استقرائي للأدب الأندلسي في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي؛ أن الأدباء الأندلسيين اتكئوا على الموروث الأدبي ،فنسجوا كتاباتهم النثرية والشعرية تقليدا للأدباء في المشرق العربي فجاءت في أغلبها مسايرة للأدب في المشرق تتطور بتطوره.

كما جاء الأدب الأندلسي مسايراً للأدب المشرقي،حيث لا يشعر القارئ بأن هناك فرقاً بين أدب المشارقة والمغاربة ،بل جاء مكملاً للأدب المشرقي في جميع المجالات.

كما اتفق الأدب الأندلسي مع معايير العصر الأندلسي ، فعلى سبيل المثال ، كانت المقطوعات الأدبية أكثر ملائمة لروح عصرهم للتعبير عن بعض الموضوعات ، كوصف المدن ،المعارك ، الطبيعة، أما الصورة الشعرية فقد تأثرت واستمدت من حياتهم اليومية التي كانوا يعيشونها ، فجاءت تعبيراً صادقاً لمشاعرهم وعواطفهم .

كما أن الموسوعات الأدبية المملوكية لم تحفظ لنا نصوصاً أندلسية قد ضاعت ولم نجدها في المصادر الأندلسية.

وكل ما يمكن قوله إن الأدب الأندلسي ، قد اتسع مجاله في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي ، فقد صورت العديد من جوانبه. ولهذا آمل أن تكون دراستي سبيلا مضاء تساهم إلى حد ما في إماطة اللثام عن الأدب الأندلسي في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي ، ويغدو واضحا في هذه الموسوعات .

المراجع

ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار (595- 658هـ/1199-1260م)،(د.ت) **الحلة السيراء**، الجزء الأول والثاني، حققه وعلق حواشيه حسين مؤنس، الناشر الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة.

ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار (595- 658هـ/1199-1260م) ،(1375هـ/1956م)**التكملة لكتاب الصلة** ،عني بنشره ،وصححه،ووافق على طبعه السيد عزت العطار الحسني، مكتب الثقافة.

الأصفهاني العماد ،(ت597هـ)،**خريدة القصر وجريدة العصر**،تحقيق عمر الدسوقي و علي عبدالعظيم ،دار نهضة مصر للطبع والنشر،الفجالة-القاهرة،القسم الرابع الإسلامية.

أدهم علي ،(د.ت)**صقر قريش عبد الرحمن الداخل قصة حياته السرية العامرة ودراسة تحليلية لمؤسس الدولة الأموية في الفردوس المفقود**، تقديم عباس محمود العقاد، دار الهلال.

بدر أحمد ،1988م **صقر قريش عبد الرحمن الداخل**، الطبعة الأولى ، طلاس للدراسات والترجمة والنشر.

بو طالب ، عبدالهادي ،(1960م) **وزير غرناطة لسان الدين محمد بن الخطيب السلماني** ، نشر دار الكتاب ، الدار البيضاء ، طبعة الثانية .

الإدريسي،الشريف،1998م **المغرب وارض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**،طبع في مدينة ليدن بمطبع بريل.

أمين، أحمد أمين،(د.ت) **ظهر الإسلام، يبحث في الحياة العقلية في الأندلس من فتح العرب لها إلى خروجهم منها، ويتكلم في الحركات الدينية واللغوية**

والنحوية والأدبية والفلسفية والتاريخية والفنية، مكتبة النهضة المصرية– القاهرة، الجزء الثالث.

ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (542هـ)، (د.ت)**الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة. بيروت – لبنان.

البيومي، محمد رجب البيومي، 1966م **الأصالة في شعر الطبيعة بالأندلس،مجلة الأديب**، العدد (25) .

ابن تغرى بردى،جمال الدين أبي المحاسن يوسف،المتوفى سنة 874هـ، 1998م **الدليل الشافي على المنهل الصافي**،تحقيق وتقديم فهيم محمد شلتوت،الطبعة الثانية،مطبعة دارالكتب المصرية بالقاهرة .

ابن حمديس ، المتوفى سنة 527هـ ، (1379هـ–1960م) ،الديوان، صححه وقدم له احسان عباس ، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر_ بيروت .

الحميري،أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم،1937م ،**الروض المعطار في خبر الأقطار، وهو معجم جغرافي تاريخي**، جمعه سنة (866هـ)، عني بنشرها وتصحيحها وتعليق حواشيها. ليفي بروفنسال، القاهرة، مطبعة التأليف والترجمة والنشر .

الحموي ، الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ت (662هـ – 1228م) ، 1399هـ – 1979م **معجم البلدان** ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان .

ابن خاقان، أبو الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الأشبيلي، الشهير بابن خاقان (529هـ)، 1409هـ–1989م **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**، حققه وعلق عليه، حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الطبعة الأولى.

ابن أبي الخصال، الكاتب الفقيه أبي عبد الله بن أبي الخصال الغافقي الأندلسي،ت(540هـ) 1408هـ–1987م **رسائل ابن أبي الخصال**، تحقيق محمد رضوان الدّاية، دار الفكر، دمشق – سورية، الطبعة الأولى.

ابن الخطيب، لسان الدين ابن الخطيب،ت(776هــ)،(د.ت) **الإحاطة في أخبار غرناطة** ، حققه وقدم له محمد عبد الله عنان، دار المعارف بمصر.

ابن الخطيب،**منوعات ابن الخطيب**، تحقيق الحسن بن محمد السائح، (1398هــ-1978م) المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مديرية الشؤون الإسلامية، .

ابن خفاجة، ابراهيم ،(ت533هــ)،(د.ت) **الديوان**، تحقيق السيّد مصطفى غازي، منشأة المعارف بالإسكندرية.

ابن خلدون، وهو وحيد عصره العلامة عبد الرحمن ابن خلدون المغزي،(ت808هــ)،1420هــ-1999م **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتاب المصري – القاهرة، دار الكتاب اللبناني- بيروت،.

ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر(608هــ - 681هــ)، 1977م **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ، حققه إحسان عباس ، دار صادر بيروت .

ابن دحية،ابو الخطاب عمر بن حسن ت (633 هــ)،1954م **المطرب في أشعار أهل المغرب**، حققه مصطفى عوض، الطبعة الأولى، مطبعة مصر – الخرطوم.

الذنون، عبد الحكيم الذنون، 1408هــ-1988م **آفاق غرناطة**، بحث في التاريخ السياسي والحضاري العربي ملحق موجز تاريخ الأندلس العربي، الطبعة الأول ، دار المعرفة نشر وتوزيع طباعة وترجمة، مطبعة الصبّاح.

الذهبي الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان،المتوفى سنة748هــ. (د.ت)**العبر في خبر من غبر**،حققها وظبطها على مخطوطتيين أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان

الركابي، جودت الركابي،1378هــ-1959م **الطبيعة في الشعر الأندلسي**، مطبعة جامعة دمشق.

ابن زيدون، ابو الوليد احمد بن عبدالله بن غالب بن زيدون المخزومي الاندلسي القرطبي،(ت463هـ)(د.ت)،**ديوان إبن زيدون ورسائله**،شرح وتحقيق علي عبدالعظيم،دار نهضة مصر للطبع والنشر ،الفجالة–القاهرة.

السعيد، محمد مجيد السعيد، 1972م–1392هـ **الشعر في ظل بنيّ عبّاد**، الطبعة الأولى ، مطبعة النعمان النجف لأشرف.

ابن سعيد،ابو الحسن علي بن موسى(610–685 هـ)،(د.ت)**المغرب في حلى المغرب** ، حققه وعلق عليه، شوقي ضيف، الطبعة الرابعة، دار المعارف.

السيوطي،الإمام الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر،المتوفى في عام 911 من الهجرة،1371هـ،1952م **تاريخ الخلفاء** ،تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد،مطبعة السعادة بمصر،الطبعة الأولى.

السيوطي،الإمام الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر،المتوفى في عام 911 من الهجرة ،1369هـ،1950م **الوسائل إلى مسامرة الأوائل**،حققه اسعد طاس،مطبعة النجاح بغداد.

الشعراوي، أحمد إبراهيم الشعراوي، (د.ت)**الأمويون أمراء الأندلس الأول**، المطبعة العالمية.

الشكعة، مصطفى الشكعة، 1975م **الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه**، دار العلم للملايين بيروت، الطبعة الثالثة .

الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك ،1408هـ – 1988م **الوافي بالوفيات**، تحقيق عبد الأحد – عبد العزيز ، باعتناء أيمن فؤاد سيّر ، شتو تغارت.

ضيا باشا، 1989م **الأندلس الذاهبة دول الطوائف ودولة المرابطين وبداية دولة الموحدين**، ترجمة عبد الرحمن أرشيدات، راجعه وحققه صلاح أرشيدات، الجزء الثاني، منشورات وزارة الثقافة والإعلام (14) المملكة الأردنية الهاشمية – عمان.

ضيف، أحمد ضيف، 1998م **بلاغة العرب في الأندلس**، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة–تونس، الطبعة الثالثة .

ضيف ، شوقي ضيف ، (د.ت)**الفن ومذاهبه في النثر العربي**، طبعة ثالثة مزيدة موسعة، دار المعارف بمصر، مكتبة الدراسات الأدبية (19)

عتيق ، عبد العزيز عتيق،1976م **الأدب العربي في الأندلس**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت .

العربي سالم الشريف، 2003م **دراسات في الأدب الأندلسي**، دار شموع الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى .

العمري ، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري ، ت (749هـ) ،(د.ت) **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** ، تحقيق عبد الله بن يحيى السريحي .

عنان، محمد عبد الله عنان، (د.ت)**دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى نهاية مملكة غرناطة، العصر الأول.**

الفقي، عصام الدين عبد الرؤوف الفقي،(د.ت) **تاريخ المغرب والأندلس**، مكتبة نهضة الشرق جامعة القاهرة.

قارة، حياة قارة،1995م **رسائل جديدة لأبي عبد الله بن أبي الخصال**، كلية الآداب، فاس–المغرب، بحث منشور في مجلة دراسات أندلسية، العدد (13–14).

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (821هـ–1418م)،(د.ت) **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ومذيلة بتصوييات واستراكات وفهارس تفصيلية مع دراسة وافية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

القيسي،فايز عبد النبي فلاح القيسي،1409هـ –1989م **أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري**، دار البشير للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،عمان .

الكتاني، أبو عبد الله محمد بن الكتان الطبيب،1981م-1410هـ **كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس**، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة ، دار الشروق القاهرة.

الكتبي ، محمد بن شاكر ،(دت) 764هـ، (1974م) ، **فوات الوفيات والذيل عليها** تحقيق احسان عباس ،دار صادر بيروت

مبارك، زكي ،(د.ت) **النثر الفني في القرن الرابع**، الطبعة الثانية، يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بمصر، الجزء الأول.

مراد حسن ،(1348هـ - 1930م)، **تاريخ العرب في الاندلس** ، الطبعة الاولى ، المطبعة الحديثة ، القاهرة

مرعشلي، نديم مرعشلي، (د.ت)**المعتمد بن عبّاد، بطل جسد مأساة الأندلس وشاعر غنى مجدها المفقود**، دار الكاتب العربي،بيروت.

المراكشي ، عبد الواحد ، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى اخر عصر الموحدين مع ما يتصل بتاريخ هذه الفترة من أخبارالشعراء وأعيان الكتاب** ، ضبطه وصححه وعلق حواشيه وانشاء مقدمته ، محمد سعيد العريان، و محمد العربي العلمي ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة.

المعتمد بن عبّاد ملك إشبيلية(ت488هـ)،1951م **الديوان**، جمعه وحققه أحمد أحمد بدوي، حامد عبد المجيد، أشرف عليه وراجعه طه حسين، وزارة المعارف العمومية، الإدارة العامة للثقافة، إدارة نشر التراث القديم، المطبعة الأميرية بالقاهرة .

المقري، الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني(ت1038هـ)،2004م **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب**، حققه إحسان عباس، دار صادر-بيروت، الطبعة الأولى (1968م).

المعجم الوسيط،(د.ت)مجمع اللغة العربية ، قام بإخراجه إبراهيم مصطفى ، أحمد حسن الزيات ، حامد عبدالقادر، محمد علي النجار ، وأشرف على طبعه ، عبدالسلام هارون ، المكتبة العلمية ، طهران ، الجزء الأول .

ابن مماتي اسعد بن مهذب بن أبي مليح، توفي 606هـ،2001م **لطائف الذخيرة،وطرائف الجزيرة**،وهو تلخيص لكتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لعلي بن بسام،تحقيق وتقديم نسيم مجلى،الهيئة المصرية العامة للكتاب

النويري، شهاب الدّين أحمد بن عبد الوّهاب النّويري (677-733هـ)، 1980م **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق أحمد كمال زكي، مراجعة محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الهروط،عبدالحليم حسين،**النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب**،الطبعة الاولى،2006م – 1426هـ،دار جرير للنشر والتوزيع

هيكل ، أحمد ، **الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة** ، طبع بمطابع دار المعارف.

الوائلي،عبدالحكيم،(2000م)،**موسوعة شعراء الأندلس**،دار أسامة للنشر والتوزيع،الاردن،عمان.

يكن، زهدي يكن، 1975 م **المعتمد بن عباد وشعراء عصره**، حققه وعلق حواشيه، محمد زهدي يكن، قدم له سامي نسيب مكارم، دار يكن للنشر بيروت.